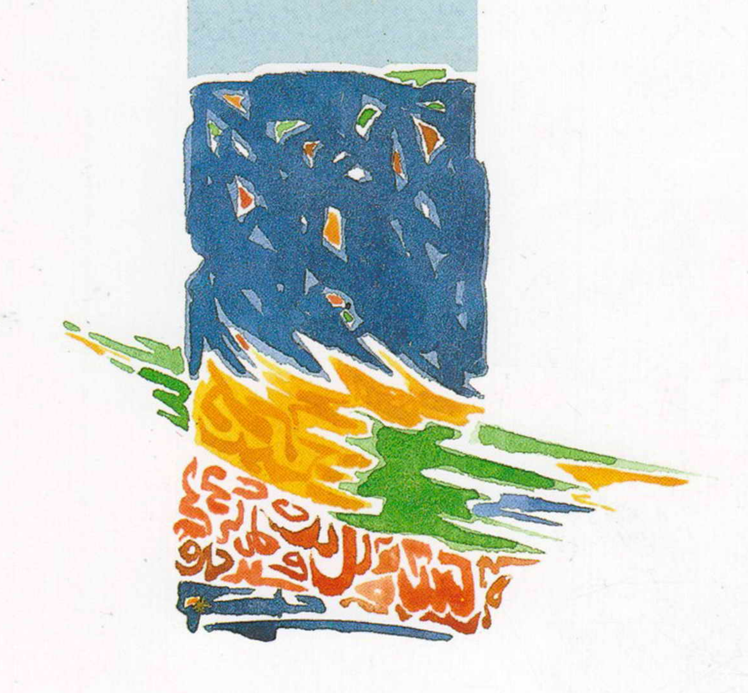
آية الله جوادي آملي

خمس رسائل



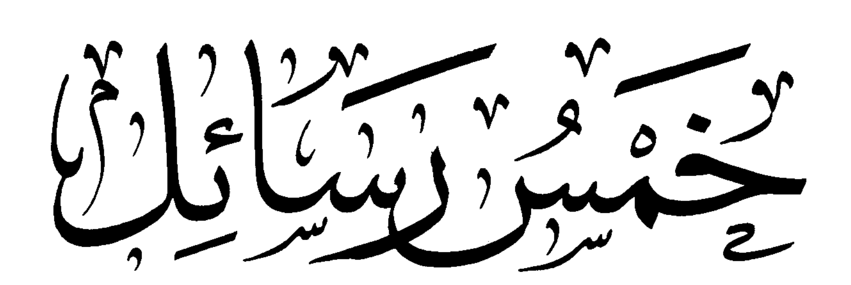




خمس رسائل



آية الله جوادي آملي





الطبعة الأولى

١٤١٤هـ - ١٩٩٤م

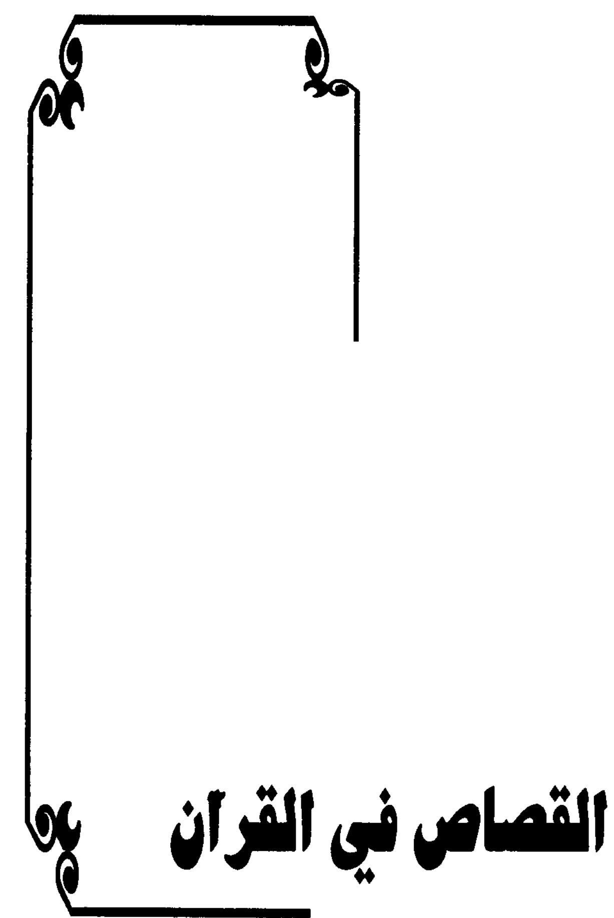
دار الصفوة

بيروت ــ بئر العبد ــ الصنوبرة ــ مقابل سنتر داغر ــ بناية دياب مهدي

ت: ٨٢٣٥١٨ـ ٨٢٢١٦٧ـ ٦٠١٠٠٢ Tel: 823518 - 822167 - 601002

فاكس: ٠٠٩٦١١٦٠١٠١٩ Fax: 009611601019

ص.ب: ٦٣ / ٢٤ P.o. Box: 36/24



القصاص في القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين وصلّى الله على جميع الأنبياء والمرسلين سيما محمّد وآله الطاهرين .

وبعد فيقول العبد المفتقر إلى الله ، عبد الله الجوادي الطبري الآملي هذه ويجزة حول القصاص في القرآن .

إن القرآن لكونه نوراً وهدايةً للناس وفيه تبيان كلّ شيء يحتاج إليه الإنسان في سعادته ، يبين جميع ما له دور في الحياة الطيبة ولا يترك شيئاً من ذلك سدى؛ وليس هو كتاب قانون جامد بحت يختص بيان ما يوجب النظم المادّي الساذج بلا تعرض لبعده المعنوي ، وإلا لما كان نوراً تاماً كاملاً .

ومن ذلك التعرض لحكم الجناية على الغير عمداً بقتله أو قطع عضوه أو جرحه أو نحوه ، وهو بأن يقتص من الجاني .

واستيفاء المقال هنا يتم في مقامين: أحدهما في قصاص النفس ، والاخر في قصاص العضو قطعاً أو جرحاً ، اما المقام الأول ففيه فصول .

الفصل الأول
في تفسير تعمد القتل

ان القتل العمدي يحصل بامور: احدها قصد قتل الغير بفعل ما ينتهي إلى قتله سواء كان ذلك الفعل موجباً للقتل غالباً أو لا ، وثانيها قصد الفعل الموجب للقتل غالباً ، سواء قصد الفاعل به القتل أو لا . وثالثها الجمع بين الأمرين ، وهو قصد القتل بقصد ما يوجبه . ورابعها قصد الفعل الذي لا يكون بطبعه موجباً للقتل غالباً ولا قصده الفاعل أيضاً ، إلا أن الذي وقع عليه الفعل كان مريضاً أو هرماً إثر ذلك الفعل وأوجب قتله مع كون الفاعل عالماً به؛ وهذا القسم عند التحليل ينتهي إلى القسم الثاني .

الفصل الثاني
في الموقف الاجتماعي لتعمد القتل

ان القرآن يهتف بالخطر الهائل للقتل العمدي ، حيث يقول:

﴿من أجل ذلك كتبنا على بني اسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الارض فكأنما قتل الناس جميعاً﴾[1] .

فتدل على أن قتل الذي لا يستحق القتل ـ لأنه لم يقتل نفساً محترمة ولم يفسد في الارض فساداً موجباً له ـ بمنزلة قتل جميع الناس ، لأنه سَنّ القتل واغرى العداء العام وبث البغضاء وبعث الشحناء الشامل في الأمة المنسجمة الواحدة ، فيكون قتل بعضهم كقتل الكل وحياته حياتهم؛ فلذا يوضع القاتل في واد من جهنم يوضع فيه من قتل جميع الناس[2] والتفاوت

---

(١) سورة المائدة ، الآية (٣٢) .

(٢) الوسائل الباب ١ من أبواب القصاص في النفس .

هو زيادة العقاب .

ولا اختصاص لهذا الموقف الهائل ببني اسرائيل ـ حسبما جاء في صدر الآية لاحتفافها بالقرينة اللفظية واللبية الدالة على ان القتل العمدي في نفسه خطير ، بلا فرق في ذلك بين الامم؛ ويؤيده انه «مرّ النبي ﷺ بقتيل فقال: من لهذا؟ فلم يذكر له احد ، فغضب ثم قال والذي نفسي بيده لو اشترك فيه اهل السماء والأرض لاكبّهم الله في النار»[1] فتحصّل: انّ القتل العمدي في موقف خاص بحيث يكون قتل البعض كقتل الجميع ، وايضاً بحيث لو اشترك اهل السماء والأرض في قتل واحد عذبوا جميعاً في النار؛ فيكشف ذلك من اهتمام الشرع بصيانة الدماء المحقونة والنفوس البريئة بتهديدين حادّين: احدهما كون قتل البعض بمنزلة قتل الكل ، وثانيهما تعذيب الكل عند اشتراكهم في قتل البعض .

الفصل الثالث
في النهي التحريمي عن تعمد القتل تكليفاً

إن القرآن ينادي بحرمته وينهى عنه بالخصوص حيث قال تعالى:

﴿ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرّم الله إلا بالحق﴾[2] .

فنهى عنه بالخصوص مع كونه من الفواحش ، كما نهى عن مثله من الكبائر الموبقة في السور المكية النازلة قبل الهجرة ، كالشرك بالله ، وعقوق الوالدين ، وقتل الاولاد ، وغيرها . ثم انه تعالى عدّ ذلك كله مما أُوحى

---

(١) المستدرك الباب ٢ من أبواب القصاص في النفس .
(٢) سورة الانعام ، الآية (١٥١) .

إلى رسوله من الحكمة ، فجمع في تلك الآيات[1] بين الحكمتين : النظرية والعملية . وحيث انتهى الأمر إلى قتل الاولاد ، فنشير إلى السيرة المشؤومة منه في الجاهلية ، حيث ان اهلها كانوا يقتلون أولادهم في موارد ـ منها : قتل البنات ووأدها لتوهم السبي والعار **﴿وإذا بشّر احدهم بالانثى ظلّ وجهه مسوداً وهو كظيم * يتوارىٰ من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسّه في التراب﴾**[2] وجعله الله موجباً للسؤال والعقاب يوم القيامة بقوله تعالى :

﴿وإذا الموؤدة سئلت * بأيّ ذنب قتلت﴾[3] ومنها : قتل مطلق الأولاد خشية الاملاق ، حيث نهى عنه القرآن بقوله تعالى :

﴿ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق﴾[4] ومنها أيضاً قتل مطلق الأولاد قرباناً للأصنام التي اتخذوها آلهة ، ونهى عنه بقوله تعالى :

﴿وكذلك زيّن لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم﴾[5] . الآية و**﴿قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم﴾**[6] .

وقد عدّ القرآن من شرائط قبول بيعة النساء ان **﴿ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن﴾**[7] بأيّ نحو من القتل المحرم . فاقض العجب كيف كان القرآن نوراً أضاء الظلام وهدى الجاهلية التي كانت تتقرب إلى الاصنام بقتل الأولاد

---

(١) سورة الإسراء ، الآيات (٢٢ إلى ٣٩) .
(٢) سورة النحل ، الآيتين (٥٨ ـ ٥٩) .
(٣) سورة التكوير ، الآيتين (٨ ـ ٩) .
(٤) سورة الإسراء ، الآية (٣١) .
(٥) سورة الأنعام الآية (١٣٧) .
(٦) سورة الأنعام ، الآية (١٤٠) .
(٧) سورة الممتحنة ، الآية (١٢) .

إلى الاسلام ، الذي به صاروا سادة الناس وقادة الامم ان اهتدوا ولم يتعدوا حدود ما انزل الله !

الفصل الرابع
في وجوب التوبة والكفارة على من تعمد القتل

ان اقتراف جريمة القتل لها عواقب هائلة إن لم تغفر بالتوبة والتكفير؛ ولذا قرر في الشرع للمعاصي الموبقة التكفير الخاص عدا التوبة؛ ومن تلك الكبائر المهلكة القتل العمدي ، حيث أنه يجب على من ارتكبه عدا التوبة الخالصة والإنابة الناصحة ، الكفارة الفائقة ، وهو الجمع بين تحرير رقبة مؤمنة وصيام شهرين متتابعين واطعام ستين مسكيناً؛ والقرآن وإن اكتفى بكفارة القتل الخطائي ، إلا أن ثاني الثقلين اللذين ورثّهما رسول الله ناطق بها في من تعمد القتل ـ كما في الفقه ـ وبيّن هناك الميز بين كفارة القتل العمد وكفارة القتل الخطأ .

الفصل الخامس
في العقاب العظيم الاخروي لمن تعمد القتل

إن القرآن يصرح بالعذاب الاليم لمن تعمد قتل المؤمن ولم يتطهر منه بالتوبة والتكفير والاستيفاء بالانقياد للورثة ، حيث قال تعالى:

﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً﴾(١) . ولعل هذا التهديد الحادّ والترهيب البالغ إنما هو لقتل المؤمن لإيمانه ، لا لداع شخصي وعداء خصوصي؛ والمراد من الخلود هنا: إما الابدي منه وهو ما إذا رجع إلى ارتداد القاتل ، وإما

---

(١) سورة النساء ، الآية (٩٣) .

المكث الطويل إن لم يرجع إليه . وعلى أيّ تقدير تنجحه التوبة ، لأن أثرها الكلامي ـ وهو ما يرجع إلى العقاب الاخروي ـ متفق عليه؛ وإن كان في اثرها الفقهي بالقياس إلى خصوص بعض الآثار اختلاف في الجملة .

الفصل السادس
في تشريع أصل القصاص

إن القرآن يقرر لكل سيئة سيئة مثلها ، ولكل اعتداء اعتداء مثله بالعموم؛ إلا أن المقرر في تعمد القتل هو القصاص ، حيث يقول:

﴿ولكم في القصاص حياة يا أُولي الألباب لعلكم تتقون﴾[1] .

والقصاص هو تتبع أثر الجاني باستيفاء مثله؛ وتشريعه ضامن للحياة ، إذ في ضوئه يتحرز الشخص عن قتل غيره حتى لا يقتل به قصاصاً فتحفظ حياته كما يحفظ حياة غيره ، ففيه حياة للناس؛ وهو المجعول بدواً في تعمد القتل ، فلا دية هناك ـ كما في غيره من شبه العمد والخطاء المحض ـ نعم: لو توافق القاتل وولي المقتول على مال اقل من الدية المقدرة في غيره أو أزيد أو مساويه ورضيا به أمكن سقوط القود بذلك ، كما يمكن سقوطه أيضاً بالعفو المحض حسبما يأتي؛ فتحصل: ان القصاص عامل للحياة ، مضافاً إلى ما يعتبر فيه من التساوي المانع عن التعدي بقتل جماعة بواحد .

***

الفصل السابع
في اعتبار التماثل في القصاص

ان القرآن لكونه كتاباً أُنزل بالحق ليقوم الناس بالقسط ، قد قرر

---

(١) سورة البقرة ، الآية (١٧٩) .

القصاص بحيث لا يتجاوز به عن العدل حيث قال:

﴿وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس﴾[1] . والظاهر منها هو اعتبار التساوي في قتل النفس ، فلا يجوز الاسراف فيه بقتل ازيد من واحد بواحد ، كما كان دأب الجاهلية؛ ولا اختصاص لهذا الحكم ببني اسرائيل - كما مر في الفصل الثاني - إذ الميزان في القصاص هو ما قرره الشرع بالقسط ، لا ما تقضيه الغريزة السبعية المهاجمة .

ثم انه لما كان مجرد تقابل النفس بالنفس يشمل ما إذا كان احدهما حُرّاً والآخر عبداً أو احدهما ذكراً والآخر انثى ، بيّنه وقيّده بقوله:

﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والانثى بالانثى﴾[2] . فتدل على اعتبار التماثل الخاص بين المقتول ومن يقتل قصاصاً .

ولا مجال لتوهم التنافي بين الآيتين بعد كون الاولى مطلقة محمولة على الثانية التي تكون مقيدة ، حيث أنه لا تعارض بين الاطلاق والتقييد ، كما لا تنافي بين العموم والخصوص . والآية ساكتة عما لو قتل الذكر الانثى أو قتلته الانثى ، ولكن لذلك حكم مضبوط في السنة ، والكلام الآن حول الآية الناطقة باعتبار التماثل في الذكورة والانوثة؛ ولا وجه أيضاً للقول بان الآية الأولى مختصة باهل الكتاب ، والثانية مرتبطة بامة الإسلام ، بعدما تقدم من عدم الاختصاص وظهورها في العموم ، حسبما يؤيّده النصوص

(١) سورة المائدة ، الآية(٤٥) .
(٢) سورة البقرة ، الآية(١٧٨) .

والفتاوى .

الفصل الثامن
في بيان من بيده القصاص

ان القرآن ينطق بأن القصاص حق مجعول لولي من قتل عمداً حيث يقول: ﴿ . . . **ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل إنه كان منصوراً**﴾[1] . فالقصاص سلطة خاصة يكون إعمالها أو تركها الذي هو أيضاً نوع أعمال بيد ولي المقتول ظلماً؛ وليس ميراثاً تركه المقتول بل حق بدوي جعل لوليه ، فليس لغيره سهم فيه ، حتى المقتول بعدما اصيب وقبل أن يقتل ، فليس له العفو أو المطالبة بالمال أو الأعمال ، إذ لا حق له أصلاً . نعم: لقصاص العضو قطعاً أو جرحاً حكم آخر ، سيوافيك إن شاء الله .

وحيث أنّ القصاص حق مجعول لولي المقتول فلا مساس له بالحد حتى يحتاج اصل ثبوته إلى حكم القاضي ـ كما في الحدود ـ وبينهما فروق عديدة ـ منها: أن الحد قد يسقط بالتوبة دون القصاص . ومنها: أن الحد يمكن العفو عنه إذا كان ثبوته بالاقرار دون القصاص ، إذ ليس للإمام العفو عنه اصلاً . ومنها: ان الحد لا يصح اجرائه إلا بميزان القضاء وحكم القاضي دون القصاص ، حيث أنه لا يحتاج إلى القضاء ، بل يصح لولي المقتول أن يتولاه . نعم: ذهب بعض الفقهاء إلى اعتبار اذن ولي المسلمين بحيث لو تولاه بدون اذنه يعزّر ، وهذا غير احتياج القصاص ـ كالحد ـ إلى القضاء؛ ولكن لو قتل شخصاً وادعى انه اقتصّ منه فعليه الإثبات ، فإن اثبته

---

(١) سورة الإسراء ، الآية (٣٣).

فهو ، وإلا فيقتّص منه . ومن تلك الفروق: ان الحد لا يثبت بالحلف وليس على صاحب الحد يمين ، بخلاف القصاص الذي يثبت باليمين ، كما انه يسقط بها أيضاً . وله أيضاً خصيصة اخرى ، حيث أنه يثبت بالقسامة ويسقط بها ، وهي نوع خاص من اليمين .

ومنها: أن القصاص حق يرثه وارث المال عدا الزوجين دون الحد . نعم: في بعض أقسام الحدود كحد القذف خصوصية يشبه القصاص من حيث كونه حقاً خاصاً بيد من جعل له؛ إلى غير ذلك من الفروق المبحوث عنها في الفقه؛ والمراد هنا بيان خروج القصاص عن ضابطة الحد في الجملة ، لا بالجملة ، إذ في كلا طرفي الطرد والعكس موارد نقض واستثناء ، حيث أن بعض الحدود أيضاً مما يجوز لعامة المسلمين التصدي له عند حفظ النظم وعدم الفساد ـ كحد من ادعى النبوة أو سب النبي صلى الله عليه وآله وسلم ـ إذ يجوز لمن سمع ذلك أن يتصدى للحد ـ وهو القتل ـ بلا افتقار إلى الحكم ، بل بلا احتياج إلى إذن الوالي ، يعني أنه لا يحتاج إلى قضاء القاضي ولا ولاية الوالي . نعم: لو قتل شخصاً بدعوى أنه ادعى النبوة أو سب النبي صلى الله عليه وآله وسلم مثلاً فعليه البينة وإلا فيقتّص منه ظاهراً وإن كان مصيباً واقعاً .

الفصل التاسع
في عدم الميز بين الذكر والانثى في القصاص

قد يتوهم الميز جهلاً أو تجاهلاً بين الذكر والانثى في موارد خاصة؛ منها: القصاص حيث يقال: بان الانثى نصف الذكر ، ويجعل ذلك قدحاً في كتاب ﴿**لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه**﴾ وطعناً في دين اكمله الله ، ونقداً في نعمة اتمها سبحانه ، وشَيْناً في اسلام قد رضيه الله للناس ديناً؛

فيلحد به في أوساط من الناس يصعب عليهم حل الشبهة ويعتاص عليهم رد ما تشابه منه إلى ما هو محكم في بابه لا يتطرقه الخلل والمغالطة؛ وتحقيقه فيما يلي .

وما أولاً: فلأنه **﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله امراً أن يكون لهم الخيرة﴾** ، لأن الله لا يضلّ ولا يَنْسى ، وهو اعلم بمصالح العباد منهم وارحم بهم منهم ؛ كما انه تعالى اقرب إلى انفسهم منهم؛ وحيث انه هو الله الجامع لجميع الاسماء الحسنى ، فتنحصر الخالقية فيه تعالى بحيث لا خالق سواه؛ ولما كان هو الخالق لا غيره ، فينحصر أمر وكالة الخلق فيه ، فهو وكيل كل شيء بالقول المطلق لا غيره ، فلا مجال لغيره أن يطمع في خلق شيء أو يطمح في أمره بعد خلقه ، قال عز من قائل: **﴿ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل﴾**[1] . وهذا اتقن برهان على توحيد الخالقية وتوحيد الربوبية وتوحيد الالوهية والمعبودية ، فلا خالق سواه ولا رب عداه فلا معبود سواه . فاقض العجب ممن يتلو قوله تعالى: **﴿الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل﴾**[2] ثم لا يلين قلبه إلى ذكر الله ! فويل لمن لاكها بلا تدبر ، واسفاً على من في قلبه قفل الذنب وعلى عينه غطاء الغفلة ، وهو في كِنان مما يدعوه الله إليه .

وأما ثانياً: فلانه لا ميز بين الذكر والانثى فيما هو المهم من الأمور الانسانية اصلاً ، إذ لم يعهد من الشرع في شيء من الكمالات السامية ومعالي الأمور كون الذكورة شرطاً في نيل ذلك الكمال العالي ، أو كون

---

(١) سورة الانعام ، الآية(١٠٢) .
(٢) سورة الزمر ، الآية (٦٢) .

الانوثة مانعة عن نيل ذلك المعنى السامي ، نعم: قد يترائى ذلك في بعض الأمور الاجرائية ـ كالولاية والقضاء ـ واين ذلك من الميز المانع عن تكامل المرأة ؟ مع انه جعل لها وظائف اخرى وحقوق على حدة يمكن لها الرُقّي بها . والحاصل: انه يلزم الباحث المتعمق الفرق بين العلوم والأعمال ، وكذا الفرق بين المعارف والامور الاجرائية؛ والسر في ذلك: هو أن الدين الالهي لتربية الانسان وتهذيبه ، والانسان بما أنه انسان لا فرق فيه بين الذكر والانثى ، لا أن هناك ذكورة وانوثة وهما متساويان حسبما تراه الثقافة المادية الغربية أو الشرقية ، بل بمعنى أدق منه ، وهو أن مدار التهذيب ـ وهو الانسانية ـ خارج عن طور الذكورة والأنوثة ومنّزه عن لوثهما وعال عن كل واحد منهما ـ كما بينه بعض[1] اساطين الحكمة الالهية ـ حيث أفاد «ان الذكورة والانوثة خارجتان عن الانسانية التي هي صورة فعلية خاصة ، لانهما من الامور المصنفة ، لا من الفصول القريبة أو البعيدة ، ولانهما مرتبطان بما هو مادة الانسانية وقوتها ، لا بما هو صورتها وفعليتها ، فلذا تراهما موجودين في الانواع السابقة على الانسانية كالحيوان بل والنبات» اقول: ولعله لذا لا يوجد شيء منهما في ما يفوق الانسان؛ وبالجملة ان الحياة الطيبة التي وعد بها الله ﴿لمن آمن وعمل صالحاً﴾[2] إنما هي تكون للانسان بما هو إنسان ، سواء خلق جسمه المادي هكذا أو ذاك؛ فمآل هذا التحليل ، هو أنه لا يحوم حوم الإنسانية ـ التي هي مهد التربية والتهذيب ـ الذكورة والانوثة اصلاً ، لا أن هناك ذكورة وانوثة وهما متساويان ، تدبر تجد الفرق !

---

(١) هو ابن سينا في الفصل الرابع من المقالة الخامسة من الالهيات الشفاء .
(٢) سورة القصص ، الآية (٨٠) .

وأما ثالثاً: فلأنه لا ميز بينهما عند تعمد القتل في شيء من الأُمور المارّة ، لا من حيث كونه ـ أي تعمد القتل ـ خطيراً هائلاً بموقفه الإجتماعي ، ولا من حيث النهي التحريمي عنه ، ولا من حيث لزوم كفارة الجمع والتوبة ، ولا من حيث لزوم التغليظ إذا كان ذلك في الحرم أو في الشهر الحرام ، ولا من حيث العقاب الأُخروي والعذاب العظيم والغضب واللعن الالهي ، ولا من حيث لزوم القصاص ، ولا من حيث كون القصاص بيد ولي من قتل مظلوماً ، ولا من حيثيات هامة أخرى . نعم: قد يتوهم الميز بينهما في مورد نشير إليه وإلى حلّه ، وهو انه لو قتلت الانثى ذكراً لقتلت به قصاصاً بلا شيء ، كما لو قتلت انثى اخرى أو قتل الذكر ذكراً ، حيث ان القاتل في هذه الموارد يقتل قصاصاً بلا شيء زائد؛ وأما لو قتل الذكر انثى لقتل بها قصاصاً بعد اخذ نصف ديته ، وهذا يوهم بان قيمة المرأة نصف قيمة الرجل بل المرأة هي نصف الرجل؛ فمن هنا يغالط فيلحد احياناً ويتزلزل في الاعتقاد الاسلامي .

والذي يسهل الخطب ، هو أن الدية ليست معياراً للكرامة الانسانية ، ولا ان الكرامة الانسانية الفائقة على كثير من المخلوقات توزن وتقوم بها ، إذ الانسان قد بلغ منزلة لو اشترك أهل السماء والأرض في قتله لاكبّهم الله في النار ، وكان قتله بمنزلة قتل جميع الناس ، وان جزاء قتله هو العذاب العظيم ، بلا ميز في شيء من ذلك بين الذكر والانثى؛ واين هذا من الدية التي قد قررت في الشرع لقتل الكلب أيضاً ؟ حيث أن قاتله يلزم بالدية المقدرة له ؛ فالدية لا مساس لها بالكرامة الإلهية اصلاً ، ولذا لا تفاوت فيها ، بين قتل أتقى الناس الذي هو اكرمهم عند الله ، وبين قتل واحد من اوساط الناس الذي لا فضل له . فتحصل: أن الكرامة لا توزن ولا تعادل

بالدية وان الدية ليست معياراً للقيمة الإلهية ، بل «قيمة كل امرء ما يحسن» وكرامته بتقواه ، فلو كان بين الرجل والمرأة تفاوت في الدية فلعله لأن الرجل غالباً اقوى من المرأة في التوليد الاقتصادي وتأمين المؤون أو لغير ذلك مما يعلمه الله تعالى ، لا أن المرأة نصف الرجل في القيمة ، لوضوح فساده طرداً وعكساً .

الفصل العاشر
في العفو عن القصاص

ان القتل العمدي لكونه ظلماً واعتداءً على الغير يكون كغيره من السيئات والتعديات ، من حيث امكان الانتقام منه ، ومن حيث جواز العفو عنه؛ والدليل على ذلك قسمان: احدهما ما يدل عليه بالعموم ، وثانيهما ما يدل عليه بالخصوص .

أما القسم الأول: فهو عدة آيات تدل على أن المظلوم ومن وقع عليه الاعتداء له الانتصاروالانتقام بمثل ما اعتدى عليه ، كما له العفو والصفح عمن تعدى عليه ، كقوله تعالى: **﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفىٰ واصلح فاجره على الله أنه لا يحب الظالمين﴾**[1] . وقوله تعالى: **﴿وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين﴾**[2] .

وقوله تعالى: **﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين﴾**[3] . إلى غير ذلك من الآيات التي تدل على جواز الإنتقام والإنتصار للمظلوم ، ولكن بقدر ما تعدى عليه ، لا

---

(١) سورة الشورى ، الآية (٤٠) .
(٢) سورة النحل ، الآية (١٢٦) .
(٣) سورة البقرة ، الآية(١٩٤) .

ما يزيد عليه ، فانه أيضاً ظلم . كما يدل على جواز العفو والصفح الجميل إليه .

وحيث أن القرآن نور وهدى يحتوي على مراحل من التعليم والتربية لا تكون على حد سواء ، بل بعضها أرفع من بعض وبعضها أحسن من بعض ، وإن كان الكل رفيعاً حسناً؛ ويرشدك إلى ذلك قوله تعالى: **﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾**[1] . حيث أن الإحسان هو فوق العدل؛ فمن اعتدى على الظالم بمثل ما اعتدى عليه فهو عادل ، واما من عفى وتجاوز عن الإعتداء عليه فهو محسن؛ ولعله يشيء إلى قوله تعالى: **﴿واتّبعوا احسن ما انزل إليكم﴾**[2] .

حيث أن العفو كالانتقام مما انزله الله ، ولكن العفو احسن منه وقد امروا ـ بالأمر الندبي ـ باتباع ما هو احسن ، كما امروا بدرءُ السيئة بالحسنة لا بسيئة اخرى مثلها ، ومدح الذين يدرؤون بالحسنة السيئة ، حيث قال تعالى: **﴿ويدرؤون بالحسنة السيئة أُولئك لهم عقبى الدار﴾** . واثنى على الذين يدفعون السيئة بالتي هي احسن بان ذلك مقام لا يناله إلا الصابرون ومنزلة لا يبلغها إلا ذو حظ عظيم ، حيث قال تعالى: **﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم * وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم﴾**[3] .

فمن ذلك يظهر: أن الأمر بالانتقام والاعتداء بمثل ما وقع من الظالم ليس تعيينياً بحيث لا يجوز للمظلوم الصفح عنه ، وان الانتقام في حق الناس

---

(١) سورة النحل ، الآية (٩٠) .

(٢) سورة الزمر ، الآية (٥٥) .

(٣) سورة فصلت ، الآيتين (٣٤ ـ ٣٥) .

ليس كبعض الحدود في حق الله بحيث لا يجوز الأخذ بالرأفة والترحم على من يجري عليه الحد ، بل للرأفة والعفو هنا مجال واسع حسبما تقدم .

وأما القسم الثاني: فهو أيضاً بعض آيات اخر ناظرة إلى خصوص العفو عن القصاص ، كما أنها دالة على جواز الإقتصاص ، منها: قوله تعالى: **﴿إن النفس بالنفس والعين بالعين والانف بالأنف والاذن بالاذن والّسن بالّسن والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفّارة له﴾**[1] . فتدل على انّ وليّ المقتول أو من اعتدي عليه ، له سلطان مجعول من الله ، فله اعماله بالقصاص ، كما له الاغماض عنه بالتصدق والصفح؛ وإن هذا العفو بمنزلة الكفارة التي تكفر ذنبه ، حيث أنه حسنة تذهب بالذنب ، نظير غيره من الحسنات التي يذهبن السيئات . ومنها: قوله تعالى: **﴿كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والانثى بالانثى فمن عفى له من اخيه شيء فاتباع بالمعروف واداء إليه باحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب اليم﴾**[2] . فتدل على عدم تعين القصاص ، وان قوله تعالى: **﴿كتب عليكم القصاص﴾** . ليس على وزن قوله تعالى: **﴿كتب عليكم الصيام﴾** . حيث لا ترخيص فيه ، بل المراد من الكتابة هنا هو التخييري منها لا التعييني ، فلذا يجوز لمن جعل له السلطنة العفو؛ وهو قد يكون مطلقاً وعفواً تاماً وذلك إذا لم يكن مشروطاً بالدية ، وقد يكون مشروطاً بها حين ما رضي القاتل بها لما تقدم من أنّ الحكم الأولى في القتل العمدي هو القصاص ، واما الّدية فمتوقفة على رضى الطرفين ؛ كما أنه لا تقدير لها هنا ، إذ يمكن توافقها على مقدار ازيد من الدية المقدرة في الخطاء

---

(١) سورة المائدة ، الآية (٤٥) .

(٢) سورة البقرة ، الآية(١٧٨) .

أو أقل أو مساوٍ لها . وعلى أيّ تقدير : فقد أوصى الله كل واحد منهما بموعظة حسنة ، حيث قال: ﴿فاتباع بالمعروف وأداء إليه باحسان﴾ فعلى العافي أن يتبع المعروف ولا يتعداه ، وعلى الجاني أن يؤدّي ما تصالحا عليه باحسان ولا يماطل ولا يبخس ولا يشاكس .

ثم أفاد تعالى: بان ذلك التخيير وعدم تعيين القصاص تخفيف منه تعالى ورحمة الهّية شملت الأمة المرحومة ، فلا يجوز الاعتداء بعد العفو ، ولا يصح التعدي بعد الصفح لأنّه يستتبع عذاباً اليماً .

أما المقام الثّاني: ففي قصاص العضو قطعاً أو جرحاً .

إن الجناية العمدية على الغير ، قد تكون بقتل النفس ، وقد تكون بقطع العضو أو جرحه؛ وقد تقدم بسط المقال فيما يرجع إلى قتل النفس .

وأما الكلام فيما يرجع إلى قطع العضو أو جرحه ، فيجري فيه اكثر ما مرّ في قتل النفس ، إلا أن هنا فرقاً لا بد من بيانه ، وهو أن الحكم الأولي لقتل النفس هو القصاص لا غير ، وأما العفو أو التصالح على ما يعادل الدية أو يختلف معها فامر آخر زمامه بيد ولي المقتول وحده أو مع رضى القاتل . وأما حكم قطع العضو أو جرحه فهو القصاص أيضاً إن لم يستلزم السراية إلى باقي الأعضاء أو النفس ، وإلا تبدّل بالدية ـ حسبما قرر في الفقه ـ إذ لا مجال للقصاص الضار والموجب للظلم على الجاني؛ ولعل هذا الفرق هو الموجب لذهاب عدة من الاصحاب إلى لزوم إذن ولّي المسلمين هنا في الاقتصاص .

ثم الذي يدل على قصاص الطرف قطعاً أو جرحاً بالخصوص عدا الأدلة العامة الدالة على جواز الإعتداء بمثل ما اعتدى عليه وصحة العقوبة

بمثل ما عوقب به ، هو قوله تعالى: ﴿**والعين بالعين والانف بالأنف والاذن بالاذن والسّنّ بالسّنّ والجروح قصاص**﴾[1] . وقد تقدم عدم اختصاص هذا الحكم بالأمة السالفة بعد انعقاد الاجماع على ثبوته في هذه الأمة ، مع لزوم العمل بحكم سابق لم يثبت نسخه باحد الثقلين اللذين ورثهما رسول الله في امّته كيلا تضل .

ثم أنه يؤخذ باطلاق هذه الآية الناطقة بان العضو يقتص بمماثله ، بلا تفاوت فيه بين الذكر والأُنثى حيث أنه لم يرد في قصاص العضو نظير ما ورد في قصاص النفس من قوله تعالى: ﴿**والانثى بالانثى**﴾ . الموجب لتقييد اطلاق قوله تعالى: ﴿**إن النفس بالنفس**﴾ . نعم: إذا انتهى الأمر إلى الدية ، فهناك فرق وميز في الجملة بين الذكر والانثى تفصيله في الفقه ، وجوابه هو ما مرّ في (الفصل التاسع من المقام الأول) كما انه يؤخذ بما في ذيل الآية من اطلاق جواز العفو عن القصاص ، وانه تصدّق يكفر به ذنب العاصي ، بلا ميز بين قتل النفس أو قطع العضو أو جرحه .

تمّ والحمد لله رب العالمين

عبد الله الجوادي الطبري الآملي

---

(١) سورة المائدة ، الآية (٤٥) .

وجيزة حول أسرار الحج

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي جعل العرش مطافاً للملائكة الحافين والبيت المعمور في السماء مثالاً له للزائرين وجعل الكعبة في الارض مثالاً لهما للطائفين والعاكفين وصلى الله على جميع الأنبياء والمرسلين والأئمة الهداة المهديين الذين هم خير الحاج والمعتمرين .

وبعد ، فيقول العبد المفتاق إلى ربه الجواد عبد الله الجوادي الطبري الآملي : هذه وجيزة حول اسرار الحج وما له من المأثر القيمة في ضوء مقدمة وصلات وخاتمة :

أما المقدمة ففي بيان أمرين

١ ـ في بيان أن الكل عبادة ومنها الحج ، بطناً وسراً .

٢ ـ ان العبادة بظهرها وبطنها غاية الخلق المحتاج لا الخالق الغني .

الأمر الأول: وهو أن لكل عبادة بطناً وسراً فهو أن العبادة مما بينه الله

تعالى في كتابه الذي هو تبيان كل شيء وله ـ أي لكتاب الله تعالى ـ ظهر وبطن حيث قال مولانا أبو جعفر عليه السلام في حديث: أن لكتاب الله ظاهراً وباطناً الخ[1] فلجميع ما في القرآن ومنه الحج ظهر يعرفه الناس وبطن، يرى الشاهد منهم ما لا يرونه وينال العارف منهم ما لا يناله غيره . وذلك كما ان للسماء ظهراً وبطناً حيث سأل ابن نباتة أمير المؤمنين عليه السلام كم بين السماء والارض قال عليه السلام مد البصر ودعوة المظلوم[2] فدل على ان البصر لا يرى إلا ظاهر السماء وأما باطنها فلا يراه إلا البصيرة لأن المظلوم المستجير بالله لا يدعو إلا الله الذي **﴿واوحى في كل سماء امرها﴾**[3] ووعد الناس بان رزقهم في السماء[4] واوعد الكفار بانه **﴿لا تفتح لهم أبواب السماء﴾**[5] أي بواطنها واسرارها . فتحصل أن لكل عبادة ومنها الحج بطناً وسراً .

ثم أن الله تعالى أمر الناس أن يأخذوا ما آتاهم الرسول حيث قال **﴿وما آتاكم الرسول فخذوه﴾**[6] .

ثم قال **﴿ . . . خذوا ما آتيناكم بقوة﴾**[7] وعن اسحاق بن عمار ويونس قالا سألنا أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله تعالى **﴿خذوا ما آتيناكم بقوة﴾** . أقوة في الابدان أو قوة في القلب؟ قال عليه السلام فيهما جميعاً[8] .

---

(١) المحاسن ص٢٧٠ .
(٢) الميزان ج١٧ ، ص٣٩٧ .
(٣) سورة فصلت ، الآية (١٢) .
(٤) سورة الذاريات ، الآية (٢٢) .
(٥) سورة الأعراف ، الآية (٤٠)
(٦) سورة الحشر ، الآية (٧) .
(٧) سورة البقرة ، الآية (٦٣) .
(٨) المحاسن ص٢٦١ .

وأما القلب فهو القسطاس المستقيم والميزان الإلهي الذي اودعه عبده ليعلم به ما له عند الله تعالى حيث روى مولانا الصادق عن آبائه عليهم السلام أنه قال رسول الله صلى الله عليه وآله : من احب أن يعلم ما له عند الله فليعلم ما لله عنده[1] وهذا من غرر كلمات من أوتي جوامع الكلم وقال مولانا الكاظم عليه السلام في جواب من سأله أن الرجل من عرض الناس يلقاني فيحلف بالله انه يحبني أفاحلف بالله انه لصادق فقال عليه السلام : امتحن قلبك فان كنت تحبه فاحلف والاّ فلا[2] .

فللقلب أن يشاهد الغيب وينال ما تدركه الابصار فطوبى لمن كان له قلب أو القى السمع وهو شهيد وهو ممن يأخذ كل عبادة ومنها الحج بقوة القلب كما يأخذها بقوة البدن فله أن يشاهد باطن العبادة ومنها الحج وينال سرها بسريرته ما لا ينال بالاوهام فضلاً عن الابصار .

والحاصل أن لجميع ما جاء به الوحي الالهي ظاهراً يأخذه الانسان بقالبه وباطناً يأخذه بقلبه وهذا اصل يشهد له الثقلان اللذان تركهما رسول الله صلى الله عليه وآله في امته وشاهده الأولياء وعانقه الاتقياء وباشره الاصفياء وعاشقه الشهداء فطوبى لمن عشق لعبادة وعانقها وباشرها ، فللحج ظاهر يأتيه الناس بابدانهم وباطن يناله الخواص منهم بقلوبهم ويرون ما يتمثل به عند ظهور الملكوت حسب ما رواه أبو بصير عن احدهما عليه السلام أنه قال: إذا مات العبد المؤمن دخل معه في قبره ستة صور فيهن صورة هي احسنهن وجهاً وابهاهن هيئة واطيبهن ريحاً وانظفهن صورة ـ قال ـ فتقف صورة عن يمينه واخرى عن يساره واخرى بين يديه واخرى خلفه واخرى عند رجليه

(١) المحاسن ، ص٢٠٤ و٢٥٢ .
(٢) المحاسن ، ص٢٦٧ .

وتقف التي هي احسنهن فوق رأسه فإن اتى عن يمينه منعته التي عن يمينه ثم كذلك إلى أن يؤتى من الجهات الست قالَ فتقول احسنهن صورة من انتم جزاكم الله عنّي خيراً فتقول التي عن يمين العبد أنا الصلاة وتقول التي عن يساره أنا الزكاة وتقول التي بين يديه أنا الصيام وتقول التي خلفه أنا الحج والعمرة وتقول التي عند رجليه أنا بر من وصلت من اخوانك ثم يقلن من أنت ـ فانت احسننا وجهاً وأطيبنا ريحاً وابهانا هيئة فتقول أنا الولاية لآل محمد صلوات الله عليه وعليهم[1] .

حيث أنه يدل على أن للحج صورة باطنية يتمثل بها إذا برق البصر وخسف القمر ، وإذا التفت الساق بالساق وإلى الله يومئذٍ المساق ، وإذا ارتحل من الملك إلى الملكوت وتبدلت الدنيا بالآخرة ، وكما أن هناك علماً يبحث عن احكام الحج من الوجوب والحرمة أو الصحة والبطلان كذلك هي هنا علم يطوف حول حكم الحج ويسعى بين اسراره ورموزه ويغوص في لطائفه واشاراته ويطير في سماء معارفه .

وحيث أن الله تعالى قد منَّ عليَّ بتأليف كتاب الحج تقريراً لدراسة سيدنا الاستاذ آية الله العظمى السيد محمد المحقق الداماد (قده) ورزقني زيارة بيته الحرام وشاهدت هناك آيات بينات واوتيت نزراً من أسرار الحج وأُلهمت نبذاً من حكمه وكان الانسب تكميل مناسك الحج ببيان معارفه وتتميم مباحث الفقه الاصغر بكرائم الفقه الأكبر الذي به يكمل الدين وتتم النعمة ، فبادرت بتحرير هذه الوجيزة لتكون مدخلاً لتلك المباحث الهامة وتبصرة لنفسي وتذكرة لاخواني المؤمنين وزاداً لسفرة الحج وراحلة لآمين البيت الحرام ومحملاً لكل من يأتيه رجالاً ﴿**وعلى كل ضامر يأتين من كل فج**

(١) المحاسن ، ص٢٨٨ .

عميق﴾ ونفقة لكل من يشد الرحال إليه .

وكفى للحج بما له من الاحكام والحكم فضلاً أن أدعية شهر رمضان مشحونة بطلبه من الله بحيث لو قيل بان صيام ذلك الشهر ودعوات لياليه ونجاوي أسحاره واوراد أيامه مقدمة معدة له ولادراك ما ورد من أن تسبيحة بمكة يعدل خراج العراقين ينفق في سبيل الله[1] والساجد بمكة كالمتشحط بدمه في سبيل الله[2] ومن ختم القرآن بمكة لم يمت حتى يرى رسول الله ﷺ ويرى منزله من الجنة[3] وان النظر إلى الكعبة حباً لها يهدم الخطايا هدماً[4] لما كان جزافاً من القول .

وحيث أن الله ولي كل نعمة لما قال تعالى: ﴿وما بكم من نعمة فمن الله﴾[5] وهو الذي اسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ، فله الحمد تعالى في تأليف تلك الاحكام وتصنيف هذه الحكم ، وله الشكر في تعريف تلك المناسك وتروية هذه المشارب وله الثناء في تنميق تلك المباحث وتحقيق هذه المعارف وله المجد في عبقرية ذاك التعليم الموغون ورفرفة هذه التزكية المنضودة المشار إليهما في كلام محمد بن علي الباقر عليه السلام في حديث: ان الفقيه الزاهد في الدنيا الراغب في الاخرة المتمسك بسنة النبي ﷺ[6] .

حيث أشار عليه السلام إلى الجمع بين الفقهين لأن الجامع بينهما هو

---

(١) المحاسن ، ص ٦٨ ـ ٦٩ .
(٢) المحاسن ، ص٦٨ ـ ٦٩ .
(٣) المحاسن ، ص٦٨ ـ ٦٩ .
(٤) المحاسن ، ص٦٨ ـ ٦٩ .
(٥) المحاسن ، ص٦٨ ـ ٦٩ .
(٦) الكافي باب الأخذ بالسنة والمحاسن ، ص٢٢٣ .

المؤمن الذي قال عليه السلام فيه انه لا ينجسه شيء[1] وهو المؤمن الذي قال في حقه مولانا الصادق عليه السلام لو كشف الغطاء عن الناس فنظروا إلى وصل ما بين الله وبين المؤمن خضعت للمؤمن رقابهم وتسهلت له امورهم ولانت طاعتهم ولو نظروا إلى مردود الأعمال من السماء لقالوا ما يقبل الله من احد عملا[2] .

وهو المؤمن الذي قال في شأنه مولانا الرضا عليه السلام ان الله تعالى خلق المؤمن من نوره ـ إلى ان قال ـ فانه ينظر بنور الله الذي خلق منه[3] وهو الموقن الذي قال في حقه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم انه عبد نور الله قلبه للايمان[4] كما قال صلى الله عليه وآله وسلم كفى باليقين غنى وبالعبادة شغلاً[5] وكذا قال علي عليه السلام في شأن اليقين يا أيها الناس سلوا الله اليقين . . . وخير ما دام في القلب اليقين وكان علي بن الحسين عليه السلام يطيل القعود بعد المغرب يسأل الله اليقين[6] ولقد رغب علي عليه السلام الناس إليه حيث قال . . . كونوا فيما اخبركم الله كمن عاين[7] .

وهذا الجامع بين الفقهين هو العبد المحبوب الذي قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في شأنه أنه قال: ما تحبب إليّ عبدي بشيء احب إلي مما افترضته عليه وانه ليتحبب إليَّ بالنافلة حتى أحبه فإذا احببته كنت سمعه الذي

---

(١) المحاسن ، ١٣٣ .
(٢) المحاسن ، ١٣٢ .
(٣) المحاسن ، ١٣١ .
(٤) المحاسن ، ص٢٤٧ .
(٥) المحاسن ص٢٤٧ .
(٦) المحاسن ص٢٤٨ .
(٧) المحاسن ص٢٤٩ .

يسمع به وبصره الذي يبصر به ولسانه الذي ينطق به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها إذا دعاني اجبته وإذا سألني اعطيته ـ الحديث[1] .

وهذا هو قرب النوافل تجاه قرب الفرائض الذي ورد في شأن الأنبياء عليهم السلام بهم ينظر الله إلى عباده[2] .

وإلى قرب النوافل أشار من لولا زفيره اغرقته دموعه ولولا دموعه احرقته زفرته[3] حيث قال :

وجاء حديث باتحادي ثابت ... روايته في النقل غير ضعيفة
يشير بحب الحق بعد تقرب ... إليه بنفل أو أداء فريضة
وموضع تنبيه الاشارة ظاهر ... بكنت له سمعاً كنور الظهيرة
تسببت في التوحيد حتى وجدته ... وواسطة الأسباب احدى ادلة
ووحدت في الاسباب حتى فقدتها ... ورابطة التوحيد اجدى وسيلة
وجردت نفسي عنهما فتوحدت ... ولم تك يوماً قط غير وحيدة
وغصت بحار الجمع بل خضتها على ... انفرادي فاستخرجت كل يتيمة
لا سمع افعالي بسمع بصيرة ... واشهد اقوالي بعين سميعة[4]

ثم ان في محكي مصباح الشريعة ومفتاح الحقيقة انه قال مولانا الصادق عليه السلام : إذا أردت الحج فجرد قلبك لله من قبل عزمك عن كل شاغل وحجاب حاجب وفوض امورك كلها إلى خالقك وتوكل عليه في جميع ما يظهر من حركاتك وسكناتك وسلم لقضائه وحكمه وقدره وودع الدنيا

---

(١) المحاسن ص٢٩١ وصحيح البخاري كتاب الرقاق باب ٣٨ .

(٢) المحاسن ص١٨٥ اسرار العبادات للقاضي سعيد القمي رحمه الله .

(٣) المحاسن ص٩٥ من مشارق الدراري شرح تائية ابن فارض .

(٤) من تائية ابن فارض .

والراحة والخلق واخرج من حقوق يلزمك من جهة المخلوقين ولا تعتمد على زادك وراحلتك واصحابك وقوتك وشبابك ومالك مخافة ان يصير عدواً ووبالاً ، فان من ادعى رضا الله واعتمد على شيء سواه صيره عليه عدواً ووبالاً ليعلم أنه ليس له قوة ولا حيلة لك ولا لأحد إلا بعصمة الله وتوفيقه واستعد استعداد من لا يرجو الرجوع واحسن الصحبة وراع أوقات فرائض الله وسنن نبيه ﷺ وما يجب عليك من الأدب والاحتمال والصبر والشكر والشفقة والسخاء وايثار الزاد على دوام الأوقات .

ثم اغسل بماء التوبة الخالصة ذنوبك والبس كسوة الصدق والصفاء والخشوع واحرم عن كل شيء يمنعك عن ذكر الله ويحجبك عن طاعته ولب بمعنى اجابة صافية خالصة زاكية لله عز وجل في دعوتك له مستمسكاً بعروته الوثقى وطف بقلبك مع الملائكة حول العرش كطوافك مع المسلمين بنفسك حول البيت وهرول هرباً من هواك وتبرياً من جميع حولك وقوتك .

واخرج من غفلتك وزلاتك بخروجك إلى منى ولا تتمنى ما لا يحل لك ولا تستحقه واعترف بالخطايا بعرفات وجدد عهدك بوحدانيته وتقرب إلى الله واتقه بمزدلفة واصعد بروحك إلى الملأ الأعلى بصعودك إلى الجبل واذبح حنجر الهوى والطمع عنك عند الذبيحة وارم الشهوات والخساسة والدنائة والذميمة عند رمي الجمار واحلق العيوب الظاهرة والباطنة بحلق شعرك وادخل في أمان الله وكنفه وستره وكلائته من متابعة مرادك بدخولك الحرم وزر البيت متحققاً لتعظيم صاحبه ومعرفة بجلاله وسلطانه واستلم الحجر رضا بقسمته وخضوعاً لعزته وودع ما سواه بطواف الوداع وصف روحك للقاء الله يوم تلقاه بوقوفك على الصفا وكن ذا مروءة من الله نقياً عند المروة .

واعلـم بـان الله لـم يفتـرض الحـج ولـم يخصـه مـن جميـع الطـاعـات بالاضافة إلى نفسه بقوله عز وجل: ﴿ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا﴾[1] . ولا شرع لنبيه سنة في خلال المناسك على ترتيب ما شرعه إلا للاستعداد والاشارة الموت والقبر والبعث والقيامة من أولها إلى آخرها لأولي الألباب والنهي[2] .

فهذا الكتاب القيم بما فيه من الاحكام والحكم عينان نضاختان يشرب منهما مـن لـه جنتـان لأنـه ارتقـى مـن حضيـض الحيـاة الـدنيـا إلـى اوج الحيـاة الأخرى ومنها إلى ما ورائها لأن أهل الله لا يشتاق إلى الجنة وان تشتاق إليه كما انه لا يخاف من النار وان تخاف منه لأنه قسيم الجنة والنار ويسجد له باذنه تعالى رضوان الجنة وخازن النار ولذا لا يعبده تعالى شوقاً إلى النعمة ولا خوفاً من النقمة بل يعبده حباً له كما سيوافيك فارتقب البحث عن جنة اللقاء الموعودة لمن حج البيت وزار ربه هناك وام الكعبة وشاهد ربها هنالك طوبى له وحسن مآب .

* * *

الأمـر الثـانـي: وهـو العبـادة بظهـرهـا وبطنهـا غـايـة الخلـق المحتـاج لا الخالق الغني المحض كما أن جميع ما في حوزة الوجود الامكاني من الغيب والشهادة بعضها غاية للبعض والله تعالى غاية للكل بالذات ولا غاية له تعالى وراء ذاتـه المتعـاليـة وهـو تعـالـى الاخـر كمـا هـو الأول وهـو البـاطـن كمـا هـو الظاهر .

---

(١) سورة آل عمران ، الآية (٩٧) .

(٢) أسرار العبادات ص٢٣٣ .

فبيانه هو أن كل فاعل يفعل فعلاً لغرض يناله وغاية يطلبها فهو ناقص وكل ما ليس بناقص فهو لا يفعل فعلاً لغرض وغاية[1] .

وحيث أن الخالق تعالى غني عن العالمين فليس بناقص فلا يفعل فعلاً لغرض ينحوه وغاية يطلبها والالزام أن يكون بذاته ناقصاً ومحتاجاً ويصير بغيره كاملاً ومستغنياً وحاشا الغني المحض عن الفاقة وسبحان الكامل الصرف عن النقص . ولاميز في الغرض المنفي والغاية المسلوبة عنه تعالى بين أن يكون هو جلب النفع إلى نفسه أو ايصال الخير إلى الغير إذ لو كان ايصال ذلك الخير إلى الغير غرضاً له وغاية لذاته يلزم أن يكون ذاته تعالى بدون ذلك الإيصال ناقصاً ومعه يصير كاملاً وهو محال بل هو تعالى جواد محض يهب ما ينبغي كما ينبغي لا لعوض ولا غرض وإن كان فعله تعالى متن الحكمة وينبوع الخير ومعدن البركة .

فمن هنا يتبين الجمع بين قوله تعالى ﴿**وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون**﴾ وقوله تعالى : ﴿**ان تكفروا انتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد**﴾[2] .

لأن معنى الكريمة الأولى هو بيان غاية الخلق أي الهدف السامي للمخلوق والكمال النهائي له هو أن يصير عبداً له تعالى كما قال مولى الموحدين علي بن أبي طالب عليه السلام «**إلهي كفى بي فخراً أن اكون لك عبداً**» ومعنى الكريمة الثانية هو بيان أن الله تعالى لم يكن محتاجاً إلى أن يصير معبوداً بحيث لو لم يعبد لبقي على نقصه وحاجته فإذا صار معبوداً ارتفع

---

(١) الفصل الخامس من المقالة السادسة من إلهيات الشفاء .
(٢) سورة ابراهيم ، الآية (٨) .

نقصه وسد حاجته سبحان الغني المحض عن الفقر إلى شيء اصلاً بل هو الغني الجواد عُبِدَ أم لم يعبَد .

وهكذا تبين مغزى القول في بيانه تعالى: كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن اعرف فخلقت الخلق لكي اعرف . لأن معرفة الله تعالى كعبادته تعالى غاية الخلق لا الخالق إذا الهدف إنما هو للمحتاج لا للغني والغرض إنما يتصور للناقص لا للكامل بالذات لأن ذاته هو الهدف لجميع ما سواه .

ثم أن هناك بياناً حكمياً في ضرورة الغاية لكل فعل وفي تحتم الغرض لكل فيض وفي كون كل فاعل إنما هو يفعل لغاية ينحوها حتى يستكمل بها ويصير كاملاً وأما إذا كان الكمال المحض مبدأ لفيضاً وسبباً لأمر كيف يفرض له غرض زائد على ذاته بل هو الغرض الذاتي لكل فعل وفيض كما هو المبدء الذاتي لكل اثر وخير حسبما افاده القرآن الحكيم بقوله تعالى **﴿هو الأول والأخر﴾** الآية فتبين أنه تعالى هو الغاية بالذات فلا غاية له كما أنه تعالى هو الفاعل بالذات لما عداه فلا فاعل له وهو تعالى خالق كل شيء وإليه تصير الأمور **﴿كما بدأكم تعودون﴾** .

فمن ذلك يظهر سر قوله تعالى: **﴿ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإن الله غني عن العالمين﴾**[1] .

حيث ان الحج عبادة مفروضة من الله على الناس وهم محتاجون إلى أن يحجوا ويعتمروا فإن كفروا ومردوا فإن الله غني عن العالمين فضلاً عنهم وعن عبادتهم . فالحج كغيره من العبادات غاية الخلق لا الخالق والحاج يتزود بحجه خير المزاد والله غني محض لأنه نفس الغناء ومحض الكمال فلا

---

(١) سورة آل عمران ، الآية (٩٧) .

يتصور له غاية زائدة على ذاته إذ لا غاية للغاية الذاتية .

* * *

واما الصلات: ففي بيان فضائل الكعبة وسنن الحج واسرارها وتأثيرها في تحرير الرقاب من الاستعباد وعتق النفوس من الاستكبار ووضع الآصار والاغلال من الاعناق والايدي والارجل واخراج الناس من ذل الاديان إلى عز الاسلام .

الصلة الأولى في أن الكعبة مثال للعرش

ان الاصول القرآنية ناهضة أولاً بأن لجميع الأشياء خزائن عند الله تبقى ولا تفنى وان نفدت وبادت تلك الأشياء حيث قال تعالى: **﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾**[1] . وقال تعالى: **﴿ما عندكم ينفد وما عند الله باق﴾**[2] . فلا مجال لنفاد الخزائن التي عند الله لأن كل ما عنده فهو مصون عن الزوال ومحفوظ عن الفناء .

وثانياً بأن جميع تلك الأشياء الخارجية نازلة من تلك الخزائن الغيبية لا بنحو التجافي المستلزم للنفاد والزوال بل بنحو التجلي كما قال علي عليه السلام الحمد لله المتجلي لخلقه بخلقه . ويدل على ذلك التنزل قوله تعالى: **﴿وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾** ، حيث ينطق بان وجود تلك الأشياء في تلك المخازن بنحو اللف الجمع وعند التنزل يصير بنحو النشر والقدر والهندسة .

فمن هنا يظهر معنى قوله تعالى: **﴿ . . . قد أنزلنا عليكم لباساً يواري**

---

(١) سورة الحجر ، الآية (٢١) .

(٢) سورة النحل ، الآية (٩٦) .

سوآتكم وريشاً﴾[1] .

وقوله تعالى: ﴿وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج﴾[2] .

وقال تعالى: ﴿وفي السماء رزقكم وما توعدون﴾[3] .

وقوله تعالى: ﴿وانزلنا الحديد فيه بأس شديد﴾[4] .

حيث ان الإنزال في هذه الموارد ونظائره بمعنى التنزل والتجسم لا التجافي نظير انزال المطر من السماء إلى الأرض لأن كل قطرة منه إذا نزلت إلى الأرض فقد انتقلت وهجرت مكانها السمائي فكل شيء موجود في عالم المادة فله اصل محفوظ عند الله يتنزل منه ويكون آية له ومرآة اياه وكذا يكون مرقاة إليه ﴿ألا إلى الله تصير الامور﴾[5] .

فمن ذلك ما ورد من نزول قواعد الكعبة من الجنة وكذا نزول الحجر الاسود ونزول حجر المقام[6] حيث ان ذلك كله يدل على أن لأجزاء البيت واركانه أصلاً طيباً عند الله تكون تلك الأمور متنزلة من ذلك الأصل الطيب[7] ويشهد له ما ورد في سر تربيع الكعبة وبنائها على أربعة أركان من أن ذلك كان بحذاء البيت المعمور وكذا العرش حيث أن له اركاناً واضلاعاً اربعة فلما سئل الإمام الصادق عليه السلام المعصوم عن سر تربيع العرش اجاب عليه السلام بان الكلمات التي بني عليها الاسلام أربع وهي التسبيحات

---

(١) سورة الأعراف، الآية (٢٦) .
(٢) سورة الزمر، الآية (٦) .
(٣) سورة الذاريات، الآية (٢٢) .
(٤) سورة الحديد، الآية (٢٥) .
(٥) سورة الشورى، الآية (٥٣) .
(٦) الميزان ج١، ص٢٩٤ .
(٧) الوسائل ج٩، ص٣٨٦ إلى ٣٨٨ .

الأربع سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر[1] .

حيث ان هذا السؤال والجواب يدل على أن الكعبة قد تنزلت من البيت المعمور المتنزل من العرش على المعنى المتقدم من التنزل المنزه عن التجافي وعلى أن سر التربيع في هذه الانظمة الثلاثة اعني الطبيعة والمثال والعقل هو تربيع الكلمات الدالة على التنزيه والتحميد والتهليل والتكبير .

فمن هنا يلوح معنى ما ورد من أن الكعبة من موضعها إلى عنان السماء قبلة (وافي : باب وجوب الاستقبال) لأن ظاهره وإن كان هو وجوب الاستقبال إلى هذا البعد العمودي تشريفاً ولكن سره يدل على الارتباط الوجودي بين عوالم الطبيعة والمثال والعقل والصراط الذي يمكن سلوكه هو التحقق في المعارف المستفادة من التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير (تدبر) .

الصلة الثانية : في أن الكعبة اسست على التوحيد المحض

إن هندسة الكعبة كانت بهداية الله الذي اعطى كل شيء خلقه ثم هدى وقال عز من قائل . . . ﴿وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئاً﴾[2] يعني إن تبوئة البيت وتعيين مكانه وهندسة تأسيسه إنما هو على التوحيد الصرف الذي لا يشوبه أي شرك أصلاً لا الشرك الجلي كالوثنية ولا الخفي كالرياء لأن النكرة التالية للنفي تفسير سراية النفي إلى كل ما يصدق عليه الشرك حيث قال تعالى : ﴿لا تشرك بي شيئاً﴾ .

وهذا التوحيد المحض الذي أسس عليه الكعبة لا يتحقق إلا في

(١) البحار ، ج٩٩ ، ص٥٧ .
(٢) سورة الحج ، الآية (٢٦) .

الأوحدي من المؤمنين إذ الاكثر منهم ليس مصوناً عن لوث الشرك الجلي كالتواضع للغني لغناه والتذلل لنطاغوت لطغيانه أو الشرك الخفي كترك الدنيا للدنيا والزهد فيها للجاه والمقام ولذا قال تعالى: **﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾**[1] أي اكثر المؤمنين مشركون بالمعنى المتقدم وهؤلاء الاكثرون لا يرثون الأرض بل يرثها العباد الصالحون الذين يمكنهم الله دينهم الذي ارتضى لهم ويؤمنون به ولا يشركون به شيئاً .

وهذا التوحيد المحض قد تجلى في كلمات رسول الله ﷺ الذي اوتي جوامع الكلم حيث قال ﷺ «لا إله إلا الله وحده وحده وحده» . ولعله ناظر إلى التوحيد في مراتبه الثلاث من التوحيد الذاتي والصفاتي والأفعالي فمعه لا مجال للشرك أصلاً إذ لا يخلو شيء من المراحل الوجودية عن التوحيد حتى يكون ذلك الخلاء بنفسه شركاً أو يملأه الشرك بناء على كونه أمراً وجودياً .

وحيث أن التوحيد شجرة طوبى ومن ثمارها التقوى يكون مسجد فبا المؤسس على التقوى من فروع ذلك الأصل ومن ثمار ذاك البذر فالكعبة المؤسسة على التوحيد أصل لجميع ما يبنى على التقوى كما يكون هدم الكعبة المؤسس على الشرك أصلاً لجميع ما يبنى على شفا جرف هار ينهار في دار جهنم . فتحصل أن هندسة الكعبة على التوحيد البحت الذي لا يجتمع مع أي شرك أصلاً وهي بهذه الهندسة الإلهية صارت موضوعة ومتعلقة لغير واحد من الأحكام ومنها الحج وهي بهذه الخصيصة تكون مثالاً للعرش الذي لا يحوم حوله إلا الملائكة الذين هم عباد الرحمن لا يعصون الله ما أمرهم وهم بامره يعملون ولا يسبقونه بالقول ويفعلون ما يؤمرون لا

---

(١) سورة يوسف ، الآية (١٠٦) .

يفترون من تسبيحه ولا يسأمون من تقديسه ولا يستحسرون من عبادته ولا يؤثرون التقصير على الجد في امره ولا يغفلون عن الوله إليه[1] .

الصلة الثالثة في أن قواعد الكعبة بنيت ورفعت على الخلوص الصرف

ان عمران الكعبة وبنائها ورفع قواعدها كان بيد إبراهيم عليه السلام خليل الله واسماعيل ذبيح الله عليه السلام قال تعالى: **﴿وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا﴾**[2] .

يعني أن بناء الكعبة ورفع قواعدها كان عبادة خالصة من ذينك النبيين بحيث لا يريدان من أحد جزاء ولا شكورا بل إنما يرفعان قواعدها لوجه الله ولم يكن ذلك منهما بدعاء لفظي فحسب بل كان كامناً في القلب وظاهراً في القالب مكنوناً في المهجة بارزاً في اللهجة لأن من جاء ربه بقلب سليم لا يمس كرامة قلبه طائف من غير الله ومن قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني من الصابرين لا يمس طهارة ضميره ما ينافي الخلوص فهذان النبيان عليهما السلام بتمام التوحيد والخلوص دعوا ربهما وقالا **﴿ربنا تقبل منا﴾** وحيث أن الله تعالى وصفهما بانهما من العباد المخلصين الذين لا يتطرق الشيطنة والوسوسة نحوهما فهما من المتقين الذين لا يتقبل الله بقبول حسن إلا منهم .

فتحصل أن الكعبة مرفوعه القواعد على الخصوص ومقبولة لله تعالى بالتقوى وحيث أن هندستها التوحيد وعمرانها الخلوص والتقوى تشرفت باضافتها إلى الله تعالى وصارت بيت الله الذي له ما في السماوات والأرض ورفيعة بإذنه تعالى ويذكر فيها اسمه تعالى آناء الليل واطراف النهار وصارت

---

(١) الصحيفة السجادية ، دعاء(٣) .

(٢) سورة البقرة ، الآية (١٢٧) .

شجرة طوبى وثمارها بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه من المساجد والمشاهد ونحوها .

الصلة الرابعة في أن الكعبة طاهرة لا يمسها إلا المطهرون

قد أمر النبيان إبراهيم وابنه اسماعيل عليهما السلام بتطهير الكعبة عن كل قذارة ولوث وتزكيتها عن كل رجس ورجز ، قال تعالى: **﴿وعهدنا إلى ابراهيم واسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود﴾**(١) ومعه لا مجال لقذارة الوثن ولا للوث الوثني ولا موقع لرجس الصنم ولا لرجز الصنمي إذ العابد والمعبود كلاهما في النار: **﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾**(٢) .

وهذا التطهير عهد إلهي لا ينال الظالم كما لا يناله الظالم بل انما يناله الخليل والذبيح والكليم والمسيح والحبيب وسائر الأنبياء والمرسلين عليهم افضل صلوات المصلين .

وهذا البيت الطاهر بما فيه الحجر الاسود يمين الله الذي كلتا يديه يمين(٣) فلا يمسها الايدي الدنسة وكما أن القرآن الكريم في كتاب مكنون **﴿لا يمسه إلا المطهرون﴾**(٤) أي لا يمس ظاهر القرآن وخطوطه المكتوبة إلا المطهرون من الحدث ولا يمس باطنه ومعارفه العليا إلا المطهرون من الذنب هم الأئمة من أهل بيت الوحي حيث قال تعالى: **﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم**

---

(١) سورة البقرة ، الآية(١٢٥) .

(٢) سورة الأنبياء ، الآية (٩٨) .

(٣) الفتوحات ، ج١ ص٦٦٦ .

(٤) سورة الواقعة ، الآية (٧٩) .

تطهيراً﴾[1] . كذلك الكعبة الطاهرة لا يطوف حولها ولا يستقبلها في شؤونه الحيوية إلا الطاهرون إذ الطيب للطيب كما أن الخبيث للخبيث .

وكما أن القرآن الكريم مرآة نقية يرى الناظر صورته الجميلة أو القبيحة فيها ولذلك يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويضل به الفاسقين ، كذلك الكعبة مرآة صافية يرى الناظر منظره الجميل أو القبيح فيها يهدي بها الله من يشاء ويضل بها من يشاء وهم الذين نزل فيهم : **﴿وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية﴾**[2] وهؤلاء لا يوفقون للطواف حولها والصلاة نحوها وما إلى ذلك من الشؤون العبادية .

الصلة الخامسة : في أن الكعبة أقدم بيت وضع للناس

ان الأرض برحبتها مسجد وطهور وكان الإنسان من أقدم الدهور يعبد الله سبحانه في أي قطر من أقطار الأرض إلا أن أول موضع اختص للتعبد الشعبي والتخضع الجمعي هو البيت الذي قد أسس على التوحيد بهندسة الوحي وعمارة النبوة وسدانة الإمامة وتطهير الخلة ، حيث قال تعالى : **﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين * فيه آيات بينات مقام إبراهيم﴾**[3] .

وبهذه السابقة المقدسة والسالفة المباركة قدمت على البيت المقدس وصارت قبلة للعالمين وبذلك اجيب اعتراض اليهود على الإسلام عند نزول قوله تعالى : **﴿فولّ وجهك شطر المسجد الحرام﴾**[4] . حيث تمسكوا

---

(١) سورة الأحزاب ، الآية (٣٣) .
(٢) سورة الأنفال ، الآية (٣٥) .
(٣) سورة آل عمران ، الآيتين (٩٦ ـ ٩٧) .
(٤) سورة البقرة ، الآية (١٤٤) .

بقداسة البيت المقدس وقدمته فاجيبوا بان الكعبة المطهرة أول بيت وضع للناس واقدمه .

ولعله لذا سميت بالبيت العتيق إذاً العتيق يطلق على القديم النفيس فلا يطلق على ما لا قدمة له وكذا لا يطلق على القديم الذي لا نفاسة ولا قداسة له بل إنما يطلق على خصوص القديم الذي مر عليه الدهر ولم يبله ولم يدنسه شيء ولم تنجسه الجاهلية بانجاسها ولم تلبسه المدلهمات من ثيابها ، لا أن مجرد القدمة التاريخية قد أورث النفاسة وصرف السبق الزماني قد أوجب القداسة على ما يراه المتوسمون ، حاشا المعارف الإلهية أن يعطي القداسة شيئاً مر عليه الدهور فحسب وان يهب النفاسة شيئاً بقي طول الدهر فقط ، بل كما أن مدار الكرامة في النظام الإنساني الإلهي هو التقوى لا غير ، كذلك محور القداسة في النظام الخارجي من الأزمنة والامكنة والبيوت ونحوها هو تجلي أمر إلهي كنزول الوحي فيه وانتشاره منه ، وهذا هو الموجب لقداسة الكعبة وهي بانضمامها إلى القدمة التاريخية يوجب أن يصير بيتاً عتيقاً وله أيضاً معنى آخر سيأتي في موطنه .

الصلة السادسة في أن الكعبة مدار العتق ومحور الحرية

كما أن الكعبة لقدمتها ونفاستها صارت عتيقاً كذلك لانعتاقها عن سلطة أي مالك وتحررها عن قهر أي سلطان صارت عتيقاً حيث أنها لم يملكها أحد[١] ولم يسيطر عليها احد سيطرة المالك على المملوك ، فعليه يكون قدمته التاريخية بنفاستها وهكذا تحررها عن سلطة أي مالك موجباً لكونها عتيقاً بكلا الوجهين فتبين من ذلك أنه لا يطوف حول هذا البيت

(١) الوسائل ، ج٩ ص٣٤٧ .

العتيق ولا يستقبل نحوه إلا العتقاء من سلطة الطغاة المردة ولا يولي وجهه شطره إلا الأحرار من سيطرة الاهواء المردية وحيث أن عبد الشهوة أذل من عبد الرق لا يصير الإنسان حراً ما لم يدع هذه اللماظة ولا يكون حراً ما لم يضع عنه اصره والاغلال التي كانت عليه وما لم يصر حراً لا يصلح لأن يطوف حول البيت الحر ويستقبل نحو الكعبة العتيق لأن الطيب لا يناله إلا الطيب كما ان الخبيث لا يحن إلا نحو الخبيث .

ومن ذلك يلوح مغزى قوله تعالى: ﴿**وليطوفوا بالبيت العتيق**﴾[1] . وقوله تعالى: ﴿**ثم محلها إلى البيت العتيق**﴾[2] . فمن تحرر من شح نفسه وافلح وصار حراً من عبودية غير الله يصير صالحاً للطواف حول البيت العتيق والصلاة شطره وكذا الطواف حوله ينهي عن الرقية والإنظلام كما تنهي الصلاة عن الفحشاء والمنكر فالطائف حول البيت الحر لا يستعبد احداً كما لا يصير عبداً لأحد إلا الله: لا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حراً .

وهكذا تضحية الهدي وابلاغه البيت العتيق يدرس الحرية ويورث التحرر عن كل رقية عدا رقية الله تعالى التي هي الفضيلة الوحيدة للانسان فعليه أن يعبد الله مخلصاً له الدين الواصب .

الصلة السابعة في أن الكعبة مثابة للناس وأمن لهم

قد جعل الله الكعبة مرجعاً ومثابة للناس يرجعون ويثوبون اليها فيما يعرض لهم من الأمور الهامة وامناً لهم من أي خطر كان يصيب الذين يعيشون خارج الحرم ، قال تعالى: ﴿**وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً**﴾[3]

---

(١) سورة الحج ، الآية (٢٩) .
(٢) سورة الحج ، الآية (٣٣) .
(٣) سورة البقرة ، الآية (١٢٥) .

وقال تعالى: ﴿**أولم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون**﴾(١) ونطاق الكريمة الثانية هو كون الحرم امناً للناس وصوناً لهم عن الاختطاف والاستلاب والقتل والنهب والسبي وما إلى ذلك مما كان يفعله الطغاة الذين لا شعار لهم إلا شعار قد افلح اليوم من استعلى ولا يهمهم أمر أصلاً بل قد اهمتهم انفسهم ويظنون بالله ظن الجاهلية ويأكلون ويتمتعون كما تأكل الأنعام.

ولكن الأصل في ذلك كله هو الكعبة التي جعلها الله مثابة للناس وأمناً لهم ثم بتشرفها جعل البلد اميناً والحرم مأموناً والمكة مصونة وقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة عليهم السلام «أنه حرم الحرم لعلة المسجد»(٢).

وروي عن مولانا جعفر بن محمد الصادق عليه السلام أنه قال: من دخل الحرم من الناس مستجيراً به فهو آمن ومن دخل البيت مستجيراً به من المذنبين فهو آمن من سخط الله ومن دخل الحرم من الوحش والسباع والطير فهو آمن من أن يهاج أو يؤذى حتى يخرج من الحرم(٣) وكان هذا التأمين الإلهي إجابة لباني الكعبة إبراهيم الخليل عليه السلام حيث دعا ربه وقال: ﴿**رب اجعل هذا بلداً آمناً**﴾(٤) وقال أيضاً ﴿**رب اجعل هذا البلد آمنا**﴾(٥).

ولعل سر التفاوت في التعبير هو بلحاظ كون ذينك الدعائين في زمانين مختلفين احدهما قبل تحقق البلد وبناء مكة وثانيها بعد بناء مكة وتحقق البلد.

---

(١) سورة العنكبوت، الآية (٦٧).
(٢) الوسائل، ج٩ ص٣٣٦.
(٣) الوسائل، ج٩، ص٣٣٩.
(٤) سورة البقرة، الآية (١٢٦).
(٥) سورة إبراهيم، الآية (٣٥).

وكيف كان فقد جعل الله البيت حراماً ووصفه به حيث قال في كتابه: **﴿البيت الحرام﴾**[1] وقال: **﴿ومن دخله كان آمنا﴾**[2] ومن ذاك الأصل ما تنعم به قريش حيث أنه تعالى اطعمهم من جوع وآمنهم من خوف .

الصلة الثامنة: في أن الكعبة البيت الحرام قيام للناس

ان المراد من القيام المطلوب في قوله تعالى **﴿قل إنما اعظكم بواحدة أن تقوموا لله﴾**[3] هو المقاومة والاستقامة لا الانتصاب البدني وهو واضح ويقابله القعود بمعنى العجز والاستكانة والانظلام ولذا جعل الجهاد والقعود متقابلين حيث قال تعالى: **﴿فضل الله المجاهدين باموالهم وانفسهم على القاعدين درجة﴾**[4] فالمجاهد الذي يجاهد اهوائه كما يجاهد اعدائه فهو قائم والذي يتصالح مع هواه كما يصالح عدوه فهو قاعد والدين الإلهي يتلخص في قوله تعالى **﴿قل إنما اعظكم بواحدة﴾** وهو يفيد الحصر أي لا موعظة إلا بخصلة واحدة وهو القيام لله أي المقاومة لإحياء أمر الله والإستقامة في امتثال حكمه وهذا هو المعبر عنه بالجهاد فالدين الإلهي متبلور في المجاهدة لا غير والجهاد مع الاهواء والاعداء قيام واعطاء الأعداء باليد والتسليم لهم أو الفرار منهم قعود وعجز .

ولعل التعبير عن المجاهدة بالقيام لأنه من بين سائر الحالات والشؤون اقوى الحالة واشدها دفاعاً واهيائها دعاً ودفعاً أو تحاملاً وتهاجماً فالدين قيام وجهاد لا يحوم حوله القعود والعجز كما قال تعالى: **﴿لقد ارسلنا رسلنا**

---

(١) سورة المائدة ، الآية(٩٧) .
(٢) سورة آل عمران ، الآية(٩٧) .
(٣) سورة سبأ ، الآية (٤٦) .
(٤) سورة النساء ، الآية (٩٥) .

بالبينات وانزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط﴾[1] حيث يدل على أن الهدف السامي للنبوة العامة السارية في سير الأنبياء الذين يسيرون عليها ويدعون إليها إنما هو قيام الناس بالقسط (بالكسر) وتحرزهم عن القسط (بالفتح) واجلى مراتب القيام بالقسط هو التوحيد لأن الشرك ظلم عظيم لا عدل فيه أصلاً ثم سائر مراتبه في الأخلاق والأعمال .

فإذا تبين أن الموعظة الإلهية تتلخص في القيام لله وان غاية البعثة والارسال وانزال الوحي هو قيام الناس بالقسط يلزم الغور الصادق في معتمد هذا القيام وفي عمود هذه المقاومة وعماد هذه الاستقامة .

والذي ورثناه من سلالة إبراهيم الباني لهذا البيت الحرام هو أن عامل قيام الناس ومقاومتهم تجاه الطغاة اللئام هو قيام الكعبة وحياتها ودوام امرها حيث قال مولانا جعفر بن محمد الصادق عليه السلام لا يزال الدين قائماً ما قامت الكعبة[2] فحياة الكعبة هو حياة الدين وبحياة الدين يحيا الناس وبخراب الكعبة وانهدامها وهجرها يموت الدين وبموته يموت الناس والأصل في ذلك كله هو قوله تعالى: ﴿جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس﴾[3] .

حيث يدل على أن عمران الكعبة بالطواف حولها والصلاة شطرها والحج بمناسكها وجعلها قبلة يستقبل إليها في الشؤون العبادية ونحوها هو العامل الهام لقيام الناس كما يدل على أن هدم الكعبة وهجرها بترك الطواف حولها والصلاة إليها وسائر ما يعتبر فيه الاستقبال هو الموجب لقعود الناس وعجزهم عن دفع الأهواء والأعداء ﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيا

---

(١) سورة الحديد ، الآية (٢٥) .
(٢) الوسائل ج٨ ، ص١٤ .
(٣) سورة المائدة ، الآية (٩٧) .

عن بينة﴾[1] .

فتحصل أن الكعبة للدين الإلهي بمنزلة عظم الظهر وفقراته للانسان فإذا قامت وقويت وسلمت فقد امكن القيام والمشي والمقاومة والسرعة إلى المغفرة والسبقة إلى الخير وما إلى ذلك مما يتوقف على القيام المعتمد على عظم الظهر وسلامة فقراته وإذا عجزت وضعفت ووهنت فقد تعذر القيام وامتنع الاستقامة واستحال السرعة والسبقة ونحو ذلك مما يتوقف على القيام وذلك لكسر فقار الظهر وانثلام عماده وصيرورته فقيراً ، أي المنكسر فقار ظهره بعد أن أمكن أن يصير غنياً عن الغير وقائماً بنفسه اعتماداً على من هو عماد من لا عماد له ومحترزاً بحرز من هو حرز لمن لا حرز له هو الله القائم على كل نفس بما كسبت الذي هو بكل شيء محيط وحفيط وعند هجر بيت الله ينقطع الربط وبانفصامه لا يمكن القيام بالقسط والمقاومة مع القسط (بالفتح) فحينئذٍ يحرم ويمنع خير الدنيا والأخرة لأن الكعبة عامل قيام الناس لدينهم ومعاشهم حسب ما أفاده مولانا الصادق عليه السلام[2]

فلذا قال رسول الله صلى الله عليه وآله «من أراد دنياً وآخرة فليؤم هذا البيت»[3] أي من أراد أن ينال في الدنيا حسنة وفي الأخرة حسنة حيث يقول ﴿ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة﴾ وهكذا يناجي ربه ﴿ويقول ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من امرنا رشداً﴾ .

فليقصد هذا البيت وليجعله إماماً يأتم به وقدوة يقتدى بها ومقصداً يطلبه لأن في ضوئها خير الدنيا والأخرة لأن في قيامها قيام الدين وبقيام

(١) سورة الأنفال ، الآية(٤٢) .
(٢) الوسائل ، ج٨ ، ص٤١ .
(٣) الوسائل ، ج٨ ، ص٤٠ .

الدين ينتفع في الدارين ومن أهم مظاهر الائتمام بالكعبة هو الحج بمناسكه والطواف حولها باشراطها والهدى البالغ إياها ونحو ذلك .

ومما تقدم تبين سر ما ورد عن النبي ﷺ من أن : «أيسر ما يعطى من ينظر إلى الكعبة أن يعطيه الله بكل نظرة حسنة ويمحى عنه سيئة ويرفع له درجة»[1] وعن مولانا الصادق عليه السلام النظر إلى الكعبة عبادة[2] وهكذا ما ورد عنه عليه السلام من التبرك بثياب الكعبة يجعلها للمصاحف[3] وغير ذلك وأن الدخول فيها (أي في الكعبة) دخول في رحمة الله والخروج منها خروج من الذنوب معصوم فيما بقي من عمره مغفور له ما سلف من ذنوبه وان الداخل فيها يدخل والله راض عنه ويخرج عطلاً من الذنوب .

وهكذا ما ورد عن مولانا علي بن أبي طالب عليه السلام . . . «والله الله في بيت ربكم لا تخلوه ما بقيتم فانه إن ترك لم تناظروا»[4] لأن ترك بيت الله وهجره بمنزلة سقوط العماد الذي يسقط معه المتكىء به فينكب عن الصراط **﴿عن الصراط لناكبون﴾**[5] ويهوي ويسقط **﴿ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى﴾**[6] .

وما ورد عن مولانا محمد بن علي الباقر عليه السلام : «لا ينبغي لأحد أن يرفع بناء فوق الكعبة»[7] فكما أن الإسلام يعلو ولا يُعلى عليه كذلك

---

(١) الوسائل ، ج٩ ص٣٦٤ و٣٦٥ وص٣٥٩ .
(٢) الوسائل ، ج٩ ص٣٦٤ و٣٦٥ وص٣٥٩ .
(٣) الوسائل ، ج٩ ص٣٦٤ و٣٦٥ وص٣٥٩ .
(٤) الوسائل ، ج٨ ص١٥ .
(٥) سورة المؤمنون ، الآية (٧٤) .
(٦) سورة طه ، الآية (٨١) .
(٧) الوسائل ، ج٩ ص٣٤٣ .

الإسلام الممثل وهو الكعبة لا يعلى عليه بناء وحيث أنها قيام للناس جعلت في وسط الأرض ليكون الفرض لأهل الشرق والغرب سواء(١) .

وحيث أنه لا شيء أحب عند الله من الاسلام وهو متمثل في الكعبة فلا بقعة في الأرض أحب إلى الله منها ولذا ورد عن مولانا الصادق عليه السلام «إن الله اختار من كل شيء شيئاً واختار من الأرض موضع الكعبة(٢) .

والسر في ذلك كله هو أن الكعبة مثال للعرش الذي منه تدبير الأشياء كلها ومؤسسة على التوحيد المحض ومبنية ومرفوعة على الخلوص وطاهرة عن لوث الشرك لا يطوف حولها إلا الطاهرون واقدم بيت وضع للناس وميزان الحرية ومثابة للناس وأمن لهم وقيام للناس بالقسط والعدل ولذلك يقوم الدين ما قامت الكعبة ولأجله لم يختص بقوم دون قوم وليس قبيلة أولى بها من قبيلة بل ولذلك لم يحكم في شيء من الفضائل المارة بانها أي الكعبة مثابة للمؤمنين أو قيام لهم ولم يخاطب المؤمنون بتعظيمها ونحو ذلك بل الخطاب أو محور الكلام في ذلك كله هو الناس بالعموم والاطلاق من دون أي وصف وقيد كما تقدم مبسوطاً .

ومن أهم مظاهر تلك السعة والدعوة البالغة والنداء العالمي هو الحج حيث قال تعالى: ﴿ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا﴾(٣) حيث لم يقل يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الحج أو اقيموا الحج ونحو ذلك مما ورد في الصوم والصلاة ، بل اللسان العالمي قد نادى بقوله ﴿ولله على الناس﴾ كما أن الإعلام العالمي منذ زمن بناء البيت كان متجهاً نحو الناس

---

(١) الوسائل ، ج٨ ص٨ .
(٢) الوسائل ، ج٩ ص٣٤٨ .
(٣) سورة آل عمران ، الآية (٩٧) .

سواسية حيث قال: ﴿وأذن في الناس بالحج﴾ ، على ما ستقف عليه .

فتحصل أن الكعبة بنيان الهي للناس الاسود والأبيض والعاكف والباد والراجل والراكب من دون خصوصية لأحد أو لقوم أو لاقليم فارتقب لما يتلى عليك من آيات الحج والعمرة في الصلات القادمة ومن هنا تبين ضرورة قيام الشعب طراً في تطهير الكعبة المقدسة عن تولية الطغاة المردة ونجاتها من أيدي الاشرار المستولين على البيت الحرام والمنتفعين به نفعاً تجارياً يبيعون الدين بالدنيا وهؤلاء هم السراق كما ورد عن مولانا الصادق عليه السلام : « اما أن قائمنا لو قد قام لقد اخذهم فقطع ايديهم وطاف بهم وقال هؤلاء سراق الله »[1] .

وأنت أيها المسلم إذا سمعت بأن ولاية الكعبة كانت في خزاعة إلى زمن حليل الخزاعي فجعلها حليل من بعده لابنه وكانت تحت قصي بن كلاب وجعل فتح الباب وغلقها لرجل من خزاعة يسمى أبا غبشان فباعه أبو غبشان من قصي بن كلاب ببعير وزق خمر وفي ذلك يضرب المثل السائر «اخسر من صفقة ابي غبشان»[2] ومت على ذلك الماً واسفاً لما كنت ملوماً . وهنالك يتبلور قوله تعالى ﴿وعهدنا إلى ابراهيم واسماعيل أن طهرا بيتي﴾[3] وهذه هي ملة ابراهيم عليه السلام التي لا يرغب عنها إلا من سفه نفسه .

وحيث أن رسول الله والذين آمنوا معه أولى بابراهيم الذي طهر بيت الله عن أي رجس ورجز فعلى الأمة الاسلامية اليوم أن يطهروا بيته تعالى عن

---

(١) الوسائل ، ج٩ ص٣٥٥ .
(٢) الميزان ، ج٣ ص٣٩٩ .
(٣) سورة البقرة ، الآية (١٢٥) .

كل لوث وقذارة شرقية كانت أو غربية فكما أن العقل ما يعبد به الرحمن ويكسب به الجنان فكل ما لا يكسب به الجنان ولا يعبد به الرحمن بل يكسب به الدنيا الجائفة ويعبد به الطاغوت فهو ليس بعقل بل سفاهة .

ولقد اجاد سيدنا الاستاذ العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي قدس سره في تفسيره القيم عند بيان قوله تعالى **﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه﴾** حيث قال رحمه الله . . . ومن هذه الآية يستفاد معنى ما ورد في الحديث «إن العقل ما عبد به الرحمن انتهى»(١) .

وأنت إذا شاهدت اليوم ما ابتليت به الكعبة المعظمة من استيلاء الطغاة عليها لاستبان لك معنى قول مولى الموحدين علي بن أبي طالب عليه السلام في كتابه إلى مالك . . . «إن هذا الدين كان أسيراً في أيدي الأشرار يعمل فيه بالهوى ويطلب به الدنيا» (نهج البلاغة) فعلى الشعوب الاسلامية أن يحققوا ما حققه إبراهيم ويبطلوا ما ابطله وذلك إنما يتجلى بالحج والعمرة على ما يرضاه الله ورسوله وعلى ما حج ولبى خاتم النبيين حيث قال: «خذوا عنى مناسككم» ، وهو صلى الله عليه وآله أخذ مناسكه من جبرائيل حسبما تقدم .

الصلة التاسعة في أن حرمة الكعبة وعزتها لحرمة الحق وعزته

قد تبين في ثانياً الصلات المارة أن للكعبة حرمة تختص بها وعزة لا توجد في غيرها من البقاع والابنية ولكن يلزم الفحص عن منشأ حرمتها وعزتها هل هي بما أنها كعبة وبيت خاص في مكان مخصوص حرام وعزيز أو ذلك بما أنها مثال للحق ومجلى لظهوره ووعاء للوعي ومهبط للوحي وغير

---

(١) الميزان ج١ ، ص٣٠٣.

ذلك مما يحيي الحق ويميت الباطل؟ والحاصل هل حرمتها لذاتها أو لظهور الحق منها؟

وليعلم أن مما قام البرهان العقلي عليه هو لزوم انتهاء ما بالعرض إلى ما بالذات دفعاً للتسلسل وصوناً عن الدور ومن ذلك ما يشاهد في القرآن الكريم أنه وإن ينطق بأن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ولكن يهتف بأن عزة غير الله تعالى ينتهي إلى عزته حيث يقول العزة لله تعالى وهكذا في القوة حيث ينطق بقوله تعالى ﴿**خذوا ما اتيناكم بقوة**﴾[1] وبقوله ﴿**يا يحيى خذ الكتاب بقوة**﴾[2] وبقوله ﴿**واعدوا لهم ما استطعتم من قوة**﴾[3] وبقوله ﴿**وإني عليه لقوي امين**﴾[4] وما إلى غير ذلك ولكنه ينادي باعلى صوته ﴿**أنّ القوة لله جميعاً**﴾[5] وهكذا في الشفاعة ونحوها من الأمور الوجودية حيث أنها برمتها تنتهي إلى الحق الذي له الاسماء الحسنى بالذات .

ومما يتفرع على هذا الأصل الذي توافق فيه البرهان والقرآن هو لزوم انتهاء ما للكعبة من الحرمة والعزة إلى حرمة الحق وعزته بحيث لو دار الأمر بين هدم الكعبة وتخريبها وهدم الحق يلزم هدم الكعبة تضحية للحق وفداء له للزوم تضحية ما بالعرض وقاية لما بالذات . ولنشر إلى نبذ من ذلك فنقول: إن للحرم احكاماً تحكي عزته وتدل على فضله من عدم جواز الدخول فيه بلا احرام ومن عدم جواز دخول غير الموحد فيه ومن عدم جواز اخذ اللقطة منه على رأي ومن عدم جواز الصيد فيه ومن عدم جواز اجراء الحدود فيه إلا من

---

(١) سورة البقرة ، الآية (٦٣) .
(٢) سورة مريم ، الآية (١٢) .
(٣) سورة الأنفال ، الآية (٦٠) .
(٤) سورة النمل ، الآية (٣٩) .
(٥) سورة البقرة ، الآية (١٦٥) .

لم يراع حرمته وارتكب الفحشاء فيه ومن عدم جواز قطع شجره وقلع نبته وغير ذلك من الاثار الخاصة الدالة على شرفه نظير ما للمسجد الحرام الذي سواء العاكف فيه والباد .

ولكن ذلك كله لحرمة الكعبة وعزتها ويشهد له ما ورد عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنه سئل الوقوف بالجبل لمَ لم يكن في الحرم فقال لأن الكعبة بيته والحرم بابه فلما قصدوه وافدين وقفهم بالباب يتضرعون قيل له فالمشعر الحرام لم صار في الحرم قال لأنه لما أذن لهم بالدخول وقفهم بالحجاب الثاني فلما طال تضرعهم بها أذن لهم بتقريب قربانهم فلما قضوا نفثهم تطهروا بها من الذنوب التي كانت حجاباً بينهم وبينه اذن لهم بالزيارة على الطهارة قيل فلم حرم الصيام أيام التشريق قال لأن القوم زوار الله فهم في ضيافته ولا يجمل بمضيف أن يصوم أضيافه قيل فالتعلق باستار الكعبة لأي معنى هو قال هو مثل رجل له عند آخر جناية وذنب فهو يتعلق بثوبه يتضرع إليه ويخضع له أن يتجافى له عن ذنبه(١) .

فالحرم وكذا مكة والبلد الأمين وإن كان له حرمة لا توجد في غيره من الامكنة وهكذا للشهر الحرام والهدى والقلائد حرمة خاصة(٢) .

إلا أن ذلك كله لحرمة الكعبة البيت الحرام نظير ما يقال في أن الحرم قبلة لمن في خارجه والمسجد الحرام قبلة لمن في الحرم والكعبة قبلة لمن في المسجد الحرام حيث أنه ليس المراد عند التحقيق أن القبلة أمور متعددة وكلها قبلة بالذات بل المراد هو أن الكعبة وحدها قبلة ولا غير لا الحرم قبلة ولا المسجد الحرام قبلة لاحد أصلاً وكذا الجهة والسمت ليس قبلة لأحد

---

(١) الوسائل ، ج٨ ص١٥٩ و١٦٠ .
(٢) في سورة المائدة ، الآيتين(٢ و٩٧) .

أبداً بل القبلة الوحيدة للاحياء والأموات هي الكعبة لا غير إلا أن صدق الاستقبال يختلف باختلاف الموارد فالاستقبال مختلف حسب اختلاف الموارد لا أن القبلة متعددة وإن كان الحق هو أن البعد الخاص والحيز المخصوص الذي شغلته الكعبة هو القبلة من تخوم الأرض إلى عنان السماء لا أن الجرم الخاص والبناء المخصوص قبلة بذاته حتى يلزم فقد القبلة عند هدم الكعبة بالسيل أو الزلزلة أو غير ذلك .

وكيف كان فحرمة البلدة التي حرمها الله الذي له كل شيء بحرمة الكعبة إلا أن حرمة الكعبة وعزتها لا لأنها احجار خاصة بل لأنها قيام الناس بالقسط الذي هو الهدف السامي لبعثة الأنبياء ولأنها قبلة للعباد ومطاف للحجاج ويكون مداراً لبقاء الدين الإلهي ما بقيت «لا يزال الدين قائماً ما قامت الكعبة» فمن أرادها بسوء وشاء أن يزيل الدين بهدم الكعبة ويميت العبادة بتخريبها ويمحو الطواف والزيارة بقلعها ويمحق القيام بالقسط بازالتها وبالجملة فمن يرد فيها بالحاد بظلم يذقه الله بعذاب أليم لا يبقى ولا يذر ، **﴿الم تر كيف فعل ربك باصحاب الفيل * ألم يجعل كيدهم في تضليل * وارسل عليهم طيراً أبابيل * ترميهم بحجارة من سجيل * فجعلهم كعصف مأكول﴾** .

ولم يكن ذلك نادرة اتفاقية أو صدفة تاريخية أو بارقة خاطفة تظهر طول الدهر مرة وينمحي اخرى بل هي سنة الهية لا تجد لها تبديلاً ولا تحويلا حسب ما اسسه القرآن الكريم على النهج القاطع العام والحكم الإلهي الدائم أنه **﴿ومن يرد فيه بالحاد بظلم نذقه من عذاب أليم﴾** . وهذا كالتعهد الإلهي في صيانة القرآن الكريم عن التحريف وقال **﴿وإنه لكتاب عزيز * لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم**

حميد﴾[1] وبين سر تحفظه عن تطرق الباطل وصيانته عن النسخ والتحريف والمحو بأنه تعالى قد تكفل لحفظه حيث قال **﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾**[2] .

فعلى هذا الأصل الذي أصله القرآن الكريم يكون حرمة الكعبة زادها الله شرفاً لحرمة الحق الذي لا يزهق ولحياة الدين الذي لا يموت ولدوام الوحي الذي لا ينسى عهداً من الله فمن أراد الكعبة بسوء وكان في أمنيته محو الحق يعذبه الله بعذاب بئيس لا اختلاف فيه ولا تخلف عنه .

وأما من تحصن بالكعبة والتجاء إليها ولاذ بها وتمسك باستارها ولكنه لم ينصر الحق ولم يخذل الباطل ولا يغيث مستغيث الحق ولا يلبي منادي الحرية ولا يجيب هتاف الاستقامة ولا يسمع دعاء داعي القسط وليس له اذن واعية تعي الحق الصراح ولا يد باسطة تبطش الباطل ولا رجل ثابتة تتد في الأرض ولا رأس يعير الله جمجمته وبالجملة لا يعرف إمام زمانه وتكون حياته كموته جاهلية لأن الموت على وزان الحياة كما تموتون تبعثون فمن كانت موتته ميتة جاهلية تكشف أن حياته كانت جاهلية ، فلا لياذ لمثله ولا أمان له أصلاً بل يسلط الله عليه من لا يرحمه وإن كان بهدم الكعبة وتخريبها .

كما ابتلى به ابن الزبير الذي لم يعرف إمام زمانه الحسين بن علي عليه السلام وابنه علي بن الحسين عليه السلام ولم ينصره على الحق الذي قام به ولم يخذل الباطل الذي ركزه بين اثنتين بين السلة والزلة ولم يسمع هتافه الملكوتي «هيهات منا الذلة» ولم يلب ندائه الإلهي بأنه على الإسلام السلام

---

(١) سورة فصلت ، الآيتين(٤١ و٤٢) .
(٢) سورة الحجر ، الآية(٩) .

إذ بليت الأمة براع مثل يزيد ولم يجب دعوته الربانية بأن من كان باذلاً فينا مهجته موطناً على لقاء الله نفسه فليرحل معنا وهكذا لم يعن سيد الساجدين حيث يقول أنا ابن مكة ومنى أنا ابن زمزم والصفا ثم التجأ إلى الكعبة وتعلق باستارها فلا يعينه الله بالغيب بل يمهل الظالم أن يهدم الكعبة ويسيطر عليه ويصلبه **﴿وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً﴾**[1] .

لأن المقصود هناك لم يكن هو هدم الكعبة بما انها قبلة للمسلمين ومطاف لهم ومهبط للوحي ومعدن للوعي بل القصد هناك إلى السيطرة على ابن الزبير المتحصن بها واللاجىء إليها .

ومن تلك الحادثة يعرف قدم الإمام وحرمة الولاية وعزة الخلافة الإلهية كما أن بالتحليل العقلي يعرف قدر الحق وبهائه وجماله وجلاله وكبريائه ومشيئته المستولية على كل شيء وسلطانه الذي ملأ كل شيء فانتهت تلك الحرمات التي كانت للحرم والبلد الأمين إلى الكعبة ومن الكعبة إلى الإمام الذي يتولاه الله الذي هو ولي الصالحين ثم منه إلى الحق الولي الذي يخضع له كل شيء فلئن امهل الله الظالم حتى هدم الكعبة فليس ذلك نقضاً لقوله تعالى **﴿ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب اليم﴾**[2] .

فتدبر حتى تجد الميز بين ابرهة وبين ابن الزبير والحجاج إذ ذاك الغاشم أراد الكعبة بسوء هدماً للقبلة والمطاف إذ كانت حينذاك قبلة للحنفاء ومطافاً لهم كما لغيرهم وهذا الظالم أي الحجاج المسلط على ظالم آخر مثله لم يرد الكعبة بسوء بما أنها قبلة ومطاف ولم يشاء أن يمحق الاسلام والدين الحنيف وإن لم يكن له دين وكان ممن لا يخاف المعاد ولكن لم يكن قصده

(١) سورة الأنعام ، الآية (١٢٩) .
(٢) سورة الحج ، الآية(٢٥) .

حينذاك إلا السيطرة على الظالم الذي لم يعرف إمام زمانه القائم بالحق والداعي إلى القسط المنادي بالحرية الهاتف بالحكومة الإسلامية القائل قوله السديد لا اعطيكم بيدي اعطاء الذليل ولا أفر فرار العبيد الباذل مهجته في الله ليستنقذ عباده من الجهالة وحيرة الضلالة المعتصم بحبل الله المتين الذي لا انفصام له والمنقطع عن غيره قائلاً بمقاله العتيق: لو لم يكن لي في الدنيا ملجأً ولا مأوى لما بايعت يزيد بن معاوية . وذلك القائل هو سيدنا ومولانا سيد الشهداء الحسين بن علي عليه السلام .

فتحصل أن الحرمة لله تعالى بالذات ولغيره بالعرض وان العزة للحق الذي من صارعه صرعه بالذات ولغيره المتحقق به بالعرض وان القوة لذي القوة المتين بالذات ولغيره بالعرض وان القدرة للقدير المحض بالذات ولغيره المقتدر به بالعرض فحان أن يحترم المسلمون بحرمة الله ويعتزوا بعزة الحق ويتقووا بقوته ويقتدروا بقدرته وبالجملة فليتخلقوا باخلاقه حتى لا يظلموا ويكونوا أنصار الله كما قال عيسى للحواريين من أنصاري إلى الله ويأخذوا ما اتاهم الله ورسوله بقوة القلوب وقوة الأبدان كما اخذ يحيى الزاهد كتاب الله بقوة واستشهد في سبيله .

ومن أهم مجالي هذا الأمر ومعالي هذه النهضة العالمية هو الحج الذي ندب الناس إليه من اقطار العالم وهو فرار وهجرة إلى الله كما تقف عليه .

الصلة العاشرة : في أن الحج من أهم مظاهر الإسلام

ان للإسلام قواعد ومباني يبتنى عليها ويتكىء بها وينهدم دونها ولا يبقى له بدونها إلا الاسم العاري عن المسمى ومن تلك المباني الحج حيث

يقول مولانا محمد بن علي عليه السلام: «بني الإسلام على خمس الصلاة والصوم والزكاة والحج والولاية»[1] فمن ترك الحج متعمداً فقد هدم ركناً من أركان دينه الإلهي فينهدم معه الإسلام الكامل ولذا قال تعالى في تركه عامداً . . . ﴿ومن كفر فإن الله غني عن العالمين﴾ .

حيث عبر عن تركه العمدي بالكفر فتارك الحج عمداً كافر عملاً وإن لم يكن كافراً ايماناً واعتقاداً .

وحيث أن الحج من مباني الإسلام فجميع ما ورد في شأنه لا بد وأن يتبلور في الحج ويكون الحج ممثلاً إياه ومجلي لظهوره .

ومن أعلى أوصاف الإسلام وأهمها أمران: أحدهما الكلية ، وثانيها الدوام ، يعني أن الإسلام دين الهي كلي يسع جميع أفراد الانسان من الأسود والأبيض والأحمر وغيرهم إذ الناس فيه سواسية كاسنان المشط وكذا القبائل والشعوب فيه شرع سواء بحيث لا يشذ من ذلك أحد ولا يغيب منه قوم ولا يعزب منه شعب وهكذا يسع عمود الزمان غابره وقادمه إلى يوم القيامة .

فهو كلي جامع للافراد والشعوب باسرهم ودائم باق في امتداد الزمان إلى انقضائه بطيء ما هو عامله وقبض ما هو موضوعه أي السماء والارض حيث يقول تعالى ﴿يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب﴾ ويقول تعالى ﴿. . . والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه﴾ .

فلا يبليه الدهر ولا تدرسه الليالي والأيام بل هو كل يوم غض وطري لاميز فيه بين السابق من الزمان واللاحق منه لأنه أمر إلهي مسيطر على الزمان ومهيمن على الحركة وفائق على المادة فيكون مصوناً عن الزوال بل هو باق

---

(١) جامع احاديث الشيعة ج١ ، ص١٢٧ .

ما بقي الدهر كما كان موجوداً فيما تقدم من الدهور الغابرة والأيام الخالية منذ كان على الأرض إنسان إذ لا بد لكل إنسان من دين الهي ولا دين إلهي إلا الإسلام حيث يقول الله **﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾**(١) .

فالذي يهمنا الآن هو بيان هذين الاصلين أي كلية الإسلام ودوامه أولاً وبيان كون الحج من حيث أنه من مباني الإسلام الهامة صالح لتجلي ذينك الاصلين فيه بل هو من أهم مظاهر ذلك ثانياً .

أما الأول: فالقرآن ينادي بأن الدين عند الله هو الاسلام وإن غيره من الأديان منحولة مردودة **﴿ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه﴾**(٢) وانه مطابق للفطرة الإلهية **﴿التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم﴾**(٣) .

وكذا يهتف بأن الله تعالى **﴿نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً﴾**(٤) وبأنه **﴿ذكر للعالمين﴾**(٥) ويصرح بانه لا هادي إلا الله **﴿وكفى بربك هادياً ونصيراً﴾**(٦) **﴿قل إن هُدى الله هو الهدى﴾**(٧) .

بل القرآن في بادىء أمره قد اعلن في عتائق سوره بهذين الأصلين أي الكلية والدوام حيث يقول **﴿إن هو إلا ذكر للعالمين﴾**(٨) حيث يدل على أن

---

(١) سورة آل عمران ، الآية (١٩) .
(٢) سورة آل عمران ، الآية (٨٥) .
(٣) سورة الروم ، الآية (٣٠) .
(٤) سورة الفرقان ، الآية (١) .
(٥) سورة القلم ، الآية (٥٢) .
(٦) سورة الفرقان ، الآية (٣١) .
(٧) سورة الأنعام ، الآية(٧١) .
(٨) سورة التكوير ، الآية (٢٧) .

ما جاء به النبي ﷺ لا شأن إلا ذكراً وهدى للعالمين .

والبرهان على ما نطق به القرآن هو أن الموجود المعلول كما يحتاج في أصل وجوده إلى علته التامة التي يجب بها ويمتنع دونها كذلك في بقائه ودوامه يفتقر إليها يبقى ببقائها ويدوم بدوامها . فإذا كانت العلة التامة باقية بحالها ومصونة عن التحويل والتبديل ومحفوظة عن التغير والزوال يكون المعلول باقياً كذلك إلا أن يتحول شأن من شؤون تلك العلة التامة مما يرجع إلى العلة القابلة أو الفاعلة بحيث لم يبق نصاب العلية التامة على حالها فحينئذٍ يتطرق التغير إلى المعلول ويتحول من حال إلى حال اخرى مما يقتضيه العلة التامة الأخرى على ما في موطنه .

وفي ضوء هذا الاصل الحكمي يتبين ضرورة بقاء الاسلام ما بقي على الأرض إنسان وذلك لأن الإنسان موجود حي متفكر ومختار ولا بد له من أن يتكامل كغيره من الموجودات الطبيعية التي لا بد لها أن تتحول وتتكامل لاحتياجها في التحقق والبقاء إلى الكمال وإلا فينعدم ولا كمال إلا ما يعطيه الكمال المحض وهو الله الذي اعطى كل شيء خلقه ثم هدى فالمكمل هو رب العالمين ولا غير لأن التكميل والتربية نوع خلقة حيث أنه ايجاد الربط الخاص بين شيئين أو مستلزم للخلقة إذ الخالق يقدر ويعلم أن يرب ويكمل مخلوقه لا غيره وهداية الموجود الحي المتفكر المختار وتربيته وتكميله لا يكون إلا بهدايته إلى العلم والعمل الصالح أي العقيدة والعمل الصالح وهذا هو الدين فالانسان محتاج إلى دين يبينه الله ويهديه إليه وإن ابتغى ديناً من عنده أو من عند أي إنسان آخر فلن يقبل منه أي لا يتكامل به بل ينكب عن الصراط السوي ويهوي إلى مكان سحيق .

وهذا الدين الإلهي المعبر عنه بالاسلام موجود ممكن فله علة تامة

يجب بها ويمتنع دونها والعلة التامة مؤلفة من فطرة خاصة فطر الناس عليها تكون هي العلة القابلة ومن هداية إلهية تكون هي العلة الفاعلة بل الفاعل هو الله الذي كفى به هادياً ونصيراً كما أن القابل هو الإنسان بما له من فطرة مخصوصة مفطور عليها فإذا تحققت هذه العلة التامة المؤلفة من الفطرة القابلة والربوبية الفاعلة يجب تحقق المعلول بها فما دامت تلك العلة التامة باقية يجب بقائه بها أيضاً .

وحيث أن الإنسان نوع تام لا ميز بين اصنافه وافراده إلا بعوارض خارجية لا مساس لها في التقويم ولا احتياج للانسان إليها في التقوم ولا دخل لها في أصل الهداية وضرورتها وإن كان لها مساس في فروعها وآدابها وسنتها المنشعبة من ذاك الاصل الثابت فهو أي الإنسان له نوعية تامة منحفظ بحاله لا يمسه التغير ولا يطرأ عليه التحول النوعي بحيث يصير غير الإنسان من الأنواع التامة الموجودة في عرضه وان يتكامل في سيره الجوهري إلى نوع آخر فوقه أو دونه بمعنى أنه إنسان صار راقياً أو هاوياً[1] مع صدق الإنسانية عليه بعد . والحاصل أن اختلال الأعراض والعوارض لا يوجب انثلام وحدته النوعية ولا يكثر وحدته الفطرية ما دام هو إنسان فالإنسان بما له فطرة خاصة فطره الله عليها إنسان طول الدهر ولا تبديل له كما بينه خالقه الذي اعلم به من نفسه فضلاً عن غيره حيث قال . . . ﴿**فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله**﴾[2] .

فتبين أن العلة القابلة باقية ما بقي على الأرض إنسان كما كان كذلك أيضاً فيما مضى من الدهر حيث يقول تعالى : ﴿**شرع لكم من الدين ما وصى**

---

(١) الصحيفة السجادية ، دعاء(١) .

(٢) سورة الروم ، الآية (٣٠) .

به نوحاً . . .﴾[1] وأما العلة الفاعلة فهو الله الذي لا يمس كرامته التغير أصلاً لأن ذاته عين الحياة التي لا موت فيها والنور الذي لا ظلام فيه والعلم الذي لا جهل فيه والقدرة التي لا عجز لها لأنه الحي الذي لا يموت ولأنه نور السموات والأرض فلا انمحاء له ولأنه لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء فلا يخفى عليه خافية ولا يضل ولا ينسى **﴿وما كان ربك نسياً﴾** ولأنه بكل شيء قدير فلا يعجزه شيء أصلاً ولا يمسه في خلق شيء غي ولا لغوب أبداً فهو العالم بمصالح الإنسان ومفاسده وهو القادر على تعليمه إياه وهدايته إلى رقيه وتحذيره عن هويه وبيان درجاته واعلام دركاته أعاذنا الله من شرور أنفسنا وسيئات اعمالنا .

والحاصل أن الله تعالى لا يسنح له حال دون حال ولا يحجبه شيء عن شيء ولا يحجب عنه شيء فلا الصغر يمنعه عن الاحاطة العلمية به ولا البعد يحجبه عن الشهود ولا الحجاب يمنعه عن الحضور ولا الظلمة تصده وتحجبه عن الظهور بل هو تعالى عالم بالصغير كالكبير وشاهد للبعيد كالقريب وحاضر في المحجوب كالمشهور وظاهر في الظلمة كالنور حيث يقول عز من قائل . . . **﴿يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير﴾**[2] .

يعني أن صغر الخردلة وحجاب الصخرة وبعد السماوات وظلمة الأرض لا يمنع اللطيف الخبير عن الشهود التام لأنه لطيف وكل لطيف خبير ولأنه خبير وكل خبير لطيف لأن كل لطيف ومجرد فهو عالم وكل عالم فهو لطيف ومجرد حسبما بينته الحكمة الإلهية في موطنها .

---

(١) سورة الشورى ، الآية (١٣) .
(٢) سورة لقمان ، الآية (١٦) .

والسر في ذلك كله أنه تعالى هو الأول قبل كل شيء فلا يسبقه شيء أصلاً حتى يكون السبق موجباً لغيبة السابق عن المسبوق وهو الأخر بعد كل شيء فلا يلحقه شيء اصلاً حتى يكون اللحوق مانعاً عن شهود اللاحق وهو الظاهر فلا ظهور لغيره إلا به فلا يظهر عليه شيء أبداً حتى يكون ظهوره الفائق قاهراً على ظهوره تعالى فيكون حجاباً نورياً له تعالى عن الحضور وهو الباطن فلا بطون لغيره بحيث يكون خافياً له تعالى حتى لا يكتنهه بل هو مع كل شيء وداخل في الأشياء لا بالممازجة وخارج عنها لا بالمزايلة وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله ولذا يعلم عجيج الوحوش في الفلوات واختلاف الحيتان في البحار الغمرات ومعاصي العباد في الخلوات .

فتبين بذلك أنه يمتنع فرض الجهل أو السهو في حقه تعالى بحيث لم يكن عالماً في هداية الإنسان وتبيين أحكامه في أمر ما ثم صار عالماً به حتى يكون هو الموجب لتغير الدين الإلهي وهكذا في السهو والتذكر فحينئذ لا مجال لتوهم التغير في الدين الوحيد أي الإسلام من ناحية القابل أو الفاعل أصلاً ويشهد له قوله تعالى: **﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه﴾**[1] .

حيث يدل على أن الدين المشروع للأنبياء العظام واحداً لا اختلاف فيه ولا تخلف وان الأمم بأسرهم مأمورون بإقامة ذلك الدين الوحيد ومنهيون عن التفرق والاختلاف إذ الأنبياء اخوة امهاتهم شتى ودينهم واحد . وكل لاحق منهم مصدق لسابقه حتى انتهى الأمر إلى افضلهم وخاتمهم

---

(١) سورة الشورى ، الآية (١٣) .

محمد ﷺ الذي كان مصدقاً لما بين يديه ومهيمناً أي شرفاً ومسيطراً على ما تقدمه .

واما اختلاف الشرائع والمناسك والمناهج الذي قال تعالى فيه : ﴿**لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً**﴾ فمآله ومرجعه إلى التخصيص لا النسخ يعني أن الشرائط الخاصة التي تعتري المجتمع الإنساني تستدعي حكماً فرعياً وقانوناً جزئياً يختص بتلك الشرائط وينقضي أمده بانقضائها وهذا ليس من باب النسخ أصلاً بحيث يدل على ظهور فساد ما كان سابقاً بل جميع ما ورد من الاختلافات الفرعية في الشرائع فانما يكون من باب التخصيص الزماني لا النسخ بمعنى ظهور نقص ما تقدم أو عيبه أو فساده ونحو ذلك لأنه تعالى حق ولا يقول إلا الحق حيث قال : ﴿**والله يقول الحق وهو يهدي السبيل**﴾[(١)] .

إلى هنا نجز الكلام في الأمر الأول الباحث عن الأصلين وهما كلية الإسلام ودوامه .

***

أما الثاني : الباحث عن كون الحج من حيث أنه من المباني الهامة للإسلام صالح لتبلور ذينك الأصلين فيه فبيانه فيما يلي من الجهات :

الجهة الأولى في أن الحج توحيد ممثل

إن العبادة أية عبادة كانت يعتبر فيها الخلوص ﴿**ألا لله الدين الخالص**﴾[(٢)] إلا أن تجلي ذاك الخلوص في بعضها أظهر وطرد الشرك في بعضها أقوى واجلى ومن ذلك الحج حيث أن التوحيد قد تمثل به وصار هو

---

(١) سورة الأحزاب ، الآية(٤) .

(٢) سورة الزمر ، الآية (٣) .

باسره من البدو إلى الختم مثالاً للتوحيد وطرداً للشرك وقد جعل ترك الحج كفراً حيث قال تعالى: **﴿ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غني عن العالمين﴾**[1] حيث يشعر بأن الحج نفسه إيمان وتوحيد وإن تركه كفر أي كفر عملي.

وعن مولانا الصادق عليه السلام في دعاء سفر الحج بعد كلمات الفرج . . . «بسم الله دخلت بسم الله خرجت وفي سبيل الله إلى أن قال: فإنما أنا عبدك وبك ولك»[2] والخبير المتضلع بلسان الدعاء يعرف الميز بين قوله فإنما أنا عبدك وبك ولك وبين غيره من الأدعية والأوراد إذ المهم هنا ذات الله تعالى ولقائه لا اسم من أسمائه الحسنى فالحج هو سير إلى الله وسلوك إلى لقائه وتعالى إلى قرب من هو دان في علوه وعال في دنوه وتكامل إلى جوار من هو اقرب إلينا من حبل الوريد ولا يتقرب العبد من مولاه إلا بالتوحيد الواصب الخالص وطرد الشرك الجلي والخفي.

«وعنه عليه السلام: حج موسى بن عمران ومعه سبعون نبياً من بني اسرائيل . . . يلبون وتجيبهم الجبال وتقول لبيك عبدك ابن عبدك.

وعنه عليه السلام في التلبية أن يقول: لبيك اللهم لبيك ـ لبيك لا شريك لك لبيك ان الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك لبيك ـ لبيك ذا المعارج لبيك ـ لبيك داعياً إلى دار السلام لبيك لبيك غفار الذنوب لبيك ـ لبيك أهل التلبية لبيك لبيك ذا الجلال والاكرام لبيك ـ لبيك تبدي والمعاد إليك لبيك ـ لبيك تستغني ويفتقر إليك لبيك ـ لبيك مرهوباً ومرغوباً إليك لبيك ـ لبيك إله الخلق لبيك ـ لبيك ذا النعماء والفضل الحسن الجميل

---

(١) سورة آل عمران، الآية (٩٧)

(٢) الوسائل، ج٨ ص٢٧٩.

لبيك ـ لبيك كشاف الكرب العظام لبيك ـ لبيك عبدك وابن عبديك لبيك ـ لبيك يا كريم لبيك ـ إلى أن قال عليه السلام تقول: ذلك في دبر كل صلاة مكتوبة ونافلة وحين ينهض بعيرك وإذا علوت شرفاً أو هبطت وادياً أو لقيت راكباً أو استيقظت من منامك وبالاسحار واكثر ما استطعت واجهر بها . . . واعلم أنه لا بد من التلبيات الأربع التي كن في أول الكلام وهي الفريضة وهي التوحيد وبها لبى المرسلون وأكثر من ذي المعارج فإن رسول الله ﷺ كان يكثر منها وأول من لبى ابراهيم عليه السلام الخ[1] .

وعن مولانا أبي جعفر عليه السلام أنه سئل لم سميت التلبية تلبية قال عليه السلام إجابة أجاب موسى ربه[2] وعن مولانا الصادق عليه السلام في أشعار البدنة الذي هو بمنزلة التلبية في بعض أقسام الحج أنه قال عليه السلام . . . «ثم قل بسم الله اللهم منك ولك اللهم تقبل مني الخ»[3] حيث أنه ناظر إلى ما تقدم من انما يرومه الحج هو لقاء الله وطرد غيره أي غير كان وفي دعاء الاحرام . . . «اللهم إني أسألك أن تجعلني ممن إستجاب لك وآمن بوعدك واتبع امرك فاني عبدك وفي قبضتك لا اوقى إلا ما وقيت ولا أخذ إلا ما اعطيت»[4] .

وحيث أن التلبية إجابة لله خالصة تخسف بالاخابث وتطرد كل شيطان مارد وخبيث كما قال الصادق عليه السلام : «هيهنا يخسف بالأخابث»[5] كما خسف بقارون وكنوزه وحيث أن الحج توحيد صراح لا شرك فيه بل يطرد فيه

---

(١) الوسائل ، ج٩ ص٥٣ .
(٢) الوسائل ، ج٩ ص٤٨ .
(٣) الوسائل ، ج٨ ص١٩٩ .
(٤) الوسائل ، ج٩ ص٢٣ .
(٥) الوسائل ، ج٩ ص٤٩ .

كل ما كان أو يكون صنماً أو وثناً يظهر سر استحباب دخول المسجد الحرام من باب بني شيبة وهو أنه لما علا علي عليه السلام ظهر رسول الله ورمى بـ(هبل) من ظهر الكعبة دفن عند باب بني شيبة فصار الدخول إلى المسجد من ذاك الباب سنة كما بينه مولانا الصادق عليه السلام[1] .

وهذا أي جعل هبل تحت الاقدام والمشي عليه مثال عال وتمثل غال لجعل الشرك نسياً منسياً وإماتته ميتة سوء حيث أن الحق إذا تجلى لا يبقى معه مجال للباطل السابق أو اللاحق: **﴿قل جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد﴾**[2] يعني أن الحق لا يأتلف مع الباطل فلا موقع له سواء كان عوداً للباطل السالف أو بدواً للباطل السانح فلا إعادة للباطل ولا ابتداء له مع الحق أصلاً وظهور التوحيد وتجليه البالغ في الإحرام وهو التجرد عن غير واحد مما هو زينة الحياة الدنيا لائح لا سترة فيه وتمثل الحشر والمعاد الذي هو العود إلى المبدء بالاحرام بين لا خفاء فيه وسيظهر بعض معالي التوحيد عند بيان سائر ما للحج من المناسك والسنن فارتقب .

والحاصل أن الحج توحيد ممثل والتوحيد هي الفطرة التي فطر الله الناس عليها لا تبديل لها فعليه يكون الحج من أهم مظاهر الاسلام ومجلي للاصلين المتقدمين أي الكلية والدوام ولذا تداولته الأمم والاقوام ولم تطاوله الأعوام والأيام طول الدهر .

ومما يرشدك إلى أن الحج توحيد ممثل هو أن من أركانه الهامة هو الطواف وهو عبادة خاصة يتجلى فيها قوله تعالى: **﴿فأينما تولوا فثم وجه الله﴾** . بخلاف الصلاة التي يتحتم فيها قوله تعالى: **﴿وحيث ما كنتم فولوا**

---

(١) الوسائل ج٩ ص٣٢٣ .

(٢) سورة سبأ، الآية(٤٩) .

وجوهكم شطره﴾ .

وبيان ذلك هو أن المعتبر في الصلاة المكتوبة استقبال الكعبة والتوجه إليها دون غيرها من الجهات وأما المعتبر في الحج هو السير حول الكعبة والطواف على محورها في أية جهة كانت من الجهات الاربع وإلى أية جهة منها فالحاج يرى ﴿فأينما تولوا فثم وجه الله﴾ والمصلي يرى ﴿فولِ وجهك شطر المسجد الحرام﴾ وكم بينهما من الميز . وكذا من الواجبات الهامة في الحج هو السعي بين الصفا والمروة وهو هرولة خاصة من الله وإلى الله وفرار منه إليه وهجرة منه إليه ولياذ منه إليه وعوذ به منه كما عن مولانا أبي جعفر محمد بن علي عليه السلام في تطبيق قوله تعالى: ﴿ففروا إلى الله اني لكم منه نذير مبين﴾ قال عليه السلام حجوا إلى الله عز وجل»[1] .

وهذا هو التوحيد القراح الذي لا يصحبه شيء عدا من هو الأول والأخر تدبر قول النبي صلى الله عليه وآله حيث قال بعد حمل جهازه على راحلته: هذه حجة لا رياء فيها ولا سمعة ثم قال صلى الله عليه وآله «من تجهز وفي جهازه علم حرام لم يقبل والله منه الحج»[2] وتأمل في قوله عليه السلام أن الحجر الأسود يمين الله في الأرض للميثاق ، حتى يتجه كون الحج مثالاً للتوحيد الجامع المتبلور في قوله تعالى: ﴿تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً﴾[3] .

الجهة الثانية في أن الحج وحي ممثل

قد لاح لك أن الحج توحيد ممثل بحيث لو تدلى التوحيد وتجلى في

---

(١) الوسائل ، ج٨ ص٥ .
(٢) الوسائل ج٨ ، ص١٠٣ .
(٣) سورة آل عمران ، الآية (٦٤) .

مراياه وتنزل في درجاته لصار حجاً ولو تعالى الحج وصعد إليه تعالى وترقى في معارجه لبلغ ذا العرش أو صار توحيداً أي عقيدة لا يشوبها شيء ويقيناً لا يعتريه ريب كما قال الصادق عليه السلام «حتى يلصق بالعرش ما بينه وبين الله حجاب»[1] والكلام الأن هو أن الحج باسره وحي ممثل وان مناسكه مما تجلت بالوحي وان رسول الله صلى الله عليه وآله رأها من جبرئيل وهو أي الملك الأمين الطائف حول العرش أرى إبراهيم عليه السلام مناسكه وان تلك الأعمال الخاصة لم تكن مفروضة على الناس بمجرد التعليم القولي نظير قوله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام﴾ بل تحققت خارجاً بالتمثل وتنزلت عيناً كذلك .

والشاهد على ذلك قوله تعالى: ﴿وأرنا مناسكنا﴾[2] حيث أن هذه الارائة ليست بمعنى التعليم المفهومي الحصولي حتى يدركه الذهن تصوراً وتصديقاً بل بمعنى الاشهاد والإرائة الخارجية كما في قوله تعالى: ﴿وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين﴾[3] .

ويؤيده قول مولا نا الصادق عليه السلام أمر الله عز وجل إبراهيم عليه السلام أن يحج باسماعيل معه ويسكنه الحرم فحجا . . . وما معهما إلا جبرئيل فلما بلغا الحرم قال له جبرئيل يا ابراهيم انزلا فاغتسلا قبل أن تدخلا الحرم فنزلا فاغتسلا واراهما كيف يتهيئان للاحرام ففعلا ثم أمرهما فاهلا بالحج وامرهما بالتلبيات الأربع التي لبى بها المرسلون ثم سار بهما إلى الصفا ونزلا وقام جبرئيل بينهما واستقبل البيت فكبر الله وكبرا وحمد الله وحمدا ومجد الله

---

(١) الوسائل ، ج٩ ص٤٢٢ .
(٢) سورة البقرة ، الآية (١٢٨) .
(٣) سورة الأنعام ، الآية (٧٥) .

ومجدا واثنى عليه وفعلا مثل ذلك وتقدم جبرئيل وتقدم يثنيان على الله عز وجل ويمجدانه حتى انتهى بهما إلى موضع الحجر فاستلم جبرئيل وامرهما أن يستلما وطاف بهما اسبوعاً ثم قام بهما في موضع مقام إبراهيم عليه السلام فصلى ركعتين وصليا ثم أراهما المناسك وما يعملان به[1] .

حيث أن ظاهره تمثل جبرئيل لهذين النبيين عليهما السلام وإراءتهما المناسك بالعينية الخارجية ولم يكن هذا بدعاً خاصاً بهما بل قد تقدمهما آدم عليه السلام وتمثل جبرئيل عليه السلام له أيضاً كما تمثل لافضل الأنبياء وخاتمهم صلى الله عليه وآله حيث يقول «مولانا الصادق عليه السلام إن الله بعث جبرئيل إلى آدم فقال . . . إن الله ارسلني إليك لأعلمك المناسك التي تطهر بها فاخذ بيده فانطلق به إلى مكان البيت وانزل عليه غمامة فاظلت مكان البيت وكانت الغمامة بحيال البيت المعمور» الخ[2] ويقول عليه السلام «كنت اطوف مع أبي وكان إذا انتهى إلى الحجر مسحه بيده وقبله وإذا انتهى إلى الركن اليماني التزمه فقلت جعلت فداك تمسح الحجر بيدك وتلتزم اليماني فقال قال رسول الله صلى الله عليه وآله ما اتيت الركن اليماني إلا وجدت جبرئيل عليه السلام قد سبقني إليه يلتزمه»[3] وستقف على الوحي المتمثل في مطاوي المباحث القادمة كالماضية وتعثر أيضاً على ما لم نأتها روماً للاختصار .

فإذا تبين أن الحج هو وحي ممثل وتلقاه مؤسس الكعبة بالمشاهدة والرؤية يلزم أن يكون الناس مأمورين بإتيان ما ورثوه منه وبالنظر إلى ما رآه لعلهم يرون شيئاً مما رآه ويشاهدون نزراً مما شاهده إذ النظر إلى ظاهر

(١) الوسائل ، ج٨ ص١٦٣ ـ ١٦٠ .
(٢) الوسائل ، ج٨ ص١٦٣ ـ ١٦٠ .
(٣) الوسائل ، ج٩ ص٤١٩ .

الكعبة المأمور به مقدمة لرؤية ملكوتها فحينئذٍ يتجه معنى قوله تعالى: **﴿وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق﴾**[1] .

إذ المستفاد من قوله تعالى **﴿يأتوك﴾** هو مجيئهم عند إبراهيم ولقائهم إياه ونيلهم ما ناله وشهودهم ما شاهده لا مجرد اتيان البيت وشد الرحال إلى مكة إذ التعبير القرآني ليس هو مجرد العمل بالمناسك بل التعبير هو قوله تعالى **﴿يأتوك﴾** تدبر - ولا يأتي إبراهيم إلا من تهيأ وتعبأ وأعد واستعد للقيام تجاه الطغاة اللئام الذين يقولون: **﴿حرقوه وانصروا آلهتكم﴾**[2] إذ الكعبة كما تقدم قيام للناس ولا قيام أن يقول القائم لعبدة الأوثان والأهواء **﴿اف لكم ولما تعبدون من دون الله﴾**[3] ولا قيام إلا أن يقول القائم للذين كفروا ومردوا على النفاق **﴿انني براء مما تعبدون﴾**[4] ولا يأتي إبراهيم إلا من يقول **﴿وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً﴾**[5] وبالجملة لا يأتيه **﴿إلا من أتى الله بقلب سليم﴾**[6] كما أتاه تعالى إبراهيم به .

ومن ذلك كله يتجلى قوله تعالى: **﴿واذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم﴾**[7] .

---

(١) سورة الحج ، الآية (٢٧) .
(٢) سورة الأنبياء ، الآية(٦٨) .
(٣) سورة الأنبياء ، الآية (٦٧) .
(٤) سورة الزخرف ، الآية (٢٦) .
(٥) سورة الأنعام ، الآية (٧٩) .
(٦) سورة الشعراء ، الآية (٨٩) .
(٧) سورة التوبة ، الآية (٣) .

وهذا هو خاتم النبيين الذي كان هو أولى بإبراهيم عليه السلام ورأى ما رآه ـ **﴿ما كذب الفؤاد ما رأى﴾** ـ وبصر بما بصر به إبراهيم ـ **﴿ما زاغ البصر وما طغى﴾** ـ وتولى ما تولاه إبراهيم ـ **﴿إن وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين﴾** ـ وتبرأ مما تبرأ منه ابراهيم ـ **﴿أن الله بريء من المشركين ورسوله﴾** ـ وحيث أنه صلى الله عليه وآله وسلم **﴿دنا فتدلى * فكان قاب قوسين أو ادنى﴾** ذبح بما لم يذبح به إبراهيم عليه السلام حيث ذبح من هو من رسول الله ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منه وهو الحسين بن علي عليه السلام المذبوح على القفا صوناً للكعبة عن الطغاة اللئام وإيثاراً لمصارع الكرام على طاعة اللئام .

والسر في ذلك كله هو أن «رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال أنا من حسين وحسين مني ثم قال الحسين عليه السلام أيها الناس اني سمعت رسول الله يقول من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله ناكثاً لعهده يعمل في عباده بالظلم ولم يغير عليه بقول ولا فعل حق على الله أن يدخله مدخله أي معه في النار» فالحسين الذي كان من رسول الله ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منه قد فدا نفسه وضحى بأهل بيته واصحابه صوناً للدين الإلهي عن الزيغ والتحريف وحفظاً لعهده من النكث ولخلقه من الظلم .

ومن ذلك كله يظهر لك البعد السياسي للحج حيث أن التبرء من المشركين والحياد عنهم والانزجار منهم وقطع أيديهم والاعلان الصريح بذلك هو منسك سياسي للحج كما يهتف به قوله تعالى المتقدم . **﴿واذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الاكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله﴾**[1] ويمكن أن نشير إليه اجمالاً حيث يحين حينه .

---

(١) سورة التوبة ، الآية (٣) .

فتحصل أن الحج بما له من السنن الخاصة التي تمثلت للانبياء هو بنفسه وحي ممثل فهو من أهم مظاهر الاسلام وصالح لتحقق الاصلين المارين من الكلية والدوام ولذا جرى لخاتم الأنبياء ما جرى لابراهيم عليه السلام وقبله لأدم عليه السلام فليس الحج شرعة خاصة ومنسكاً مخصوصاً يختص بشعب دون شعب أو عصر دون عصر بل هو كلي دائم حسبما قرر في بيان كون الكعبة أول بيت للناس وقياماً للناس ومثابة وأمناً للناس وكون الحج مفروضاً على الناس وأذان ابراهيم عليه السلام متجهاً نحو الناس وكون المسجد الحرام سواء العاكف فيه والباد وكون الحج معياراً لحساب السنين والأعوام حيث كانوا يرقمونها به كما يشهد له قوله تعالى: ﴿**على أن تأجرني ثماني حجج**﴾[1] حيث جعل الحج معياراً لعد السنين فعبر عن ثماني سنين بثماني حجج لأن في كل سنة حجاً واحداً واشتهارها به يوجب عدها به وجعله ميزاناً لها .

وبعد الاحاطة بما ذكر والعثور على ما درج بين الاقوام والملل كهند وفارس وكلدان واليهود من تكريم الكعبة والسفر إليها وزيارتها بنحو من الأنحاء وبعد التنبه لما في التعبير عن مكة به (بكة) الدال على الزحام والتراكم والمجتمع العام يتجه معنى قوله تعالى: ﴿**إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين**﴾[2] حيث جعل ذلك امراً عالمياً يشمل جميع الشعوب والاقطار والامصار والاعصار .

فمعه يتضح الاصلان المتقدمان أي الكلية والدوام وضوح الرائعة وصلوح الحج لأن يتبلور به ذانك الاصلان وإلا لم يكن هدى للعالمين بل

---

(١) سورة القصص ، الآية (٢٧) .

(٢) سورة آل عمران ، الآية (٩٦) .

كان منهاجاً لقوم خاص وهذا خلف ويشهد له قول علي عليه السلام «ألا ترون الله سبحانه اختبر الأولين من لدن آدم إلى الآخرين من هذا العالم باحجار لا تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع فجعلها بيته الحرام الذي جعله للناس قياماً»[1] .

الجهة الثالثة في أن الحج معاد ممثل

قد تبين مما تقدم من الجهتين أن الحج توحيد ممثل وكذا هو وحي ممثل والكلام هنا هو أن الحج معاد ممثل وإن مناسكه انموذج للقيامة والحشر الأكبر .

وبيانه بانه كما أن الأولين والاخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم وانهم يأتون الله فرادى كما خلقوا أول مرة وأن كل أناس يدعون بامامهم وأن لكل امرء يومئذ شأناً يغنيه وأنه لا ولي هناك ولا حميم وانهم من الاجداث إلى ربهم ينسلون وانه لا وزر هناك لاحد وإلى ربهم المستقر وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى وان كلهم آتيه يوم القيامة فرداً ويفر المرء من أخيه وأُمه وأبيه وصاحبته وبنيه ولا خلة ولا بيع ولا شفاعة هناك وبالجملة لا تجزي نفس نفساً ولا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذٍ لله .

كذلك الحج تمثل لحشر الناس يوم القيامة في الساهرة التي لا نوم فيها خوفاً وفزعاً ولتجردهم في المعاد عن الازياء ومظاهر الحياة الدنيا فلا مجال لشعب أن يقولوا نحن احسن أثاثاً ورئياً ولتنزههم عن زهرة الدنيا وكنوزها فلا موقع لأن يقول قوم يا ليت لنا مثل ما أوتي فلان كما لا مجال لاحد أن يخرج

---

(١) نهج البلاغة خطبة قاصعة ١٩٢ .

في قوم بزينة ولفرارهم عن غير الله إلى الله حسبما فسر قوله تعالى **﴿ففروا إلى الله﴾** بالحج ولتفردهم عن الجمع وكذا رؤيتهم آيات بينات كانت خفيت عليهم وهم في بلدانهم وللبسهم ما يشبه الكفن وهو ثوبا الإحرام ويستحب للحاج أن يكفن فيهما كما كفن رسول الله ﷺ في ثوبي احرامه[(١)] ولتذللهم لله مشاة بل حفاة حيث ورد «ما عبد الله بشيء أفضل من المشي»[(٢)] ولذا حج الحسن بن علي عليه السلام عشرين حجة ماشياً على قدميه[(٣)] وعن الصادق عليه السلام «جعل السعي بين الصفا والمروة مذلة للجبارين»[(٤)] وعن مولانا الصادق في قوله تعالى **﴿ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود﴾** قال عليه السلام «المشهود يوم عرفة والمجموع له الناس يوم القيامة»[(٥)] ولاعترافهم بالذنوب حيث كشف مولانا الصادق عليه السلام وهو محرم عن ظهره حتى ابداه للشمس وهو يقول لبيك[(٦)] وكان عليه السلام إذا انتهى إلى الملتزم قال لمواليه أميطوا عني حتى اقر لربي بذنوبي في هذا المكان[(٧)] إلخ ولأمنهم وأمان الوحش والطير ولصيانتهم عن العدوان والجدال وكل ما يوجب الأذى المحرم حيث أنه تمثل قوله تعالى: **﴿لا ظلم اليوم﴾** .

والحاصل أن الحج بما له من المناسك الخاصة التي لا توجد في غيره من الاحرام والوقوف بساهرة العرفات والمشعر مشفوعاً بالضراعة والابتهال والبيوتة بمنى والتضحية هناك والحلق ورمي الجمار والنفر إلى مكة والهرولة

---

(١) الوسائل ، ج٩ ص٣٧ .
(٢) الوسائل ، ج٨ ص٥٥ .
(٣) الوسائل ، ج٨ ص٥٥ .
(٤) الوسائل ، ج٩ ص٥٥ .
(٥) الوسائل ، ج١٠ ص٢٣ .
(٦) الوسائل ، ج٩ ص٥٥ .
(٧) الوسائل ، ج٩ ص٤٢٤ .

بين جبلي الصفا والمروة وغير ذلك مما لا يعلم تأويله إلا الله يحكي يوم النشور ويمثل يوم الحشر حيث أن الناس هناك مع اختلاف السنتهم والوانهم يلبون نداء واحداً ويجيبون هتافاً فارداً لا يحكم عليهم إلا الواحد القهار الذي تخضع له الرقاب وتعنو له الوجوه وتخشع له الاصوات فلا تسمع إلا همسا .

فإذا تبين أن الحج ممثل للمعاد ومصور إياه والمعاد أي العود إلى المبدأ أس الاسلام الكلي الدائم فعليه يكون الحج من أهم مظاهر الاسلام وهو أي حج البيت الحرام مظهر تام للاصلين المتقدمين أي الكلية والدوام ولذا ترى الأنام يردونه ورود الانعام ويألهون إليه ولوه الحمام ويقفون مواقف الانبياء ويتشبهون بالملائكة الحافين المطيفين بالعرش ويحرزون الارباح في متجر العبادة ويتبادرون موعد المغفرة وهو كما قال وليد الكعبة أمير الكلام مولى الموحدين علي بن أبي طالب عليه السلام : «علم للاسلام وحرم للعائدين فالبيت الحرام بما له من الحكم الخاص علم للاسلام فرض الله حقه واوجب حجه وكتب على الناس وفادته»[1] فقال سبحانه : **﴿ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غني عن العالمين﴾** .

الجهة الرابعة في أن الحج ممثل للحكومة العليا الاسلامية

قد تبين لك أن الحج ممثل لاصول الدين الاصيلة وجذوره العريقة وحيث أن الأصل الثابت يؤتي أكله كل حين بإذن ربه ولا أصل حيث لا ثمر كما لا ثمر بدونه وان الحج ممثل لثمرة هذه الشجرة الطيبة أي العقائد والمعارف الثلاثة من التوحيد والنبوة والمعاد وإن من اطيب ثمارها هو الحكومة الاسلامية التي لا يتخذ فيها بعضنا بعضاً أرباباً فيلزم البحث حول

---

(١) نهج البلاغة خطبة(١) .

هذا الأمر الهام الذي لولاه لاندرس الدين وزال الحق وضاع إذ لو اتبع الحق اهوائهم لفسدت السموات والأرض حيث أن المجتمع الذي لا يحكم فيه الله هو مجتمع الكفر والطغيان الذي إلهه هواه والأهواء مختلفة والاماني شتى فأين يذهبون وأين يتاه بهم واضلهم الله على علم ولهذا شواهد .

الشاهد الأول: على أن الحج ممثل للحكومة الاسلامية هو أن إبراهيم لما رفع مع ابنه اسماعيل قواعد البيت دعا ربه بأدعية راقية اجابها الله تعالى ومنها قوله: ﴿**ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم**﴾[1] حيث أن الأمة المسلمة إذا دعوا من اقطار العالم في جميع الاعصار إلى حج البيت واجابوا ربهم واتوه على كل ضامر ومن كل فج عميق فلا بد لهم ممن ينظم أمورهم وينضدها ولا بد لهم أيضاً من اصول واحكام يجرون في امورهم السياسية عليها عدا ما لهم من المناسك العبادية فكيف يمكن أن يجتموا في صعيد واحد ولكل منهم آداب وسنن بل كيف يمكن نظم امورهم لولا الاصل المقبول لهم جميعاً ولولا الشخص الذي يسلمه الكل السائر فيهم جميعاً بسنة واحدة يتلقونها بالقبول ويسوسهم بقانون فارد يخضعون لديه وهذه هي الحكومة .

ومن هنا ترى نصوص باب الحج تنادي بأن لهؤلاء الذين اجابوا ربهم إماماً واحداً يطيعونه ويسلمون له وحاشا الاسلام الذي يقول «إذا كنتم ثلاثة في سفر فأمروا احدكم» يتركهم سدى ولا يعين الآمر الحاكم على هؤلاء الجم الغفير الذين يسيحون اقطار الارض وآفاق السماء ويطأون البلاد ويطأون البراري والصحاري ويسبحون البحار ويطيرون في السماء وبالجملة

---

(١) سورة البقرة ، الآية (١٢٩) .

﴿وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق﴾ ويدع هؤلاء واهوائهم وامانيهم - كل يجر النار إلى قرصه - فأين قول علي عليه السلام ونظم امركم .

والحج له خصيصة لا توجد في غيره لأن الجماعة الصغيرة المتحققة بالاثنين في الصلوات اليومية - الاثنان وما فوقهما جماعة - يتكامل بالجماعة الوسطى التي لا تتحقق إلا بالسبع أو الخمس في صلاة الجمعة التي إذا نودي من يوم الجمعة يسعون إلى ذكر الله ويذرون البيع ويجيبون ندائها على بعد ستة أميال ولا يقيمون جمعة اخرى على مسافة ثلاثة أميال ثم يتكامل ذلك بالجماعة الكبرى التي لا حد لها في الحج فهل يمكن أن لا يكون لذلك سياسة خاصة تسوسهم في معاملاتهم وتضارب آرائهم وفصل خصوماتهم وكيفية معيشتهم والرابطة التي بينهم بعضاً إلى بعض والارتباط المتصور بينهم وبين غيرهم من الملل الاخرى .

والشاهد الثاني: على أن الحج ممثل للحكومة الاسلامية وان لها تأثيراً في بقائه وتكرره هو ما قاله مولانا الصادق عليه السلام «لو عطل الناس الحج لوجب على الإمام أن يجبرهم على الحج إن شاؤوا وإن أبوا فإن هذا البيت وضع للحج وكذا قال عليه السلام ولو تركوا زيارة النبي صلى الله عليه وآله لكان على الوالي أن يجبرهم على ذلك وعلى المقام عنده فإن لم يكن لهم اموال انفق عليهم من بيت مال المسلمين»(١) .

والسر في قوله عليه السلام إن هذا البيت إنما وضع للحج هو ما تبين في ثنايا البحوث المارة من أنه بيت عتيق يدرس الحرية والانعتاق من كل هوى وردى داخلي أو خارجي وانه بيت أُسس على التوحيد يدرس نفي الشرك

---

(١) الوسائل ج٨ ص١٦ و١٥ .

الجلي والخفي وانه بيت طاهر يدرس الطهارة عن كل رجس وقذارة وانه بيت سواء العاكف فيه والباد فيدرس المساواة بين الأبيض والأسود ويعلمهم انهم سواسية كأسنان المشط وما له من سائر المآثر القيمة التي توجب على الناس شد الرحال إليه وإن تركوه قصوراً أو تقصيراً يجب على والي المسلمين أن يسد خلقهم إن قصروا وأن يجبرهم إن قصروا حتى يأتوه ويطوفوا حوله ولا يتركوه وهذه هي الحكومة الاسلامية التي لها حاكم عادل وبيده بيت مال المسلمين .

أضف إلى ذلك قوله عليه السلام ولو تركوا زيارة النبي صلى الله عليه وآله الخ حيث يظهر منه أن زيارته صلى الله عليه وآله تجديد ميثاق ومبايعة لتحكيم الحكومة الاسلامية .

والشاهد الثالث: على أن الحج ممثل للحكومة الاسلامية ما قاله مولانا محمد بن علي الباقر عليه السلام إنما أمر الناس أن يأتوا هذه الأحجار فيطوفوا بها ثم يأتونا فيخبرونا بولايتهم ويعرضوا علينا نصرهم[١] حيث يدل على أن الحج عبارة عن الطواف والسعي والرمي ونحو ذلك مما له مساس بالاحجار التي لا تضر من تركها ولا تنفع من اتاها وعبارة عن لقاء الإمام (تمام الحج لقاء الإمام) واتيانه واعلامه الولاية وعرض النصر والاطاعة الذي هو لب الحج ومغزى العمرة ولباب الكعبة فلولا الحكومة والولاية بمعنى السياسة لما احتيج إلى اخبار الولاية وعرض النصرة .

وإياك وان تتوهم أن المراد من الزيارة المندوب إليها في الحج هو زيارة القبور فقط وإن كانت تلك أيضاً من حقوق الولاية لأن المعصوم حياته

---

(١) الوسائل ج١٠ ، ص٢٥٢ .

ومماته سواء إذا كان موته كحياته لله حيث قال: **﴿إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين﴾** بل المراد منها أولاً هو لقاء الوالي الإسلامي واعلامه الولاية وعرض النصرة عليه وثانياً هو الحضور عند قبره والصلاة عليه والدعاء والابتهال والضراعة إلى الله تعالى ولذا قال عليه السلام: ابدأوا بمكة واختموا بنا[1].

ومن هنا يظهر سر قوله تعالى **﴿لا أقسم بهذا البلد * وأنت حل بهذا البلد﴾**[2] حيث يستفاد منه أن البلد الأمين لا حرمة له لولا محمد الأمين صلى الله عليه وآله وان الاقسام بمكة إنما هو بحلول رسول الله في ذاك المحل وانه لولاه لما صارت مقسماً بها كما أن الحلف بالزمان الخاص وهو عصر الرسالة في قوله تعالى: **﴿والعصر * إن الإنسان لفي خسر﴾** إنما هو بلحاظ المتزمن المخصوص وهو النبي المبعوث يعني أن حرمة ذاك المكان وهذا الزمان بحرمة المتمكن والمتزمن أي الحاكم على أمور المسلمين بإذن الله.

فتبين أن مغزى الحج وروحه لقاء الوالي وعرض النصرة عليه والقيام معه والرغبة إليه والرهبة عن مخالفته ونحو ذلك ولولا الوالي الإسلامي الحاكم الإلهي لعادت مكة إلى مآلها من سوق عكاظ وصارت الكعبة مأوى للاصنام ومحلاً للاوثان ولعلى هبل على ظهر الكعبة وليباع مقاليدها ببعير وزق من خمر كما مر ـ تدبر.

والشاهد الرابع: على أن الحج ممثل للحكومة الاسلامية هو أن الاسلام الذي بعثت به الأنبياء إنما يتجلى في التوحيد المحض الذي يطرد بنفسه أي شرك حيث قال تعالى **﴿ولقد بعثنا في كل امة رسولاً أن اعبدوا الله**

---

(١) الوسائل، ج١٠، ص٢٦٠.

(٢) سورة البلد، الآيتين (١ ـ ٢).

واجتنبوا الطاغوت﴾[1] ومعنى اجتناب الطاغوت هو جعله في جانب وحيز على حدة ثم الاستقرار في جانب وحيز آخر منفك عنه حتى يصدق الاجتناب ويصدق كونه منحازاً وأما عند الالتقاط والاختلاط فلا مجال لصدق الاجتناب .

وليس مفاد هذه الكريمة إثبات امرين بالاستقلال احدهما لزوم عبادة الله وثانيها طرد الطاغوت بل مفادها التنبه بما فطر الناس عليه وهو التوحيد وعبادة الله التي يطرد بنفسه الطغيان ويدفعه كما أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر في العبادة الفرعية كذلك التوحيد ينفي الطاغوت في العبادة الاصلية ومن هنا يقال أن لفظة (الا) في الكلمة الطيبة اعني لا إله إلا الله بمعنى غير لا بمعنى الاستثناء يعني أن مفادها هو نفي الألهة التي تكون غير الله الذي يخضع له الرقاب ويسجد له من في السموات والأرض .

وهذا الطرد والنفي ليس مجرد الاعتقاد القلبي أو الذكر القالبي بل هو اعلام انزجار ونداء تبرء وهتاف براءة وصيحة خاطفة تجاه الطغاة اللئام في البعد السياسي وغيره وهذا المعنى إنما يتحقق في الحج حيث أنه موضع اعلام وأذان بأن الإسلام بريء من الشرك وأن المسلمين يتبرأون من المشركين وأن لا ولاية بين أهل الإسلام وأهل الشرك كما يدل عليه قوله تعالى **﴿وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله﴾**[2] إذ مفاد هذه الآية كما تقدم سابقاً هو تبلور البعد السياسي في الحج وتجلي الاستقلال الثقافي فيه بحيث لا سيطرة لأحد من الكفار

(١) سورة النحل ، الآية (٣٦) .
(٢) سورة التوبة ، الآية (٣) .

والمشركين على أحد من المسلمين وهذا الهتاف البارق إنما يتحقق في الساهرة التي أتاها الناس من كل فج عميق ليبلغ الشاهد منهم الغائب فينتشر في العالم نشر رائحة المسك .

فهل هذا إلا تمثل الحكومة الإسلامية باعلى مراتبها في الحج وهل يمكن طرد صناديد الالحاد وتحطيم صياصيهم إلا في ضوء الحكومة الإسلامية فلولا حضور السياسة الإسلامية في ساهرة العرفات والمنى اللذين فسر بهما ـ الحج الأكبر ـ لما امكن اعلام التبري من عمال الجور وعبدة الطاغوت ولولا ولاية المؤمنين بعضهم مع بعضهم ومبايعتهم لمن هو وليهم المنصوب من الله أو المأذون من قبل أولياء الله وصيرورتهم يداً واحدة على من سواهم لما ينشر اعلان العداوة والبغضاء تجاه هؤلاء الجبابرة الذين أهمتهم انفسهم ويأكلون ويتمتعون ويلههم الأمل ولولا الاقتدار المتشكل السائس لما امكن دفع هؤلاء الأكاسرة والقياصرة ولولا دفعهم لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله فلولا الحج لاندرست تلك المراكز العبادية رأساً ولولا تلك المراكز العبادية لفسدت الأرض ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض .

والحاصل أن التجلي التام في تلبية النداء الإلهي إنما هو في الحج الأكبر وهو أيام العرفة والتشريق والبرنامج البالغ حينذاك هو اعلام التبري والبغضاء قبال الكفار والمشركين وهذا لا ينتشر بدون الحكومة الإسلامية التي يمثلها الحج أتم تمثل ويقررها الكعبة البيت الحرام التي جعلها الله قياماً للناس أتم تقرير ومن الواضح أن الناس الذين لا حكومة لهم يكونون في امر مريج فأين لهم أن يقوموا بالقسط قبال القاسطين وان يقوموا بالعدل قبال الظالمين وان يقاتلوا في سبيل الله صفاً كأنهم بنيان مرصوص .

وبالجملة أن القيام الشعبي والمقاومة العالمية والاستقامة الشاملة التي بنيت الكعبة البيت الحرام لأجلها لما ينتشر بدون الحكومة الاسلامية التي هي من أهم مظاهر الاسلام فنجز الوعد بحمده تعالى وتبين أنه كيف يكون الحج من أهم مظاهره فإذا لم يكن هناك حكومة اسلامية لما كان للحج لب[1] وللعمرة روح وللعرفات معرفة وللمنى تقرب ولرمي الجمار طرد للشيطان ولأيام التشريق نور وللشهر الحرام حرمة ولليال عشر كرامة وللشفع والوتر عزة وبالجملة لما كان البيت الحرام مثابة للناس وأمناً لهم .

ولعله لذلك كله ولما لا يعلم من الأسرار الإلهية لم يحج مولانا سيد الشهداء الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام ولم يقصد التمتع بالعمرة إلى الحج بادىء الأمر ولم يلب تلبية العمرة العمرة المتمتع بها بل اعتمر عمرة مفردة فقط وذلك لحرمة البيت وكان من قصده عليه السلام الخروج من مكة لا أنه عليه السلام قد لبى بعمرة التمتع واشتبك حجه بعمرته وصار رهيناً بالحج إلا أنه صار مصدوداً مثلاً ثم بدل حجة التمتع بالعمرة المفردة بس كان اعتماره بادىء الأمر بالعمرة المفردة حسب ما دل عليه النص حيث أنه سئل مولانا الصادق عليه السلام عن رجل خرج في اشهر الحج معتمراً ثم خرج إلى بلاده قال عليه السلام لا بأس وإن حج من عامه ذلك وافرد الحج فليس عليه دم وان الحسين بن علي عليه السلام خرج يوم التروية إلى العراق وكان معتمراً[2] وتنبه له سيدنا الاستاذ فقيه أهل البيت آية الله العظمى السيد المحقق الداماد قدس الله نفسه الزكية وافاده في الدرس ويؤيد ذلك ما قاله سيد الشهداء في دعاء العرفة مما يرجع إلى الحكومة .

---

(١) وافي كتاب الحج باب النوادر .

(٢) كتاب الحج للمؤلف ج١ ص٢٣٣ والوسائل ج١٠ ص٢٤٦ .

ومن أراد أن يتضح له اتضاحاً رائعاً أنه كيف يكون الحج ممثلاً للحكومة فلينظر ماذا فعله رسول الله في حجة الوداع وما قاله للناس وقرره لهم من مهام الأمور السياسية وغيرها فارتقب .

الجهة الخامسة في أن الحج ممثل للخلق العظيم

قد تبين أن الحج توحيد ممثل وكذا أنه وحي ممثل وانه معاد ممثل واتضح أيضاً أنه ممثل للحكومة الإسلامية والكلام الآن فيما هو الغرض الأسنى والهدف السامي من العبادة وهو اليقين الذي يمثله الحج ويحصله أتم تحصل ، واليقين هو الخلق العظيم الذي تخلق به رسول الله ﷺ حيث وصفه الله بقوله . . . ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾[1] كما تخلق به أيضاً مؤسس الكعبة إبراهيم الذي نعته الله بقوله: ﴿وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين﴾[2] .

وبيان ذلك هو أنّ العبادة وإن كانت غاية الخلقة بالمعنى المتقدم في المقدمة إلا أنها بنفسها مقدمة لليقين ومغياة به حيث قال تعالى: ﴿واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾ والمراد من الغاية هنا هو الهدف السامي والمنفعة المطلوبة لا الحد والنهاية لأن تلك غاية الحركة لا ما هو الاجل منها واليقين المستفاد من العبادة يصير بعينه مبدء لها بلا عطلة وغفلة اصلاً .

وكم فرق بين العبادة الصاعدة إلى اليقين والعبادة الصادرة من اليقين الذي يتحد فيه غاية العقل النظري وغاية العقل العملي فيصير الشهود هناك بعينه قدرة والعلم بنفسه عملاً والمعرفة بذاتها مصدراً ولا يتخلف عنه شيء

---

(١) سورة القلم ، الآية(٤) .

(٢) سورة الأنعام ، الآية (٧٥) .

من عمل صالح ولا يشذ منه شيء من أدب حسن فيصير هو أي اليقين حينئذ بنفسه خلقاً عظيماً إذ لا ميز هناك بين الشهود والعمل إذ الخلق العظيم لا يتحقق بدون الشهود كما أن العمل الصالح والأدب الطيب لا ينفك عن الشهود بل الشاهد هو بنفسه من الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادة ولا يستحسرون ، فالشاهد المتيقن هو العابد فهو المتخلق بخلق عظيم لا يعبد الله خوفاً من ناره ولا شوقاً إلى جنته بل حباً له تعالى وهذا هو المقام المكنون الذي لا يمسه إلا المطهرون .

فإذا تحصل أن العبادة تورث اليقين وأن الحج عبادة خاصة يلزم البحث عن كيفية كونه مورثاً لليقين الذي هو الخلق العظيم الذي يتحد هناك الخلق والمتخلق فيصير هو أيضاً كما ورد عن الصادق عليه السلام «أنه من تعلم العلم وعمل به وعلمه لله دعى في ملكوت السموات عظيماً» يعني أن العالم العامل المعلم إذا كان جميع هذه الشؤون التي اتصف بها الله يدعى في باطن السموات عظيماً وكم فرق بين من هو عظيم ومن له فوز عظيم واجر عظيم وفضل عظيم وكم فرق بين من هو مندوب إلى قوله تعالى ﴿والله خير وابقى﴾ ومن هو مندوب إلى قوله تعالى ﴿وما عند الله خير وابقى﴾ وكم فرق بين من هو صالح وبين من عمله صالح إذ الصالح هو الذي يتولاه الله الذي هو يتولى الصالحين وأما الذي يعمل صالحاً فهو بعد ممن يتولى الله وكم فرق بين من هو خالص ويستخلصه الله لنفسه فهو من المخلصين ـ بالفتح ـ ومن عمله خالص وهو من المخلصين ـ بالكسر .

والحج عبادة خاصة تورث الخلق العظيم بما له من الاسرار والرموز القريبة نشير إلى نبذ منها فيما يلي :

أحدها : أن الحج بما له من التكرمة الخاصة ليس تكليفاً عبادياً يؤمر به

كالصلاة والزكاة بل هو ميثاق وعهد الهي يتشرف به ولذا ليس التعبير عن لزوم الحج بسياق الخطاب الأمري حسبما ورد في الصلاة والزكاة نحو اقيموا الصلاة وآتوا الزكاة بل التعبير عن لزومه إنما هو بلسان الميثاق الخاص والعهد المخصوص الإلهي حيث قال **﴿ولله على الناس حج البيت﴾** ومثل هذا العهد باخذ كلمة اللام واسم الجلالة وتقديمه على المتعلق لم يعهد في غيره من العبادات .

وان ورد في بعض الروايات أن الصوم لي ولكن الحج أيضاً واجد للصوم حيث أنه من لم يجد الهدي يصوم ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجع إلى بلده كما أن جميع ما ورد في الصلاة يتحقق في الحج أيضاً لأن فيه طوافاً هو بنفسه صلاة وفيه أيضاً صلاة لأن الطائف يتخذ من مقام إبراهيم مصلاً يصلي فيه ويناجي هناك ربه وبه يقيم عمود دينه ويتقرب بذلك من مولاه فينال جميع المزايا التي للصلاة وهكذا ينال البركات التي للزكاة حيث أن في الحج انفاقاً مالياً ونثاراً وإيثاراً مزيلا للشح الذي احضرت الانفس الشح ووقاية لها عن التلوث بذاك الشح والبخل **﴿ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون﴾** .

والحاصل أن الحج مؤلف من العبادات الخاصة وشامل لفضائلها الجمة[1] مع ما له من الميز الخاص الذي لا يوجد في غيره وهو أنه عهد خاص بين الله تعالى والعبد ولذا قال الصادق عليه السلام «ودَّ من في القبور لو أن له حجة بالدنيا وما فيها»[2] .

ثانيها: ان الحج بما له من التلبية الخاصة اخفاتاً وجهراً طارد لأية

---

(١) الوسائل ، ج٨ ص٧٨ و٨١ و٨٢ .
(٢) الوسائل ، ج٨ ص٧٨ و٨١ و٨٢ .

جاهلية كانت أو تكون وكاسر لأي صنم جاهلي نحت ولأي وثن جاهلي ينحت ودافع لأي باطل بدأ أو عاد فإذا هو زاهق وشاف لما في الصدور من داء الريا والهوى المتبع والشح المطاع واعجاب المرء بنفسه .

وذلك أن تلبية الحج في الجاهلية كانت نداء للشرك وهتافاً للوثنية حيث كانوا يلبون لبيك لا شريك لك إلا هو لك تملكه وما ملك ، ويثبتون بذلك لله سبحانه وتعالى شريكاً وإن كان ذلك الشريك أيضاً له .

وأما التلبية في الإسلام فيكون ضراعة إلى الواحد المحض وصيحة خاطفة على أي شريك جلي أو خفي فمعه لا يبقى لغيره تعالى ظهور حتى يلتجيء إليه ولا قدرة له حتى يعتصم بها بل هنالك الولاية المطلقة لله الحق ويتضح بذلك اتضاحاً رائعاً لمن يشاهد الجهر بهذه التلبية في البيداء والصياح بها في الساهرة والتداوم عليها كلما علا تلعة أو هبط وادياً .

ويشهد له ما يستفاد من نصوص أهل البيت ان من استن بسنة جاهلية أو تلوث بقذارة المال الحرام ثم لبى ، نودي عند التلبية لا لبيك ولا سعديك[1] .

ولذا قال مولانا الكاظم عليه السلام «إنا أهل بيت حج صرورتنا ومهور نسائنا واكفاننا من طهور اموالنا»[2] وما ذلك إلا أن تلبية الحج تلبية لبى بها المرسلون في الأرض حذاء ما يسبحون به في الطواف حول العرش حسبما تقدم مبسوطاً .

ومما يشير إلى ما ذكر من كون الحج صيحة على الجاهلية هو ما يعثر

---

(١) الوسائل ، ج٨ ص١٠٢ .
(٢) الوسائل ، ج٩ ص٤٧ و٤٨ و٥٥ .

عليه المتتبع في نصوص هذا العهد الإلهي من نقل ما ورد من تلبية إبراهيم الخليل وموسى الكليم وخاتم النبيين عليهم أفضل صلوات المصلين اكثر واوفر[1] مما ورد في غير هؤلاء الأطيبين من الأنبياء والمرسلين الذين لا نفرق بين أحد منهم ولكن الله فضل بعضهم على بعض سيما في طرد الطغاة ودحض اللئام ودفع الجاهلية الجهلاء الداخلية أو الخارجية إذ الخليل عليه السلام طرد الطغاة بقوله ﴿**أف لكم ولما تعبدون**﴾ والكليم عليه السلام أدحض اللئام بقوله ﴿**يا فرعون اني رسول من رب العالمين**﴾[2] وخاتم النبيين صلى الله عليه وآله وسلم دفع الجاهلية بقوله ﴿**أفحكم الجاهلية يبغون ومن احسن من الله حكماً لقوم يوقنون**﴾[3] .

ثالثها: ان الحج بما له من التضحية الخاصة موجب للتقرب المخصوص الذي قلما يوجد في غيره وذلك أن النحر أو الذبح الذي كان في الجهلية لم يكن خالصاً عن رجس الشرك بل كان متلطخاً به كالتلبية والصلاة حيث أنهم كانوا يلبون بقولهم: لا شريك لك إلا شريك هو لك ـ ﴿**وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية**﴾ حسبما تقدم وكان دأبهم بعد النحر أو الذبح تلطيخ الكعبة بدم الهدى المذبوح وتعليق شيء من لحمه عليها حتى يتقبله الله .

وأما الإسلام فقد جعل الهدى ذا حرمة خاصة لا يصح احلاله حيث قال ﴿**لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدي ولا القلائد**﴾[4] ثم قال في طرد تلك السنة السيئة وبيان ما للهدى من القرب ـ ولعله لذا اشتهرت

---

(١) الوسائل ، ج٩ ص٤٧ و٤٨ و٥٥ .
(٢) سورة الأعراف ، الآية (١٠٤) .
(٣) سورة المائدة ، الآية (٥٠) .
(٤) سورة المائدة ، الآية (٢) .

الاضحية بالقربان ـ ﴿لن ينال الله لحومها ولا دماؤُها ولكن يناله التقوى منكم﴾[1] حيث نزه الكعبة عن ذاك التلطيخ والتعليق كما نزه الله عن الفاقة إلى اللحوم والدماء دفعاً لمن يقول بعدم لزوم النحر أو الذبح لأن الله غني عن العالمين فلم يلزم على الحاج أن يذبح حيواناً فأفاد بأن أصل الهدي لازم وان الله غني عنه وان الذي يناله تعالى ليس هو اللحم أو الدم بل الذي يناله هو روح العمل ولب الفعل وهو التقوى ومدار الكلام الأن هو في خصوص هذا التعبير حيث قال تعالى: ﴿ولكن يناله التقوى منكم﴾ .

والذي ينبغي التنبه له هو أنه قد يقال بأن هذا العمل الصالح مثلاً مما يتقبله الله وقد يقال أنه يصعد إليه الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه وقد يقال كما في المقام يناله التقوى منكم ولا خفاء على الخبير المتدرب ان هذه التعبيرات ليست سواء ولا تكون على وزان واحد لأن لفظ القبول يفيد امراً ولفظ الصعود إليه تعالى يفيد امراً آخر فوقه ولفظ النيل يفيد امراً فائقاً لا يصعد إليه شيء من ذينك التعبيرين .

وكم فرق بين الصعود إلى الله وبين نيله تعالى إذ الثاني يصرح بأنه لا حجاب حينئذٍ بين ذاك التقوى النائل وبينه تعالى بخلاف الأول حيث أنه لا يصرح بذلك وان لا ينافيه ولا وجه لحمل النيل على الصعود بعد أن لا برهان عقلي ولا نقلي على ذلك بل يؤيد ما ذكر من حمل النيل على مفهومه العالي العاري عن النيل المادي ونحوه مما هو تعالى منزه عنه بعض ما ورد في أنه تعالى قد استتر بغير ستر مستور واحتجب بغير حجاب محجوب ليس بينه تعالى وبين خلقه حجاب غير خلقه أي الخلق ما دام متوجهاً إلى نفسه فهو حجاب ومحجوب عن ربه والحجاب هنا نفس المحجوب لا ما هو الحائل

---

(١) سورة الحج الآية (٣٧) .

بينه وبين المحجوب عنه كما أن الربط الاشراقي والفقر الوجودي هو عين المرتبط الفقير لا ما هو الواصل بينه وبين المربوط إليه فالموجود الامكاني هو بذاته حجاب ومحجوب فإذا لم يلتفت إلى ذاته ولم ير نفسه ولم يحب بقائه الخاص به بل دنا فتدلى ولم ير إلا مولاه ولم يحب إلا الله تعالى ارتفع الحجاب وزال الحساب وتجلى نور السموات والأرض وانطمس النجوم الزاهرة وانمحى الاقمار المنيرة فهنالك يناله تعالى هذا التقوى الاخص لا التقوى الخاص فضلاً عن العام .

وحيث أن التقوى نعت خاص يتحد معه المنعوت به حسبما تقدم أن هذه الملكات الفائقة تتحد النفس المجردة بها وتصير هي إياها فلا ميز وجودي حينئذٍ بين التقوى والنفس المتقية المتحدة به فعليه إذا بلغ التقوى شاواً قاصياً ونال الله تعالى بالمعنى الممكن المعقول منه تبلغ النفس المجردة المتقية ذلك الشأو القاصي وينال الله تعالى بالمعنى المعقول منه ولا يمكن أن يناله التقوى ولا يناله المتقي إذ ليس التقوى إلا حقيقة وجودية خارجية متحدة مع النفس الكاملة فأين الانفكاك ؟ هنيئاً لحاج نحر هديه لله تعالى نحراً خالصاً لوجهه لا يبتغي بذلك إلا الله فيناله تقواه ثم يناله هو بنفسه أيضاً لأن تقواه ليس بخارج منه طوبى له وحسن مآب ـ تدبر .

ولعله لهذا التقوى الغالي الموعود به في النحر سمي يوم النحر بالحج الأكبر[1] ولأجله قال الصادق عليه السلام «إذا اشتريت هديك فاستقبل به القبلة وانحره أو أذبحه وقل: وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً مسلماً وما أنا من المشركين إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك امرت وأنا من المسلمين اللهم منك وبك بسم

---

(١) الوسائل ، ج١٠ ، ص٨٧ .

الله وبالله والله اكبر اللهم تقبل مني»[1] لأن النحر إذا كان بهذا التقوى الذي لا يرى فيه إلا الله ولا شأن لهذا الناحر إلا لله حيث أن صلاته ونسكه ومحياه ومماته أي جميع شؤونه الله رب العالمين فحري بذلك أن ينال الله وينالـه تعالى الناحر المتقي أيضاً وهذا هو الهدف السامي أي الخلق العظيم الذي يمثله الحج بما له من الأداب والسنن الراقية .

وإياك وأن تتوهم أن هذه الملكات امور ذهنية أو نعوت عرضية أو نحو ذلك فاقرأ يا حبيبي قوله تعالى ﴿هم درجات﴾[2] أي ذواتهم ونفوسهم صارت درجات وارق من قوله تعالى ﴿لهم درجات﴾[3] لأن الأول للاوحدي من الاتقياء والثاني للاوساط منهم فاقرأ يا صاحبي قوله تعالى ﴿فأما إن كان من المقربين * فروح وريحان وجنة نعيم﴾[4] أي المقرب ذاته روح ونفسه ريحان وقلبه جنة نعيم وارق من قوله تعالى ﴿جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ لأن الأول للأوحدي المخلص - بالفتح - والثاني للمتوسط المخلصين - بالكسر - فاقرأ يا صاحبي قوله تعالى: ﴿فادخلي في عبادي * وادخلي جنتي﴾[5] وارق من قوله تعالى ﴿ادخلوها بسلام آمنين﴾ فاقرأ أيها العارف الشاهد قوله تعالى ﴿والله خير وابقى﴾ وارق ايها السالك العابد من قوله تعالى ﴿وما عند الله خير وابقى﴾[6] .

وإياك وأن تتوهم أن هذا الرقي بمعنى التنزه المحض كما في الملك

---

(١) الوسائل ، ج١٠ ص١٣٧ .
(٢) سورة آل عمران ، الآية(١٦٣) .
(٣) سورة الأنفال ، الآية(٤) .
(٤) سورة الواقعة ، الآيتين (٨٨ ـ ٨٩) .
(٥) سورة الفجر ، الآيتين (٢٩ ـ ٣٠) .
(٦) الفتوحات المكية ج١ ص٦٨٦ .

المقرب بل الإنسان كون جامع فله التنزه والتشبه معاً ويجمعهما قوله تعالى ﴿ان المتقين في جنات ونهر * في مقعد صدق عند مليك مقتدر﴾[1] فللانسان الاوحدي الشاهد جنتان احداهما جنة اللقاء وهي المشار إليها بقوله تعالى: ﴿وادخلي جنتي﴾ والاخرى جنة تجري من تحتها الأنهار المصرح بها في غير واحدة من الآيات . إياك وأن تحصر الجنة في قوله تعالى ﴿عند مليك مقتدر﴾ بعد التصريح بقوله تعالى ﴿إن المتقين في جنات ونهر﴾ نعم ليس للاوساط من المؤمنين إلا جنات تجري من تحتها الأنهار دون جنة اللقاء .

وحيث أن درجات الجنة عدد الايات القرآنية مع ما بين كل درجة من البون البعيد فعلى المتخلق بخلق عظيم أن يأتسي ويقتدي بمن هو نفسه خلق عظيم وهو رسول الله ﷺ إذ قال رب زدني علماً فيقول هو أيضاً رب زدني علماً ولا يقف على حد ولا يكتفي به بل عليه أن يقرأ ويرقأ ويقتحم العقبة ولا يقتصر على السهلة فإذا كان أمامه قوله اذكروني اذكركم ، لا مجال له أن يكتفي بقوله تعالى. ﴿اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم﴾ لما بين ذكر الله وذكر نعمة الله من الفصل البالغ وإذا كان قدامه قوله تعالى ﴿عيناً يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيراً﴾ لا يمد عينيه إلى قوله تعالى: ﴿إن الابرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً﴾ .

لأن تلك العين التي يشرب بها عباد الله تكون خالصة محضة واما الذي يشربه الابرار فهو ممزوج بمقدار ما من تلك العين لانفس تلك العين فللابرار شراب ممزوج وللمقربين شراب خالص حسبما يستفاد من آيات آخر أيضاً نحو قوله تعالى: ﴿ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلا * عيناً فيها تسمى

---

(١) سورة القمر ، الآيتين (٥٤ ـ ٥٥) .

سلسبيلا﴾[1] وقوله تعالى: **﴿يسقون من رحيق مختوم * ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون * ومزاجه من تسنيم * عيناً يشرب بها المقربون﴾**[2] حيث يدل على أن الأبرار يشربون من رحيق ممزوج من تسنيم لا الخالص منه لأن الخالص من تسنيم إنما هو للمقربين الذين هم فوق الأبرار وهم شاهدون كتب الأبرار ويشهدون صحائفهم .

وإذا كان أمامه قوله تعالى: **﴿وسقاهم ربهم شراباً طهوراً﴾**[3] لا يكتفي بما اكتفى بها المقربون فضلاً عن الابرار فاقرأ يا صاحبي هذا القول الذي لم يوجد في القرآن الكريم إلا في موضع واحد لا ند له واقضى العجب من لطفه تعالى لعباده المخلصين وتدبره حتى تجد اموراً نشير اليها:

الأول: إن الساقي هاهنا هو الله دون غيره من الموارد حيث قيل هناك ـ يسقون وقيل هاهنا (سقى) .

الثاني: ان الشراب هاهنا لم يجعل وعاء ولم يعين له آنية ولم يقرر له كأس ولم يبين له رحيق حيث لا يسعه وعاء ولا آنية ولا كأس ولا رحيق إذ لا قدر ولا حد ولا نصاب ولا منتهى لشراب يكون ساقيه هو الله تعالى دون غيره من الاشربة حيث قد عين لها أوعية واواني ونحوها .

الثالث: إن الشراب هاهنا لم يجعل له عين يذخر فيها أو ينبع منها وما إلى ذلك دون غيره من اشربة الابرار أو المقربين حيث عين لها عيون ومخازن خاصة يخزن فيها وينبع منها .

---

(١) سورة الدّهر ، الآيتين (١٧ ـ ١٨) .
(٢) سورة المطففين ، الآيتين (٢٥ ـ ٢٨) .
(٣) سورة الدّهر ، الآية (٢١) .

الرابع: إن الشراب هاهنا قد وصف بما لم يوصف به شراب قط ونعت بما لم ينعت به غيره اصلاً وهو قوله تعالى ﴿شراباً طهوراً﴾ وقد فسره من شربه وهو مولانا جعفر بن محمد الصادق عليه السلام بقوله «يطهرهم عن كل شيء سوى الله»[1] فهنالك الرقي وان إلى ربك المنتهى فإذا بلغ الكلام إلى الله فامسكوا .

فلنرجع إلى ما كنا فيه وهو أن الحج بما له من التضحية الخاصة موجب لتقرب قلما يوجد في غيره فهو ممثل للخلق العظيم بالمعنى المتقدم.

رابعها: أن الحج بما له من التعرفة الخاصة التي لا توجد في غير العرفات[2] موجب لرقي الانسان إلى ذروة عالم الامكان وسنامه وهو الخلق العظيم وإجماله أن ليوم العرفة مقاماً ولمكان العرفات مقاماً ولكن نيل ذلك كله إنما يتيسر للحاج الذي يدركها مع ما لغيرهما من الأزمان والمواقف المعينة في الحج ويستعد بذلك لدرك ما هو الحري بهما وهو الدعاء الذي هو مخ العبادة وكهف الاجابة كما أن السحاب كهف المطر وهو الدعاء الذي لا يكون ذريعة إلى قضاء حاجة من الحوائج النفسانية بل يكون هو عين الإجابة ولا يطلب فيه إلاّ الله ولا يطلب فيه إلاّ الغناء عن الحاجة لا قضاء حاجة ولا يطلب فيه إلاّ النزاهة عن الطلب ولا يرجى فيه إلا كمال الانقطاع إليه تعالى ولا يقصد فيه الا خرق جميع حجب النور حتى يصير الروح معلقاً بعز العرش ويصل إلى معدن العظمة فيصير هو بنفسه عظيماً.

---

(١) مجمع البيان .
(٢) الوسائل، ج ٨ ص ١١٣ .

وبيانه بأن الله تعالى قد بين قربه من عباده بمراتب ودرجات بعضها أقرب من بعض حيث قال تعالى: **﴿وإذا سألك عبادي عني فأني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون﴾**(١) لأنه تعالى بادر بالجواب من دون أن يقول تعالى لرسوله صلى الله عليه وآله - قل - ثم أفاد في الكريمة قربة من عباده.

ولقد أجاد سيدنا الأستاذ العلامة الطباطبائي قدس سره في تفسيره القيم (الميزان) بقوله: أحسن بيان لما اشتمل عليه من المضمون وأرق أسلوب وأجمله فقد وضع أساسه على التكلم وحده دون الغيبة ونحوها وفيه دلالة على كمال العناية بالأمر ثم قوله عبادي آه ولم يقل الناس وما أشبهه يزيد في هذه العناية ثم حذف الواسطة في الجواب حيث قال فإني قريب ولم يقل - فقل - أنه قريب - ثم التأكيد بأن ثم الإتيان الصفة دون الفعل الدال على القرب ليدل على ثبوت القرب ودوامه ثم الدلالة على تجدد الاجابة واستمرارها حيث أتى بالفعل المضارع الدال عليهما ثم تقييد الجواب أعني قوله - أجيب دعوة الداع - بقوله إذا دعان - وهذا القيد لا يزيد على قوله دعوة الداع المقيد به شيئاً بل هو عينه وفيه دلالة على أن دعوة الداعي مجابة من غير شرط وقيد كقوله تعالى: **﴿أدعوني استجب لكم﴾**(٢) فهذه سبع نكات في الآية تنبىء بالاهتمام في أمر استجابة الدعاء والعناية بها مع كون الآية قد كرر فيها على إيجازها ضمير المتكلم سبع مرات وهي الآية الوحيدة في القرآن على هذا الوصف - انتهى.(٣)

---

(١) سورة البقرة، الآية (١٨٦).
(٢) سورة المؤمن، الآية (٦٠).
(٣) الميزان، ج ٢ ص ٢٩.

فهذه هي المرحلة الأولى التي يثبت فيها أصل قربه تعالى من عباده والمرحلة الثانية ما يثبت فيها كونه تعالى أقرب إلى الانسان من الذين يحومون حوله حيث قال: **﴿ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون﴾**(١) والمرحلة الثالثة ما يثبت فيها كونه تعالى أقرب إلى الانسان من حبل وريده حيث قال: **﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾**(٢) والمرحلة الرابعة ما يثبت فيها كونه تعالى أقرب إلى الانسان من نفسه حيث قال تعالى: **﴿واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه﴾**(٣) وهو تعالى داخل في الأشياء ومنها الانسان لا بالممازجة وخارج عنها بالمباينة والمزايلة.

وللحاج أن يرتحل هذه المراحل إلى قصواها حسب ما ورثه من دعاء العرفات والمأثور من قتيل العبرات سيد الشهداء في الكائنات مولانا الحسين ابن علي عليه السلام حيث قال عليه السلام يومذاك.

«... هو تعالى للدعوات سامع وللكربات دافع وللدرجات رافع وللجبابرة قامع فلا إله غيره ولا شيء يعدله وليس كمثله شيء.

وقال: لم تخرجني لرأفتك بي ولطفك لي واحسانك إلي في دولة أئمة الكفر الذين نقضوا عهدك وكذبوا رسلك لكنك أخرجتني للذي سبق لي من الهدي الذي يسّرتني وفيه أنشأتني و...» (في ذلك إشارة إلى الحكومة الاسلامية كما تقدم).

إلى أن قال عليه السلام: «إلهي ترددي في الآثار يوجب بعد المزار

(١) سورة الواقعة، الآية (٨٥).
(٢) سورة ق، الآية (١٦).
(٣) سورة الأنفال، الآية (٢٤).

فأجمعني عليك بخدمة توصلني إليك كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك عميت عين لا تراك عليها رقيباً وخسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبك نصيباً إلهي أمرت بالرجوع إلى الآثار فارجعني إليك بكسوة الأنوار وهداية الاستبصار حتى ارجع اليك منها كما دخلت إليك منها مصون السر عن النظر إليها ومرفوع الهمة عن الاعتماد عليها إنك على كل شيء قدير» الخ.

وهذا هو دعاء من سقاه ربه شراباً طهوراً فصار طاهر السر عن النظر إلى غير الساقي ومصون الضمير عن حب الشراب وأن كان طهوراً لأن قلبه صار متيماً بحب الساقي فلا موقع لحب غيره فيه وهذا الدعاء هو الحري بأن يكون مخ جميع العبادات اذ هو عبادة صرف لا مجال فيها لظهور غير المعبود ولا مطلوب فيها إلاّ المعبود ولا مقصود فيها إلاّ معرفة المعبود بالمعبود لا بغيره من آيات الآفاق أو الأنفس.

فهناك يتحد الدليل والمدلول لأنه تعالى دل على ذاته بذاته دون غير ما نهجه عليه السلام لأن ما عدا ذلك أما استدلال عليه تعالى بآيات الآفاق وفي ذلك ينحاز كل واحد من المستدل والدليل والمدلول بحياله وأما استدلال عليه تعالى بآيات الأنفس وفي ذلك وأن يتحد المستدل والدليل ولكن ينحاز كل منهما عن المدلول ومعلوم أن الدليل إذا لم يكن عين المدلول لا يمكن أن يدل عليه حق الدلالة بخلاف ما إذا كان عينه كما في هذا الدعاء البالغ حيث أنه عليه السلام استدل بالله على الله وعرفه من ذاته الظاهر وحكم بأنه لا ظهور لغيره تعالى حتى يكون هو المظهر له.

ومثل هذا الدعاء السامي تجده في أدعية علي بن الحسين في أسحار ليالي رمضان من قوله عليه السلام: «بك عرفتك وأنت دللتني عليك» ومن قوله: «أن الراحل إليك قريب المسافة وأنك لا تحتجب عن خلقك إلّا أن تحجبهم الأعمال دونك» الخ. كما تقف على مثله في دعاء الصباح المأثور من علي بن أبي طالب عليه السلام: «يا من دل على ذاته بذاته».

فتحصل أن الحج من حيث اشتماله على الأدعية الخاصة المحفوفة بالبركات الزمانية والمكانية وغيرها ممثل للخلق العظيم.

خامسها: أن الحج بما له من التذكرة الخاصة التي قلما توجد في غيره موجب لشهود الحاج ما لا يشاهده غيره وذلك أن الحج وأن كان بنفسه ذكراً لله تعالى إلّا أن المندوب إليه في بعض حالاته هو الذكر الموجب لتسيان غير الله وعدم التباهي به حيث قال تعالى: ﴿فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاقٍ * ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار * أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب * واذكروا الله في أيام معدودات. . .﴾[1].

حيث أن نطاق هذه الآيات هو طرد[2] السنة الجاهلية بذكر الآباء والفخر بهم وذكر القبائل والتباهي بها والتكاثر بذلك وإثبات ذكر الله ذكراً شديداً حيث أن الذين آمنوا أشد حباً لله فذكرهم لله أيضاً أشد من ذكر هؤلاء آبائهم.

(١) سورة البقرة، الآيات (٢٠٠ ـ ٢٠٣).
(٢) الوسائل ج ١٠ ص ٢١٩ إلى ٢٢١.

والذي ينبغي التنبه له هو أن ذكر الله سار في الحج وداخل في مناسكه لا بالممازجة وخارج عنها لا بالمباينة وهو لبها وروحها وكما أن نسيان الله ونسيان آياته يوجب العمى ها هنا وسيظهر ذاك العمى يوم القيامة حيث قال تعالى: ﴿... **كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى**﴾[1] إذ يدل على أن نسيان الله قد أورث العمى كذلك ذكر الله يوجب البصيرة ها هنا فالحاج الذاكر لله تعالى يبصر ما لا يبصره غيره.

ولعله لذا جعل الحاج نفسه حرماً لا يجوز إحلاله وهو نفسه شعار من شعائر الله وهو نفسه نور ما لم يقترف ذنباً فانظر بدء الحج وختمه واقض العجب.

أما بدئه فقال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدي ولا القلائد ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا**﴾[2] حيث أن الحاج الذي قد أمَ البيت الحرام وقصده حرم لا يجوز إحلاله.

وأما ختمه فعن مولانا جعفر بن محمد الصادق عليه السلام أنه قال «الحاج لا يزال عليه نور الحج ما لم يلم بذنب»[3] فتحصل أن الحج نور وبصيرة ولذا ورد أن تارك الحج يحشر أعمى وهو في الدنيا أعمى وفي الآخرة أعمى واضل سبيلا[4] وحيث أن الحج نور وشهود فهو ممثل للخلق العظيم ولا يتخلق الانسان بخلق عظيم إلا أن يصغر ما دون الخالق في نفسه فمن تخلق

---

(١) سورة طه، الآية (١٢٦).
(٢) سورة المائدة، الآية (٢).
(٣) الوسائل ج ٨ ص ٦٨ وص ٣٢٩ـ٣٢٧.
(٤) الوسائل، ج ٨ ص ١٧و١٨.

بخلق عظيم وصار هو بنفسه عظيماً لا يتعاظم عنده شيء أصلاً إذ هو مظهر الإسم العظيم وأفضل من تخلق به هو خاتم الأنبياء المنعوت بقوله تعالى: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾، وهو ﷺ مظهر لأعظم الأسماء إذ ليس المراد من الإسم الأعظم هو اللفظ الذي يتكلم به ولا المفهوم الذهني الذي يتصوره النفس بل هو مقام خارجي تناله النفس المتكاملة وعين واقعية تتحقق بها النفس المتعالية.

ولعل السر في كونه ﷺ مظهراً لأعظم الأسماء هو كونه ﷺ خير من حج ولبى بجميع ما للحج والتلبية من الأسرار وهو ﷺ قال: «أن الله يحب معالي الأمور وإشرافها ويكره سفافها» وحيث أن الثقة بالله ثمن كل غال وسلم كل عال وهو ﷺ كان وثوقاً بربه متكلاً عليه وقد يسره الله تعالى لليسرى فلذا تخلق بذاك الخلق العظيم لأنه ﷺ كان واجداً لما يشتري به ذاك الغالي ولما يتدرج به إلى ذلك العالي وكان حجه ﷺ موازياً لمعراجه حيث قال مولانا الصادق عليه السلام في بيان علة احرام رسول الله ﷺ من مسجد الشجرة أنه لما أسرى به إلى السماء وصار بحذاء الشجرة نودي يا محمد قال ﷺ لبيك[1].

والحاصل أن الحج بما له من السنن والاسرار الجامعة يكون من أهم مظاهر الاسلام وكفى بجامعيته ما رواه زرارة عن مولانا الصادق عليه السلام حيث قال: «جعلني الله فداك أسألك في الحج منذ أربعين عاماً فتفتيني فقال يا زرارة بيت حج إليه قبل آدم بألفي عام تريد أن تفتي مسائله في أربعين عاماً»[2].

---

(١) الوسائل، ج ٨ ص ٢٢٤و٢٢٥.

(٢) الوسائل، ج ٨ ص ٧.

وكذا ما قاله مولانا الباقر عليه السلام أنه أتى آدم هذا البيت ألف آتية على قدميه منها سبعمائة حجة وثلاثمائة عمرة(١) وما ورد أن صاحب هذا الأمر يحضر الموسم كل سنة فيرى الناس ويعرفهم ويرونه ولا يعرفونه(٢) وما ورد عن مولانا علي بن موسى الرضا عليه السلام أنه قال إنما أمر الناس بالحج لعلة الوفادة إلى الله عز وجل وطلب الزيادة والخروج من كل ما اقترف العبد تائباً مما مضى مستأنفاً لما يستقبل إلى أن قال عليه السلام وقضاء حوائج أهل الأطراف في المواضع الممكن لهم الاجتماع فيه مع ما فيه من التفقه ونقل أخبار الأئمة عليهم السلام إلى كل صقع وناحية كما قال تعالى: ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون﴾ ﴿ليشهدوا منافع لهم﴾(٣) .

وما ورد عن مولانا الصادق عليه السلام في علة لزوم الحج على العباد. . . فجعل فيه الاجتماع من الشرق والغرب ليتعارفوا و. . . لتعرف آثار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتعرف أخباره ويذكر ولا ينسى(٤) .

وما ورد منه عليه السلام بعدما قيل له أن ناساً من هؤلاء القصاص يقولون إذا حج الرجل حجة ثم تصدق ووصل كان خيراً له فقال كذبوا لو فعل هذا الناس لعطل هذا البيت أن الله عز وجل جعل هذا البيت قياماً للناس(٥) .

وقال عليه السلام «جعلها الله لدينهم ومعائشهم»(٦) الأصل في ذلك هو

---

(١) الوسائل، ج ٨ ص ٩٤.
(٢) الوسائل، ج ٨ ص ٩٦.
(٣) الوسائل، ج ٨ ص ٨و٩.
(٤) الوسائل، ج ٨ ص ٨و٩.
(٥) الوسائل، ج ٨ ص ١٤.
(٦) الوسائل، ج ٨ ص ٤١.

قوام الدين وقيامه ولا جدوى لحج لا قيام فيه للدين ولذا قال رسول الله ﷺ «يأتي على الناس زمان يكون فيه حج الملوك نزهة وحج الأغنياء تجارة وحج المساكين مسألة»[1] .

وما ورد في الحج من تبين الحق وسعة الرحمة ما لا يتبين في غيره وما لا يتسع فيما عداه حيث قال تعالى: ﴿فيه آيات بينات﴾[2] إذ كل ما سوى الله آية له إلاّ أن أسرار الحج آيات بينات له وهناك يشاهد الضيف مضيفه والمضيف يرى نفسه أضيافه بحيث تكون آياته هنالك بينات.

وأما في سعة الرحمة فقد ورد عن مولانا أبي جعفر عليه السلام أنه قال في رجل خرج حاجاً حجة الاسلام فمات في الطريق «إن مات في الحرم فقد أجزأت عنه حجة الاسلام»[3] فانظر سعة الرحمة وأدب الضيافة ـ وقال رسول الله ﷺ في حجة الوداع لما وقف بعرفة وهمت الشمس أن تغيب: «يا بلال قل للناس فلينصتوا فلما انصتوا قال أن ربكم تطول عليكم في هذا اليوم وغفر لمحسنكم وشفع محسنكم في مسيئكم فأفيضوا مغفوراً لكم»[4] .

ولعله لهذه المزايا الخاصة للحج قال مولانا الصادق لعيسى بن أبي منصور: «يا عيسى أني أحب أن يراك الله فيما بين الحج إلى الحج وأنت تهيأ للحج»[5] وقال عليه السلام : «ليحذر أحدكم أن يعوق أخاه عن الحج فتصيبه في دنياه مع ما يدخّر له في

---

(١) الوسائل، ج ٨ ص ٤١.
(٢) سورة آل عمران، الآية (٩٧).
(٣) الوسائل، ج ٨ ص ٤٧.
(٤) الوسائل، ج ٨ ص ٦٥.
(٥) الوسائل، ج ٨ ص ١٠٦.

الآخرة»[1] إذ ليس لأحد أن ينأى عن خير كالحج وينهي عنه بل يلزم أن يرغب بنفسه فيه ويرغب غيره فيه.

ولنكتف في فضله بنقل ما قاله رسول الله ﷺ لمن قال له يا رسول الله أني خرجت أريد الحج ففاتني وأنا رجل مميل (أي كثير المال) فمرني أن أصنع في مالي ما أبلغ به مثل أجر الحاج فالتفت إليه رسول الله ﷺ «فقال أنظر إلى أبي قبيس فلو أن أبا قبيس لك ذهبة حمراء انفقته في سبيل الله ما بلغت به ما يبلغ الحاج ثم قال أن الحاج إذا أخذ في جهازه لم يرفع شيئاً ولم يضعه الا كتب الله له عشر حسنات ومحى عنه عشر سيئات ورفع له عشر درجات فإذا ركب بعيره لم يرفع خفا ولم يضعه الا كتب الله له مثل ذلك فإذا طاف بالبيت خرج من ذنوبه فإذا سعى بين الصفا والمروة خرج من ذنوبه فإذا وقف بعرفات خرج من ذنوبه فإذا وقف بالمشعر الحرام خرج من ذنوبه فإذا رمى الجمار خرج من ذنوبه فعد رسول الله كذا وكذا موقفاً إذا وقفها الحاج خرج من ذنوبه ثم قال أني لك أن تبلغ ما يبلغ الحاج قال أبو عبد الله عليه السلام ولا يكتب عليه الذنوب أربعة أشهر ويكتب له الحسنات الا أن يأتي بكبيرة»[2].

ولعل المراد من مثل قوله ﷺ فإذا طاف خرج من ذنوبه فإذا سعى. . . خرج من ذنوبه هو بيان اختلاف تلك الأعمال في مغفرة الذنوب الخاصة حيث أن كل واحد منها وجب لغفران ذنب خاص أو أن الذنوب لما تراكمت وصارت ريناً على صاحبها وحجابا على من اقترفها يكون كل واحد من تلك المناسك موجباً لترقيق قشر من تلك الحجب ورفع غطاء من تلك

(١) الوسائل، ج ٨ ص ١٠٦.
(٢) الوسائل، ج ٨ ص ٧٩.

الأغطية وتسطيح كنان من تلك الأكنة في القلوب حتى يأتي الحاج ربه بقلب سليم لا كنان فيه ولا صداء عليه ولا حجاب دونه رزقنا الله وإياكم.

خاتمة في وداع الكعبة وفي بعض مآثر حجة الوداع

كما أن الله تعالى هو الأول الذي لا أول له والآخر الذي لا آخر له لأن أوليته بذاته وكذا آخريته حيث قال تعالى: **﴿هو الأول والآخر﴾**[1] وكذلك يكون تعالى مبدأ صدور الأشياء ومرجع عودها ـ إنّا لله وإنّا إلى الله راجعون.

كذلك يلزم أن يكون ابتداء كل أمر بالتوجه إليه تعالى وختام كل أمر جميل بالثناء عليه تعالى حتى لا يفتتح بأمر بدون الاعتصام به والاتكال عليه والتوجه إليه ولا يختتم بدون حمده وشكره لأن الموحد كما يعرف الله تعالى بأنه الأول والآخر ويعرف أن بدء جميع الموجودات منه تعالى وختمه إليه تعالى كذلك لا يدخل في أمر ولا يخرج منه إلا بالتوجه إليه تعالى كما أدب الله نبيه ﷺ حيث قال تعالى: **﴿وقل رب ادخلني مدخل صدق واخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً﴾**[2].

ومقتضى توحده أن يكون محياه ومماته لله رب العالمين فلا يدخل في الدنيا ولا يخرج منها إلا صادقاً ولا يدخل في البرزخ ولا يخرج منه إلاّ صادقاً ولا يدخل في المعاد الذي لا خروج منه ولا يبقى ولا يدوم فيه إلاّ صادقاً لأن **﴿الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم﴾**[3] ولهم لسان صدق وكذا يكونون في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

ومن أهم تلك الشؤون هو الحج فله بدء يبتدىء منه الحاج صادقاً وله

(١) سورة الحديد، الآية (٣).
(٢) سورة الاسراء، الآية (٨٠).
(٣) سورة يونس، الآية (٢).

ختم يختتم إليه الحاج صادقاً فلذا ودع مولانا على بن موسى الرضا عليه السلام البيت الحرام بأن خر ساجداً ثم قام فاستقبل الكعبة فقال «اللهم إني انقلب على لا إله إلا أنت»[1] يعني على التوحيد الشخص وطرد أي شرك كان وهذا هو الحاج الذي لا يزال عليه نور الحج[2] .

ومن أدب الوداع أن يدعو كما عن مولانا الصادق عليه السلام : «اللهم أقلبني مفلحاً منجحاً مستجاباً بأفضل ما يرجع به أحد من وفدك من المغفرة والبركة والرضوان والعافية مما يسعني أن أطلب»[3] الخ وأن يكون آخر عهده بالبيت أن يضع يده على الباب ويقول: «المسكين على بابك فتصدق عليه بالجنة»[4] .

وليكن آخر عهدنا في هذه الوجيزة الباحثة عن نظام الحج ونبذ من أسراره هو ما يتصدق الله علينا بجنة الحكمة وهي خطبة خاتم النبيين صلى الله عليه وآله الذي أوتي جوامع الكلم والذي ما كلم العباد بكنه عقله قط[5] حيث لم يكن من يعادله حتى يكلمه بكنه عقله الا من هو نفسه ﴿وأنفسنا وأنفسكم﴾[6] وكيف لا يكون كلامه صلى الله عليه وآله الجنة بعدما قال صلى الله عليه وآله إنا مدينة الحكمة وهي الجنة وأنت يا علي بابها.

وكما أنه صلى الله عليه وآله قد صلّى وقال صلى الله عليه وآله صلّوا كما رأيتموني أصلّي وحج وقال صلى الله عليه وآله : خذوا عني مناسككم كذلك أدب الناس وعلمهم نظام

---

(١) الوسائل، ج ١٠ ص ٢٣٢.
(٢) الوافي باب فضل الحج.
(٣) وسائل الشيعة، ج ١٠ ص ٢٣١.
(٤) وسائل الشيعة، ج ١٠ ص ٢٣٣.
(٥) الكافي كتاب العقل والجهل.
(٦) سورة آل عمران، الآية (٦١).

الحج وأسراره في خطبته المباركة في حجة الوداع ولنشر إلى نزر من شذراتها فيما يلي، الجامع لما تقدم في الصلات المارة والجهات الماضية.

أحدها: تهذيب النفس بالتوحيد الخالص وتزكيتها بتولي أولياء الله وتطهيرها عن النفاق والخلاف حيث قال ﷺ حثاً على الوعي: نصر[1] الله عبداً سمع مقالتي فوعاها وبلغها من لم يبلغها رب حامل فقه ليس بفقيه ورب حامل فقه إلى من هو افقه منه: ثلاث لا يغل عليهن قلب أمرء مسلم - إخلاص العمل لله والنصيحة لأئمة المسلمين واللزوم لجماعاتهم... - فالحاج يعبد الله مخلصاً له الدين وينصح لأئمته ويلازم المجتمع الاسلامي كما قال عليه السلام: «وليس رجل أحرص على جماعة أمة محمد ﷺ وألفتها مني أبتغي بذلك حسن الثواب وكرم المآب»[2].

ثانيها: تأمين الناس على الدماء والأموال حيث قال ﷺ: «أن الله حرم عليكم دمائكم وأموالكم... ولا تعثوا في الأرض مفسدين فمن كانت عنده أمانة فليؤدها». فالحاج أمين لأعراض الناس وأسرارهم لأن قلوب الأحرار خزائن الأسرار.

ثالثها: تسوية الناس بآحادهم وقبائلهم حيث قال ﷺ: «الناس في الاسلام سواء: لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي الا بتقوى الله...» فالحاج يستوي ويساوي ولا يرى لنفسه فضلا على غيره ولا لقومه تقدماً على قوم آخر ويرى الآحاد والشعوب سواسية.

رابعها: تطهير المجتمع الاسلامي عن السنن الجاهلية الجهلاء في

---

(١) وفي نسخة نضر الله عبداً - أي جعل وجهه من الوجوه الناضرة يوم القيامة.

(٢) نهج البلاغة، كتاب (٧٨).

الأموال والدماء والبغضاء والشحناء. حيث قال ﷺ: «كل دم كان في الجاهلية موضوع تحت قدمي... وكل رباء كان في الجاهلية موضوع تحت قدمي وأول رباء أضعه ربا العباس بن عبد المطلب... فالحاج لا يجرمنه شنآن قوم أن يعتدي ولا يجره حب الدنيا إلى أن يأذن بحرب من الله ويقول إنما البيع مثل الربا لأنه يعلم أن الله تعالى يمحق الربا ويربي الصدقات».

خامسها: تكريم النساء كالرجال وتعديل الحقوق التي لهن عليهم ولهم عليهن حيث قال ﷺ: «أوصيكم بالنساء خيراً... ولكم عليهن حق ولهن عليكم حق وكسوتهن ورزقهن بالمعروف» فالحاج يرى قوله تعالى: **﴿وجعل بينكم مودة ورحمة﴾**(1) ويشاهد قوله تعالى: **﴿هن لباس لكم وأنتم لباس لهن﴾**(2) ويراعي قوله تعالى: **﴿ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف﴾**(3).

سادسها: تحبيب العمال وتفقد الخدمة حيث قال ﷺ: «أوصيكم بمن ملكت إيمانكم فأطعموهم مما تأكلون والبسوهم مما تلبسون» فالحاج يتحبب إلى من يخدمه ولا يستعلي عليه بل يجتمع معه على مائدة ويلبسه ما يتلبس به ولا يتزي ولا يتفوه بقوله أنا أحسن منك أثاثاً ورئياً.

سابعها: تنسيق المجتمع الاسلامي على نسق العدل والأمانة حيث ﷺ: «أن المسلم أخ المسلم لا يغشه ولا يخونه ولا يغتابه ولا يحل له دمه ولا شيء من ماله إلا بطيب نفسه» فالحاج مع أي مسلم آخر له في الدين أبوه النور وأمه الرحمة وهو طيب لا يحنّ إلاّ نحو الطيب.

---

(1) سورة الروم، الآية (٢١).
(2) سورة البقرة، الآية (١٨٧).
(3) سورة البقرة، الآية (٢٢٨).

ثامنها: تكليف المجتمع الاسلامي برسالة التبليغ والاهتمام بالمسؤولية حيث قال ﷺ: «أنكم مسؤولون فليبلغ الشاهد منكم الغائب» فالحاج فقيه يحمل الفقه إلى أي مسلم آخر لم يوفق الحضور في المواقف ولم يدرك الحرمين ومجامعهما.

تاسعها: تعليم الناس بأهم فرائض الاسلام وهو الاعتصام بالثقلين اللذين تركهما رسول الله ﷺ في أمته حيث قال ﷺ: «أني خلفت فيكم ما أن تمسكتم به لن تضلوا كتاب الله وعترتي أهل بيتي» فالحاج يعتصم بحبل الله ومن اعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم.

عاشرها: تولية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وجعله ولياً للمسلمين حيث قال ﷺ: «من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاده» وبذلك يكمل الدين ويتم النعمة.

إلى هنا انتهى ما جرى على اليراع ولقد أوتيت جوامع هذه الكلم في سفر الحج ولم يتيسر لي تنسيقها مرة بعد أخرى بل كنت أكتب كل ما نفث في الروع سفراً كان أو حضراً حرماً كان أو حلا فان وفى بشيء من أسرار الحج فللّه المنة والا فليعذرني الكرام ولكنه جرعة من ماء زمزم الذي كان رسول الله ﷺ يستهديه وهو ﷺ بالمدينة ولعله يصير شراباً طهوراً لمن أتى الله ولباه بقلب سليم دعواهم فيها سبحانك اللّهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين.

موقف إبن سينا اتجاه النبوة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

وبعد فيقول المفتاق إلى الله، عبد الله الجوادي الطبري الآملي هذه وجيزة حول «موقف ابن سينا اتجاه النبوة» حررتها بمناسبة الذكرى الألفية لهذا الحكيم المتأله الفذ اللبيب الأروع[(١)].

فأعلم: أن البحث عن معنى النبوة، وعن انقسامها إلى قسمين، وعن بيان ما هو المراد منها هنا، وعن اثباتها، وكذا البحث عن خصائصها ولوازمها: من الوحي والاعجاز والعصمة والانذار بالغيب وما إلى ذلك من المسائل الخاصة فيما يلي من الفصول القادمة.

الفصل الأول
في معنى النبوة وأقسامها وبيان المراد منها في هذا الموقف

أن النبوة: موهبة إلهية ينالها الانسان الكامل في عقليه النظري والعملي ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن الله، ويهديهم في الدنيا

(١) القصيدة العينية لإبن سينا.

إلى نظام العدل، وفي الآخرة إلى النعيم الأبدي.

وهي ـ أي النبوة ـ على قسمين: أحديهما النبوة الخاصة التي يتصف بها شخص معين في الخارج كنبوة خاتم الأنبياء محمد بن عبد الله ﷺ.

والأخرى: هي النبوة العامة التي لا اختصاص لها بشخص معين دون غيره؛ وهذا القسم هو المراد منها في هذا الموقف، إذ النبوة الخاصة لكونها أمراً شخصياً في الخارج مما لا يمكن البحث الفلسفي حولها؛ ولا مجال لأقامة البرهان عليها نفياً ولا إثباتاً، إذ المعتبر في مقدمات البرهان هو أن تكون كلية دائمة[1] كما يعتبر أن تكون أولية ذاتية، ومن هنا يحكم بأن الشخص الخارجي حيث أنه يتغير ويزول لا يقام عليه البرهان. فتحصل: أن النبوة ما هي وإن المبحوث عنه هنا ما هو[2].

الفصل الثاني
في إثبات النبوة العامة وضرورتها

إن البحث حول النبوة وضرورتها بلحاظ نظام الكل مسألة فلسفية حيث أنها بحث عن وجود شيء لا يتخصص بتخصص طبيعي ولا رياضي كما في موطنه[3] والكلام هنا متمحض في النبوة. وأما الشريعة التي هي من آثارها وفروعها المترتبة عليها فلا بحث عنها هنا، فمنه ينقدح أن بعض الأصول والقواعد التي قررها في الشفاء[4] والاشارات وغيرهما لإثبات الشريعة وبيان ما يسنّه النبي ويشرعه الشارع خارج عن مصبّ المقال. ولما

---

(١) الفصل الأول في المقالة الثانية من برهان الشفاء.
(٢) المبدأ والمعاد لصدر المتألهين ص (٤٨٨).
(٣) الفصل الأول من المرحلة الأولى من الأسفار.
(٤) الفصل الثاني من المقالة العاشرة من إلهيات الشفاء.

كان القياس مؤلفاً من مقدمتين فقط، فلو تقرر هناك مقدمات فوق اثنتين، فمأل ذلك: أما إلى القياس المركب من الأقيسة التي بعضها تلو بعض، وأما إلى بيان مطلوب آخر لا مساس له بما هو مدار الكلام[١] .

ثم أن الذي يستدل به لضرورة النبوة هو: أن الانسان مدني بالطبع، وكل مدني بالطبع يحتاج إلى قانون، فالانسان يحتاج إلى قانون؛ وكل قانون يحتاج إلى مقنن والمحتاج إلى المحتاج إلى شيء يحتاج إلى ذلك الشيء، فالانسان محتاج إلى مقنن. وسيأتي بيان ذلك المقنن.

أما كون الانسان مدنياً بالطبع ـ أي طبعه مجبولا على الاجتماع[٢] والتعاون في الجملة ـ فلأنه يحتاج في غذائه ولباسه ومسكنه وسائر شؤونه الضرورية إلى الفلاحة والصنعة ونحوهما؛ بخلاف غيره من الحيوانات، حيث أن ساهرة الطبيعة موائد مطروحة لها، وجبالها وكهوفها وأوديتها مأوى لها؛ كما أن ما معها من الجلود والأشعار والأصواف والأوبار والرياش البسة لها؛ فلذا يمكن لكل واحد منها الحياد عن غيره والانفراد بنفسه يرتع ويلعب.

وأما الانسان فلو أراد أن يعيش عيشاً انسانياً يصحبه الرقّي والابداع وأراد أن ينجو عن البهيمية والسبعية، فلا بد من أن يجتمع مع غيره ليتصدى كل واحد منهم عملاً خاصاً من الصنعة ونحوها؛ وهذا هو الأصل المعنى به كون الانسان مدنياً بالطبع، والا بقي منبتاً وحده لا ظهراً أبقى ولا أرضاً قطع، فالمراد من التمدن هنا هو هذا الاجتماع الخاص[٣] لا التمدن

---

(١) المصدر السابق.
(٢) الفصل الرابع في النمط التاسع.
(٣) المصدر السابق.

المخصوص المعهود ـ أي التعاون على البر والتقوى ـ لأن الانسان ليس مجبولاً طبعه على المدنية بهذا المعنى المتعالي.

وأما أن كل مدني بالطبع يحتاج إلى قانون، فلأن الاجتماع المذكور لا بد فيه من معاوضة ومعارضة في الأعمال، حتى يصير عمل كل واحد منهم عوضاً عما يناله من الغير ومعرضاً لأن يبذل بحذائه شيء، إذ لولا المعاوضة لما أقدم أحد على عمل للغير ولا رضي أحد باعطاء ماله غيره، ومن المعلوم: أن المعاوضة تحتاج إلى ضابط خاص هو القانون الضامن للقسط، المصون عن حيث الافراط وجور التفريط، المانع عن الاستيفاء عند الأخذ والتطفيف عند الاعطاء.

وأما احتياج القانون إلى مقنن، وكذا احتياج الجامعة الانسانية إلى ذلك المقنن، فواضح لا مِرْيَة فيه؛ إذاً القانون عبارة عن عدة أحكام منضودة كافلة لسعادة المعيشة، فهو أمر علمي ووضعي خاص، فلا يوجد بنفسه في الخارج، بل لا بد له من عالم به وإياه، حتى ينضبط ويتقرر في نفسه فتناله الجامعة الانسانية بعد ذلك علماً وعملاً ﴿ليهلك من هلك عن بيّنة ويحيا من حيا عن بيّنة﴾.

فتحصل: أن الانسان لكونه مدنياً بالطبع يحتاج إلى من يضع له قانوناً يعيش هو في ضوئه.

ثم أنه لا بد أن يكون ذلك المقنّن انساناً يحاورهم ويخاطبهم[1]، ويجيب اسئلتهم ويسمع جوابهم، ويحلّ ما اعتاص عليهم، ويكون أسوة لهم، إذ لولا ذلك ـ بأن كان مثلاً ملكاً سماوياً ـ لانقطع الارتباط وسُدّ اللقاء

(١) الفصل الآخر من كتاب النجاة.

والاحتجاج والائتساء. كما أنه لا يمكن أن يكون ذلك الواضع هو فرداً أو فراداً من أوساط الناس لهم ما لغيرهم من العقول والأفكار والملكات، والا لانقاد له الناس ولا تقبله الجامعة الانسانية، بعد أن كان «حكم الامثال فيما يجوز وفيما لا يجوز واحداً».

بل لا بد أن يكون ذلك الواضع انساناً متألهاً[1] أوحدياً، له من العقل والملكة الخلقية ما ليس لغيره ـ حسب ما يأتي في الفصل القادم ـ لأن الأوساط من الناس لا ينزهون من الزهو والهوى، فيرون ما لهم حقاً وأن كان باطلاً، وما عليهم باطلاً وأن كان حقاً، حيث أنهم يحومون حوم أنفسهم، لأنهم «أما ظالمون لأنفسهم وأما مقتصدون»[2] بخلاف ذلك الانسان الأوحدي الذي يحوم حوم ربه، لأنه «سابق بالخيرات بإذن ربه»[3] فلا يسع هؤلاء أن يضعوا القانون المنزه عن أن يشوبه الحيف والجور، إذ النزاع والمناقشة قد رسخ في طباعهم؛ ومن المعلوم: أنّ الموجب للنقاش والحوار المذموم «وهو الطبع المجبول عليه أكثر الناس» لا يمكن أن يصير رافعاً للنزاع وعاملاً للانسجام والوحدة، فلا مجال لتصدي من هو من أوساط الناس لذلك أصلاً.

فتحصل: أن المجتمع الانساني يحتاج إلى الانسان الأوحدي المتآله الصالح لبيان القانون.

ثم أن وجود مثله خير وصلاح بالقياس إلى النظام الكلي والنضد العالمي، ولا أشكال في أن وجوده ممكن ذاتاً ووقوعاً، كما لا ريب في أن

---

(١) الفصل الثاني من المقالة العاشرة من إلهيات الشفاء.
(٢) سورة فاطر، الآية (٣٢).
(٣) المصدر السابق.

كل ما هو خير للنظام وممكن كذلك يكون معلوماً للمبادىء الأولى، سيما مبدأ المبادىء، وهو الله تعالى رب العالمين، وكل ما هو معلوم له تعالى بالعناية يجب تحققه[1] ويمتنع عدم صدوره، حيث أن الأصلح بنظام الكل واجب وأن لم يكن ما هو الأصلح بالقياس إلى الفرد أو الأفراد الخاصة كذلك[2] ، والمراد من وجوب التحقق هنا: هو أنه يجب صدوره من الله تعالى، لا أنه يجب عليه تعالى، إذ لا يجب عليه شيء ولا يحكم عليه شيء **﴿ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون﴾**.

ولما كان ذلك خيراً أو أصلح بالقياس إلى نظام الكل، وهو مطابق للحكمة ومقدر في العناية الأولى، فهو موجود في جميع الأعصار، وهذا هو (النبوة العامة) التي لا تنحصر في عصر ولا في شخص، بل يتحقق ويستمر ما بقي الدهر، ويمكن أن يكون معنى بقائها هو بقاء ما جاء به، وهو الدين الكامل التام الذي جاء به أفضل الشارعين من حيث دوام أصل النبوة. وقد تقدم: أن للنبوة شريعة[3] تترتب عليها، وهي مما يقررها النبي بوحي من الله: من العبادات، والأحكام، والتبشير، والانذار، ونحوها مما هو خارج عن البحث.

تنبيه

أن البرهان المتقدم أنما يدل على ضرورة النبوة للجامعة الانسانية بما لها حياة انسانية، إذ الانسان موجود دائمي لا ينعدم أصلا، بل ينتقل من دار إلى أخرى، وحيث أن له معاداً يرجع إليه وهدفاً نهائياً ينتهي هو إليه، وذلك

---

(١) الفصل الثاني من المقالة العاشرة من إلهيات الشفاء.
(٢) الفصل الرابع من النمط التاسع من شرح الاشارات.
(٣) المصدر السابق.

ـ أي المعاد ـ أمر ضروري لا ريب فيه، فلا بد له من طريق يصل إليه، إذ الهدف بدون الطريق ممتنع فيكون وجود السبيل إليه ضرورياً لا ريب فيه أيضاً، وحيث أن السبيل لا بد لها من الهادي الذي يسير هو بنفسه على متن تلك السبيل ويدعو الناس إليها على بصيرة، فيكون الانسان الأوحدي المتاله الهادي إلى سبيل الهدف الحق أيضاً ضرورياً لا ريب فيه، ولذا استدل في الاشارات لضرورة النبوة بعد البحث عن عدة مقامات ودرجات للانسان السالك إلى الله[١] كما إفاده المحقق الطوسي رحمه الله هنا حيث قال[٢] : لما ذكر (ابن سينا) في الفصل المتقدم أن الزهد والعبادة إنما يصدران من غير العارف لاكتساب الأجر والثواب في الآخرة، أراد أن يشير إلى إثبات الأجر والثواب المذكورين، فأثبت النبوة والشريعة وما يتعلق بها على طريقة الحكماء، لأنه متفرع عليهما.

فتحقق: أن مدار الاستدلال هو تأمين الحياة الحقيقية للجامعة الانسانية، لا التعيش الاجتماعي أي تعيش كان، والا أمكن أن يكفيه نوع من السياسة غير الدينية أيضا، كما أشار إليه الشارح المحقق في ذيل الفصل[٣] المبحوث عنه بقوله: ثم أعلم أن جميع ما ذكره الشيخ من أمور التبوة والشريعة ليست مما لا يمكن أن يعيش الانسان الا به، إنما هي أمور لا يكمل النظام المؤدي إلى صلاح حال العموم في المعاش والمعاد الا بها، والانسان يكفيه أن يعيش في نوع من السياسة يحفظ اجتماعهم الضروري وأن كان ذلك النوع منوطاً بتغلب أو ما يجري مجريه، والدليل على ذلك تعيش سكان أطراف العمارة بالسياسات الضرورية.

(١) الفصل الثالث من النمط التاسع من شرح الاشارات.
(٢) الفصل الرابع من النمط التاسع.
(٣) المصدر السابق.

فتبين: أن ما أفاده المحقق الطوسي رحمه الله شرح وبيان للبرهان، لا أنه نقد وتزييف له، ومما يؤيده أن ابن سينا نفسه قد قرر في (علم النفس من الشفاء)[1] كون الانسان مدنياً ونحوه من الأصول والمقدمات لبيان لزوم نوع من الثقافة والأدب الخاص واللغة والفن والصنعة ونحو ذلك في الجامعة الانسانية، لا لبيان ضرورة النبوة، إذ المراد من تلك المقدمات هنالك هو بيان الحياة الاجتماعية للانسان، لا الحياة الحقيقية الأبدية التي لا تتحقق إلا بالأمور المعنوية، فراجع. ومما يرشد إلى أن نظر المحقق الطوسي رحمه الله ليس هو النقد والتزييف للبرهان بل بيان حوزة دلالته وعرصة حجيته، هو استدلاله بمثله في (التجريد)[2] لضرورة النبوة، وهكذا تلامذته في العلوم العقلية، كالعلامة[3] والكاتبي رحمه الله[4] .

فنحصل مما تقدم: أن النبوة موجودة ضرورة كما قال في (الشفاء)[5] : فواجب إذن أن يوجد نبي وواجب أن يكون إنساناً.

ولا مجال حينئذٍ لشبهة البراهمة أو غيرهم، كما بحث عن ذلك مستوفي في (نقد المحصل ص ٣٥٨).

الفصل الثالث
في بيان خصائص النبوة ولوازمها

بعدما تبين لزوم النبوة وضرورة تحققها بالهلية البسيطة، يلزم البحث

(١) الفصل الأول من المقالة الخامسة من كتاب النفس من الشفاء.
(٢) المقصد الرابع من كتاب التجريد مع أسلوب كلامي وكذا في الباب الرابع من قواعد العقائد.
(٣) المقصد الرابع من كتاب التجريد.
(٤) المقالة الخامسة من إيضاح المقاصد من حكمة عين القواعد.
(٥) الفصل الثاني من المقالة العاشرة من إلهيات الشفاء.

حول خصائصها والكمالات المعتبرة فيمن ينال تلك الموهبة الالهية، وهذا هو البحث عنها بالهلية المركبة. وأصول تلك الخصائص: هي الوحي والاعجاز والعصمة والانذار بالغيب، والدليل على إثبات تلك الخصائص للنبوة أمران: أحدهما أن النفس الناطقة ما لم تتصف بتلك الأوصاف لا تنال موهبة النبوة تكويناً ولا تمس كرامتها خارجاً، وثانيهما أن النفس الناطقة التي تدعي النبوة من الله تعالى ما لم تتصف بتلك الصفات التي تختص به ولا توجد في غيره، لا يقبل منها ولا يخضع عندها ولا يسلم لديها، إذ لا ميز حينئذ بينها وبين غيرها من النفوس الناطقة اللواتي لأوساط الناس، ومآل تلك الخصائص هو كمال قوتيه: النظرية والعملية.

فأما بلحاظ القوة النظرية ـ أي القوة التي بها يتأثر الانسان من فوق ـ فبان يبلغ عقله (أي عقل مدعي النبوة) مرتبة العقل المستفاد من العقل الفعال في النفوس، باخراجها من القوة إلى الفعل، وكان له في نيل المطلوبات العلمية قوة الحدس بحيث ﴿يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار﴾ أي كاد أن يتعلم العلوم وينالها بلا معلم. وكما أن للحدس طرف نقصان وضعف بحيث ينتهي إلى حد كأنه لا وجود له أصلاً، كذلك يتناهى في طرف الكمال والقوة إلى حد كأنه ظفر بكل المطلوبات أو أكثرها دفعة أو قريباً من دفعة بلا حركة فكرية أصلاً، فيرتسم في نفس من بلغ هذا الحد النهائي العلوم التي في العقل الفعال بلا تدرج ارتساماً بلا تقليد، بل مشتملاً على الحدود الوسطى، إذ التقليد في الأمور التي إنما يعرف بأسبابها ليس يقيناً عقلياً. وهذا ـ كما صرح به في الشفاء ـ ضرب من النبوة، بل أعلى قوى النبوة، والأولى أن يسمي هذه القوة (قدسية) وهي أعلىٰ مراتب القوى الانسانية[1].

---

(١) الفصل السادس من المقالة الخامسة من علم النفس من الشفاء.

فإذا بلغ عقله النظري هذا الحد من التلقي تشايعه وتحاكيه قوته التخيلية والحس المشترك[1] ، فحينئذٍ يتلقى المعارف الالهية والمحتوى العقلي بعقله المستفاد، ويرى الملك الأمين الحامل لذلك الوحي الالهي، ويسمع كلامه المنضود الذي نزل به بتخيله وحسه المشترك، وهذه الخصيصة هي المعجزة العلمية التي يكون الخواص لها أطوع[2] من المعجزة الفعلية التي يكون العوام لها أطوع، حيث أنه بلغ حداً يعجز عن بلوغ مثله غيره، ورأى فواده ما لا يراه أفئدة غيره، وشاهد بصره وبصيرته ما لا يشاهده أبصار غيره ولا بصائرهم، وأتى بعلم لا يقدر على الاتيان بمثله غيره، ويدعو إلى أمر لا يدعو إليه غيره. ويتلو هذا الاعجاز معجزة أخرى، وهو الانذار بالغيب والاعذار به، حيث أنه يدرك ويعلم ما يقع في المستقبل، هذا هو القول الاجمالي حول كمال قوته النظرية[3] .

وأما بلحاظ القوة العملية ـ أي القوة التي بها يؤثر الانسان فيما دونه[4] ـ فبان يبلغ عقله العملي شأواً قاصياً يكون عالم الطبيعة الخارجية بمنزلة البدن له، ويكون هو بمنزلة النفس لها، فكما أن النفس تدبّر البدن وتديره، كذلك تكون قوته العملية قاهرة على الطبيعة ومسيطرة عليها هيمنة النفس على البدن[5] ، كل ذلك بإذن الله تعالى ﴿**فيبرى الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله**﴾ ويقلب العصا ﴿**حية تسعى**﴾ بإذن الله .

---

(١) الفصل العشرون من النمط العاشر من الاشارات.
(٢) الفصل الرابع من النمط التاسع من الاشارات.
(٣) رسالة الفعل والانفعال لإبن سينا.
(٤) الفصل الأول من المقالة الخامسة من كتاب النفس من الشفاء.
(٥) الفصل السادس والعشرون من النمط العاشر.

وهذه الخصيصة هي المعجزة الفعلية التي يكون العوام لها أطوع، كما أن الخواص للمعجزات العلمية أطوع.

ومن تلك الخصائص، العصمة وهي أيضاً أنها تتحقق عند كمال القوتين ـ النظرية والعملية ـ إذ العصمة على قسمين: أحدهما يرجع إلى العلم، والآخر يرجع إلى العمل ـ أما القسم الأول ـ أي العصمة فيما يرجع إلى العلم فبان يكون النبي معصوماً في جميع شؤونه العلمية وأبعاده الادراكية، وقد تبين (عند تشريح كمال قوته النظرية) أنه يتلقى الوحي من لدن حكيم عليم بعقله المستفاد، وتتمثل له تلك المعارف المتلقاة في حسه المشترك، وحيث أنه لا يداخله الوهم ولا تلعب به سائر القوى المقهورة، فلا يرى الا الحق ولا يعقل الا الحق، كما أنه لا يتمثل له الا الحق، لأنه بلغ حداً يدور به مدار الحق حيثما دار **﴿فلا يكذب فؤاده ما رأى ولا يزيغ بصره ولا يطغى﴾**[1] لأنه ينال المعارف من لدن حكيم عليم ولا مجال للخطاء هناك، إذ لا واسطة بين العارف ومنشأ عرفانه، ولذا يعبر عنه (بالعلم اللدني) لأنه من لدنه، وإلا لم يكن لدنياً، وليس المراد من العلم اللدني علماً خاصاً له موضوع ومحمول خاص وهكذا، بل العلم بلحاظ استفادته من لدن معلم إلهي يسمى لدنياً، كما أنه بلحاظ استفادته من الجداول المتشعبة عنه يكون غير لدني.

فإذا تم نصاب العصمة العلمية في هذه المرحلة ـ أيَ مرحلة التلقي والأخذ ـ تصل النوبة إلى العصمة في المرحلة الثانية (وهي مرحلة الحفظ

---

(١) سورة النجم، الآيتين (١١و١٧).

والضبط) بحيث يكون النبي معصوماً عن السهو أيضاً.

والدليل عليه هو ما مر: من أن القانون الكافل لسعادة الانسان هو الوحي الالهي لا غيره، فإذا لم يكن ذلك الوحي المتلقي من لدن معلم إلهي (وهو العقل الفعال) مصوناً عن الزوال ومعصوماً عن السهو لما كان له جدوى. أضف إلى ذلك: أن العقل المستفاد لدوام حضوره وشدة شهوده تجاه العقل الفعال لا مجال لنسيانه أو سهوه وخطائه، فلا ينسى ما أقرأه ذلك العقل الفعال بإذنه تعالى، فنعم ما قال ابن سينا «... الأنبياء عليه السلام لا يؤتون من جهة غلطاً ولا سهواً»[1].

والنكرة في سياق النفي يفيد العموم فيما يرجع إلى هاتين المرحلتين - أي مرحلة تلقي المعارف الالهية حيث لا يتطرق إليها الغلط أصلاً، ومرحلة حفظ تلك المعارف وصيانتها عن الزوال حيث لا يتطرق إليها السهو أصلاً - وحاصل ذلك: صيانة الوحي وعصمته عن تطرق الباطل حدوثاً وبقاءً.

ومن هنا يتضح: لزوم العصمة في المرحلة الثالثة - أي مرحلة الابلاغ والبيان - بحيث لا يبلغ الأعين ما أوحى إليه ولا يملي ﴿وما ينطق عن الهوى﴾[2] أصلاً، بل لا ينطق إلا عين ما أوحى إليه أيضاً، فلا يسهو وينسى في البيان، كما أنه لا يسهو ولا ينسى في الحفظ والضبط. هذا هو المقال حول القسم الأول - أي العصمة العلمية -.

وأما القسم الثاني - أي العصمة العملية - فبان يكون النبي معصوماً في جميع شؤونه العملية وأبعاده الفعلية، بحيث يفعل ما ينبغي أن يفعل ويترك

---

(١) الفصل الثامن من المقالة الأولى من إلهيات الشفاء.
(٢) سورة النجم، الآية (٣).

ما ينبغي أن يترك، حتى يكون جذبه ودفعه أي حبه وبغضه في الله، وتفصيله في موطنه المعد لتحليل معنى التولي والتبري وبيان المراد منهما.

فتحصل مما تقدم: أن للنبوة خصائص لا بد من تحققها معها، وهي الوحي والاعجاز والانذار بالغيب والعصمة، فالنبي إنسان أوحدي متأله يوحى إليه ويعلم الغيب ويقدر على ما يعجز عنه غيره ولا يغلط ولا يسهو ولا ينسى ولا يعصي الله، وهو بأمره يعمل كل ذلك بتوفيق من الله تعالى وإذن منه، وهو تعالى ﴿أعلم حيث يجعل رسالته﴾ قال في (الشفاء)[1] . . . وواجب أن تكون له (أي للنبيّ) خصوصية ليست لسائر الناس حتى يستشعر الناس فيه أمراً لا يوجد لهم، فيتميز به منهم، فيكون له المعجزات.

الفصل الرابع
في بيان ما ورثه الحكماء المتأخرون وما تأثروا به من موقف ابن سينا تجاه النبوة

أن المتتبع لآثار ابن سينا القيّمة ـ كالشفاء والاشارات والتنبيهات والنجاة وكذا بعض رسائله المعمولة في علم النفس ـ إذا فحص وتتبع كتب من تأخر عنه من تلاميذه أو غيرهم يجد كثيراً منهم قد ورث وتأثر بما أفاده ابن سينا، سيما في خصائص النبوة من الوحي والاعجاز ونحوهما، وإليك ما في (التحصيل) و(حكمة الاشراق) و(التلويحات) و(المطارحات) و(شرح الاشارات) و(المباحث المشرقية) وهكذا في كتب المحقق الداماد، وصدر المتألهين وغيرها من الكتب القيمة للحكماء المتألهين، مع اختلافهم في المباني والأسس الاستدلالية.

---

(١) الفصل الثاني من المقالة العاشرة.

ولقد أشار إلى تلك الخصائص الحكيم السبزواري في (منظومته) حيث قال: ـ على وزان المبدأ والمعاد لصدر المتألهين ـ:

أصـــول الاعجـــاز أو الكـــرامـــة　　خصـــائـــص أن تقـــوى العـــلاّمـــة
كمـــا خمـــود الحـــدس يبلـــغ انتهـــا　　يصعـــد فـــي شـــدتـــه غـــايتهـــا
فيهـــا يكـــاد زيتهـــا يضـــيء وصـــل　　وفيـــه لا تهـــدي مـــن أحببـــت نـــزل
أعيـــى أطبـــاء النفـــوس ذا السقـــم　　ذاك بـــلا لـــوح قـــرى أعلـــى القلـــم

إلى أن قال:

وأول أصـــل الأصـــول ولـــذا　　فـــالـــذكـــر أعلـــى المعجـــزات أخـــذا

انتهى. وهذا بحذاء ما قال في (الاشارات) عند بيان قوى النفس: أولها قوة استعدادية وهي (المشكاة) ويتلوها ما هو المتهيأ للاكتساب أما بالفكرة وهي (الشجرة الزيتونة) أو بالحدس فهي (زيت) يسمى عقلاً بالملكة وهي الزجاجة، والبالغة منها قوة قدسية ﴿يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار﴾ الخ. وقال الطوسي (ره) لما كانت الاشارة المترتبة في التمثيل المورد في التنزيل لنور الله تعالى وهو قوله عز وجل ﴿الله نور السموات﴾ الآية، مطابقة لهذه المراتب، وقد قيل في الخبر «من عرف نفسه فقد عرف ربه» فقد فسر الشيخ تلك الاشارات بهذه المراتب، انتهى.

ختام في بيان ما ورثه ابن سينا
من الكتاب والسنة وما تأثر به من هذا الثقلين
في لزوم الوحي وضرورة النبوة وخصائصها

أن العقل الانساني ـ حسبما يستفاد من القرآن الكريم ـ وأن كان نعمة إلهية، ولكنه وحده غير كاف لتأمين السعادة الانسانية، لأن الانسان موجود له عوالم ومراحل ينتقل من بعضها إلى آخر، فعقله القاصر عما ورائه ليس بكافل لهدايته إلى ما فيه سعادة معاشه ومعاده، فلذا ينادي القرآن الكريم بضرورة النبوة. وأن السنة الالهية لا تترك الانسان سدى، ولا تنفك عنه ولا هو ينفك عن تلك السنة الالهية التي «تعطي كل شيء خلقه ثم تهديه» كما قال ـ عز من قائل ـ ﴿لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة﴾ أي لا انفكاك بين الانسانية وبين البينة ـ أي الرسالة الالهية ـ أصلاً، وهذا أعني عدم الانفكاك من مقتضى السنة الالهية، ونظير ذلك بأن يقال: لا يكون الشجر وغيره من أنواع النبات منفكاً عن نزول المطر وارسال

الماء اليها، بمعنى أن السنة الالهية لا تترك النبات عطشاناً وسدى حتى ترسل إليه المطر وتنزل عليه الماء، ومثل هذا التعبير يفيد تحتم ذلك الأمر النافع وضرورته، كما أن قوله تعالى: **﴿رسلًا مبشرين ومنذرين لئلا يكون الناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً﴾**[1] يدل على أن العقل الانساني وحده ليس كافياً للهداية وتمامية الحجة، والا لما احتيج إلى الرسول، وتم نصاب الاحتجاج بمجرد العقل الذي آتاه الله، ويدل على أنه لولا الرسول لكان للناس على الله حجة نحو قوله تعالى: **﴿ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى﴾**[2] حيث أنه يدل على أن التعذيب الدنيوي إنما يحسن من الحكيم المتعالي إذا كان بعد إرسال الرسول وبيان الهداية وإتمام الحجة، كما أن الآية المتقدمة إنما تدل على أن الحجة مطلقاً سواء كانت بلحاظ التعذيب الدنيوي أو الأخروي إنما يتم بعد الرسالة لا قبلها، مع أن العقل الانساني موجود على أي حال.

فتحصل: أن لسان القرآن هو ضرورة النبوة وعدم كفاية العقل وحده، وأما مصداقها بتحققها في شخص خاص ـ أي النبوة الخاصة ـ فهو كما مر مما لا يمكن إقامة البرهان الفلسفي عليه، ولقد قال ـ عز من قائل ـ **﴿وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾**[3] حيث أنها تدل على أن النبوة الخاصة هبة خاصة لمن يعلم الله صلاحه لها.

---

(١) سورة النساء، الآية (١٦٥).

(٢) سورة طه، الآية (١٣٤).

(٣) سورة الأنعام، الآية (١٢٤).

ثم أن المهم في مسألة ضرورة النبوة في لسان القرآن، هو أن المعاد الذي هو أيضاً ضروري لا ريب فيه، إنما هو يلازم النبوة ولا ينفك عنه أصلاً، إذ المعاد ـ أي الهدف النهائي للانسان ـ يستلزم الطريق إليه لا محالة، إذ لا مقصد بدون السبيل، فإذا كان الطريق إليه ضرورياً يكون الهادي إلى تلك الطريق ـ أي النبي ـ ضرورياً، لأن العقل وحده غير كاف للهداية إليها، كما مر.

وأما المنكرون للنبوة فإنما ينكرونها لأجل انكارهم المعاد ـ أي الهدف النهائي للانسان ـ بحيث يقولون بأنه لا هدف فلا طريق فلا هادي إليه، ولقد نقل القرآن الكريم مقالهم الزائف في قوله تعالى: **﴿وقالوا ما هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون﴾**[1] وفي قوله تعالى: **﴿وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً * فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا * ذلك مبلغهم من العلم﴾**[2] وتمام التحقيق في تفسير ذلك خارج عن موضوع هذه الرسالة. هذا مجمل القول فيما أشار إليه القرآن الكريم.

وأما بيان ما عن العترة الطاهرة التالية للقرآن الكريم في ضرورة النبوة العامة، فهو ما رواه الكليني (ره) في (باب الاضطرار إلى الحجة من الكافي) عن هشام بن الحكم، عن أبي عبد الله عليه السلام «أنه قال للزنديق الذي سأله من أين أثبت الأنبياء والرسل؟ قال: أنا لمّا أثبتنا أن لنا خالقاً صانعاً متعالياً عنا وعن جميع ما خلق، وكان ذلك الصانع حكيماً متعالياً لم يجز أن يشاهده خلقه ولا يلامسوه فيباشرهم ويباشرونه ويحاجهم ويحاجونه، ثبت أن له

---

(١) سورة الجاثية، الآية (٢٤).
(٢) سورة النجم، الآيات (٢٨ ـ ٣٠).

سفراء في خلقه يعبرون عنه إلى خلقه وعباده ويدلونهم على مصالحهم ومنافعهم وما به بقائهم وفي تركه فنائهم، فثبت الآمرون والناهون عن الحكيم العليم في خلقه والمعبرون عنه جل وعز، وهم الأنبياء عليهم السلام وصفوته من خلقه، حكماء مؤدبين بالحكمة مبعوثين بها، غير مشاركين للناس على مشاركتهم لهم في الخلق والتركيب في شيء من أحوالهم، مؤيدين من عند الحكيم العليم بالحكمة، ثم ثبت ذلك في كل دهر وزمان مما أتت به الرسل والأنبياء من الدلائل والبراهين، لكيلا تخلو أرض الله من حجة، يكون معه علم يدل على صدق مقالته وجواز عدالته.

ولقد شرحه شراح الكافي، منهم صدر الحكماء المتألهين، وبينّه هو على مقدمات عقلية بعضها على محاذاة كتب ابن سينا حذو النعل بالنعل والقذة بالقذة، ودلالة هذا الحديث الشريف على ضرورة النبوة وعلى دوامها وعلى خصائصها واضحة، والمراد من العلم هنا هو المعجزة العلمية والعملية بلا اختصاص له بالعلم بالله وآياته.

ربنا تقبّل منّا إنك أنت السميع العليم واجعله ذخراً لنا ولجميع المؤمنين بحق محمّد وآله الطاهرين. تم والحمد لله رب العالمين بيد المحتاج إلى ربه الجواد.

عبد الله الجوادي الطبري الآملي.

حول العناصر الرئيسية للسياسة الاسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

تعريف السياسة

١ ـ ان السياسة صناعة يعرف بها تدبير الانسان بما له من الشؤون الفردية والاجتماعية، وبما له من العقيدة والخلق والعمل، وبما له مساس بالطبيعة، وبما له روابط خاصة مع أهله وقومه ومن يشاركه في النوع مع ماله ربط خاص بمبدئه ومبدىء الكل وهو الله الخالق لكل شيء.

٢ ـ أن السياسة حكمة عملية متفرعة عن الحكمة النظرية وتختلف باختلافها فمن كان رأيه أن الانسان موجود مادي صرف لأن كل موجود متحقق مادي، وأن ما ليس بمادي فليس بموجود وأن الانسان الموجود سيصير معدوما بحتا كما كان ليس محضا، وأنه لا حياة وراء الحياة الطبيعية، وأنه لا حساب ولا ميزان لأعماله الحسنة أو السيئة بعد الموت. فالسياسة عنده هي كيفية تدبير الانسان وإدارة شؤونه بحيث يأكل ويتمتع ويترف يتزيى بالأزياء، ويتكاثر ويقول أني أكثر مالا وأعز نفرا، يتبجح بأنه أحسن أثاثا ورئيا، ولا يبالي من أين كسب المال وأين أنفقه، حلالاً كان أو

حراماً. فعلى هذا تكون العناصر الرئيسية للسياسة مادية بحتة. وأما من كان رأيه أن الانسان مؤلف من نفس ناطقة لا تبيد ولا تموت، وبدن مادي وهو ـ أي الانسان ـ بماله حقيقة واحدة إنما تنقل من دار إلى دار، وأنها لا تنعدم رأساً بل تتحول من حالة إلى حال بما له من المعارف والأخلاق والأعمال وأن من وراء حياته الدنيوية برزخاً إلى يوم يبعثون، وأن هناك موقفاً توفى فيه كل نفس ما كسبت، وأن أمامه موطنا يتلو فيه كل نفس ما أسلفت وأن قدامه ميعادا علمت نفس فيه ما قدمت وأخرت.

فالسياسة عنده صناعة تهذيب الانسان وتصحيح روابطه الفردية والاجتماعية، بحيث يقوم بالقسط ويأمر بالعدل، ويؤثر غيره على نفسه وإن كان به خصاصة ويقول:

﴿لا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور﴾.

ويترنم بأنه **﴿قد أفلح من تزكى﴾** كما كان الأول يتصور بأنه **﴿قد أفلح اليوم من استعلى﴾**. فعلى هذا الرأي الثاني تكون العناصر الرئيسية للسياسة مؤلفة من الأمور المادية والمعنوية كما سيوافيك تفصيلها.

٣ـ وحيث أن محور الكلام هو تعيين العناصر الأصلية للسياسة الاسلامية، والاسلام دين إلهي يرى الانسان متحولاً من النشأة الأولى إلى الأخرة ليرى أعماله ويجزي بها، ويرى أن له مبدءاً أوجده. ومعاداً يصير هو إليه ويلقاه ويحاسب عنده. فالعناصر الأصلية للسياسة عنده مؤلفة من العلل الطبيعية ومن العلل غير الطبيعية، وفي ضوء هذا التمييز بين المذهبين المادي والالهي نقول: أن العناصر الرئيسية للسياسة الإسلامية أربعة:

الأول: هو العنصر المادي: وهو الانسان بما أنه نوع يعيش مع أبناء

نوعه، وله خصائص فردية، وخواص اجتماعية.

والثاني: هو العنصر الصوري: وهو الدين الالهي بما له من الحِكَم والأحكام وهو كرامة إلهية يتصور بها الإنسان، ويصير به كريماً في فضائله وفواضله وكريماً في عقائده وأخلاقه وأعماله، وكريما في روابطه الفردية والاجتماعية، وتتبلور سياسته في كرامته الشاملة.

الثالث: هو العنصر الفاعلي: وهو الله رب الإنسان ورب كل شيء، الحري بأن يديره ويربيه ويسوسه ويهديه إلى صراطه، ولا سائس سواه ولا رب غيره.

الرابع: هو العنصر الغائي: وهو الكمال المحقق والبهاء الصرف الذي لا كمال فوقه ولا بهاء وراءه: الجدير بأن يكون غاية للإنسان الكادح اليه، ونهاية له ينتهي بلقائه ويستقر لديه، وهو الله الذي إليه تصير الأمور فهو تعالى: الآخر كما أنه تعالى هو الأول.

فتحصل أن المسوس هو الإنسان بجميع شؤونه التي يعيش بها مع أوليائه وأعدائه وفي أدواره وأطواره، وأن سياسته وتدبيره هو كرامته وتكريمه لأن يتجلى الكرم في حياته السامية، وأن سائسه هو خالقه وربه الأكرم الذي علّم بالقلم علّم الإنسان ما لم يعلم، وأن هدفه العالي هو لقائه سائسه وزيارته ربه وأن تكون له قدم صدق عنده ومقعد صدق لديه.

فمن عرف حقيقة الانسان وواقعية الاسلام، وعرف خالقه الباري ومعاده الذي ينتهي إليه أمره فقد عرف السياسة الاسلامية، وأعرف الناس بالسياسة الاسلامية أعرفهم بتلك الحقائق المتقدمة، ومن جهل هاتيك الحقائق البارعة فقد جهل السياسة الاسلامية جهلاً تاماً لأن ذوات الأسباب

لا تعرف إلا بأسبابها. فمن جهل السبب فقد جهل بالمسبب حتماً كما أن من عرف السبب فقد عرف المسبب يقينا. وتمام الكلام وأن كان متوقفاً على تنميق المقال في تلك العناصر الأول إلاّ أن البحث المهم هنا هو في العنصر الصوري. أما العنصر المادي وهو الانسان المؤلف من نفس مجردة وبدن مادي فله موطن آخر. كما أن إثبات عنصري الفاعلي والغائي لهما موقف أجل وأعلا تكلفه الفلسفة الالهية الاسلامية بأبسط وجه.

وحيث أن القرآن تبيان لكل شيء، وهو يهدي للتي هي أقوم لأنه نور وبرهان وبصائر وشفاء لما في الصدور من الجهل والريب وأن رسول الله ﷺ مبين للناس ما نزّل اليهم، وأن من كان على وزن نفس رسول الله ﷺ وكان منه بمنزلة هارون من موسى عليه السلام ومن كان له أذن واعية تعي جميع ما ألقاه رسول الله ﷺ وأملاه وأفاضه وأفاده من خطبه وخطاباته وكتبه ﷺ ورسائله ﷺ وسيرته ﷺ وسنته، وكذا أهل بيته وعترته الكرام الذين هم حياة العلم وموت الجهل، والذين هم عطفوا الهوى على الهدى حينما عطف القوم الآخرون الهدى على الهوى فهذه الأمور ينابيع الدين ومصادر التبيين، ومسانيد التشريح فبذلك كله يستند في توضيح السياسة الاسلامية من بعدها الصوري وهو الدين المتبلور في كرامة الانسان بما أنه إنسان بحيث تكون الجامعة الانسانية المسلمة هو الإسلام الممثل.

وحيث أن الانسان موجود واع له تفكر وتخلق وعمل فهو لا يعمل شيئاً إلاّ بعد أن يراه حسناً بحاله، ولا يراه حسناً إلاّ بعد التفكير. فحياته حياة فكرية لا يعيش بدونها، كما أنه محتاج إلى غير واحد من الأمور ليس في وسعه وحده تكفلها بل لا بد من أن يعيش مع غيره من أبناء نوعه حتى يتكفلوا

معاً تأمين حوائجهم بأن يبذل كل واحد شيئاً للآخر ويأخذ شيئاً منه بالمعارضة أو نحوها، وهذا لا يتم بدون ضابط وقانون يعيشون في ضوئه وكما أن كل واحد منهم يجر النار إلى قرصه ولذا احتاجوا إلى قانون حافظ لمنافعهم وجامع لشملهم كذلك لا يمكن أن يجعل وضع ذلك القانون بأيديهم وإلاّ وقع التشاجر أيضاً لأن كل واحد منهم يضع قانوناً ينفعه أو ينفع أهله وقومه وأن ضرّ غيره. ولما كان اختلافهم في العمل الخارجي قد أوجب الافتقار إلى قانون يجمع شتاتهم كذلك اختلافهم في العمل الذهني والنفسي وهو الفكر والخلق والدواعي النفسانية وما إلى ذلك من الضغائن والأحقاد أو الآراء والأهواء يوجب الاحتياج إلى قانون معصوم عن الزيغ والطغوى بحيث لا ترى فيه عوجاً ولا أمتا. وحيث أن القانون المعصوم عن الخطأ والجهل صامت لا ينطق بل إنما هو سواد على بياض يمكن أن يفسر بما تهواه أنفس الطغاة، وأن يترجم بما يثير الضغائن والأحقاد، ويتخذ هزوا ولعباً يلعب به من يعطف الهدى على الهوى، ويستهزىء به من يحرف الكلم عن مواضعه فلا بد من إنسان كامل كافل لذاك القانون المصون عن كل نقص وشين، وقائم بأمره بحيث يفسره كما هو في نفسه، ويعلمه الناس ويبلغه إليهم، ويدعوهم إليه، ويسير فيهم بنفس ذاك القانون، ويذب عن حريمه، ولا يخاف في الله لومة لائم، ولا يمس كرامته خوف ولا حزن بل يسعى في حفظه بقلبه وقالبه، ويضحي بنفسه اتجاهه لأن في حفظ ذاك القانون الراقي تحفظ الانسانية وتصير مدنيتها فاضلة لا يسمع فيها شعار الجاهلية الجهلاء ـ «أنصر أخاك ظالما أو مظلوماً»[1] بل يسمع فيه صوت العدالة الانسانية.

(١) ... ولكن فسره رسول الله ﷺ بقوله: ولينصر الرجل أخاه ظالما أو مظلوماً أن كان ظالماً فلينهه فإنه له نصر وأن كان مظلوماً فلينصره ـ الجامع الصحيح مسلم الجزء الثامن، ص(١٩) باب نصر الأخ ظالماً أو مظلوماً ـ

«كونا للظالم خصماً وللمظلوم عوناً»[1] .

وفوق ذلك كله قول الله تعالى :

﴿ولا تكن للخائنين خصيما﴾[2] .

﴿ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار﴾[3] .

﴿ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾[4] .

وذلك الانسان الكامل الحافظ لحدود القانون المفسر له علماً المنفذ له عملاً هو الإمام السائس للناس على ميزانه بحيث لا يحيف ولا يجور فيه، ولا يفسره بالأهواء، ولا يعمل فيه بالآراء الخاصة، بل يقدسه كل التقديس، ويحفظه كل الحفظ عن التحريف والضياع.

فهذه العناصر الرئيسية لصورة السياسة ومادتها المشار إليها إجمالاٍ ولا بد في تفصيلها من تشريح الحياة الانسانية وما لها من العلل وما عليها من العوارض والصواعق، ومن تبيين محتوى ذاك القانون الرافع لجميع حوائجها، ومن تحليل رابطة الأمة والامام، ومن كيفية هداية ذلك الامام وولايته وتدبيره للمجتمع الانساني، ومن الحقوق المتقابلة.

ثم أن خصيصه السياسة الاسلامية التي هي الصورة الكاملة للانسانية سعيها البليغ في أن تعرّف الانسان حقيقته وتبينها له، لا بأن تكتفي بقولها :

«من عرف نفسه فقد عرف ربه».

---

(١) نهج البلاغة ص٤٢١ .
(٢) سورة النساء، الآية (١٠٥).
(٣) سورة هود، الآية (١١٣).
(٤) سورة المائدة، الآية (٢).

وقولها:

«أعرفكم بنفسه أعرفكم بربه».

بل تشهده على نفسه وتنبهه وتحيي ارتكازه النائم وتوقظه وتستدل على أن له نفساً لا تنعدم، وأن أعماله لا تزول وأن بين أعمالها وذاتها ارتباطاً خاصاً لا ينفصم. وأنه أن أحسن فقد أحسن لنفسه وأن أساء فلها ـ أي أن العمل مختص بعامله حسناً كان أو سيئاً، وأن كل إنسان بما كسب رهين.[1]

والحاصل أن السياسة الاسلامية ليست بأن تدبر الانسان الموجود وتدبره كائناً ما كان، وفي ضوء أية تربية نشأ وارتقى، بل بأن تعلمه الكتاب التكويني والتدويني، وتعلمه كتاب نفسه وتقول له في الدنيا إقرأ صحيفة ذاتك وتدبر فيها، وأجد التأمل في حقيقتك حتى تعلم من أنت ومن أين أنت، وفي أين أنت. وإلى أين أنت. كما تقول له في الآخرة.

﴿إقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾[2].

فهذه هي السياسة الحقيقية التي تسوس الانسانية وتدبرها وترزقها حياة طيبة لا مجال فيها لشوك الظلم، ولا التعدي، ولا نيران العصبية ولا وقود القومية الجاهلية، ولا سعير الطغيان، ولا أي داء من أدواء البشرية، بل تضع عنها اصرها والأغلال التي كانت عليها، وتحل لها الطيبات وتحرم عليها الخبائث، وتخرجها من الظلمات إلى النور وتهديها إلى صراط العزيز الحميد، وتحررها من عبودية الشهوة كما تعتقها عن رقية القسوة، وتعدلها بالعدل الجميل، وتقول:

---

(١) الاقتصاد للشيخ الطوسي ص١٤.
(٢) سورة الإسراء، الآية (١٤).

«أن عبد الشهوة أذل من عبد الرق»[1] .

وتنادي :

﴿إن الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهي عن الفحشاء والمنكر والبغي﴾ .

وتقول :

﴿قل أمر ربي بالقسط﴾ .

وتحطم التكاثر والتباهي بالكثرة والتفاخر بها فردياً كان كما في قوله تعالى :

﴿فخرج على قومه في زينته﴾[2] .

أو جمعياً كان كما في قوله تعالى :

﴿تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة إنما يبلوكم الله به﴾[3] .

وتهدم المعيار الجاهلي وتبين وهنه وفساده كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعليّ عليه السلام :

«أن الله تبارك وتعالى قد أذهب بالاسلام نخوة الجاهلية وتفاخرها بآبائها، ألا أن الناس من آدم وآدم من تراب وأكرمهم عند الله

---

(١) نهج البلاغة .
(٢) سورة القصص، الآية (٧٩) .
(٣) سورة النحل، الآية (٩٢) .

اتقاهم»[1] .

وتـؤسـس المعيـار الالهـي وتبيـن سـداده ودوامـه كمـا قـال رسـول الله ﷺ :

«لا فقر أشد من الجهل، ولا مال أعود من العقل ولا وحدة أوحش من العجب، ولا عقل كالتدبير، ولا ورع كالكف عن محارم الله، ولا حسب كحسن الخلق، ولا عبادة مثل التفكير»[2] .

وتنادي بأن النجاة في التحرر من أوزار الميول المهلكة وأثقال الأهواء المردية، وفي الانعتاق من أعباء الغرائز التي تكون على شفا جرف هار تنهار في نار جهنم كما قال رسول الله ﷺ :[3] .

وتصرح بأن صرح الاستقلال إنما هو على أساس الاستغناء عن غير الله تعالى يا صاح أقرأ ما قاله رسول الله وأعجب كيف تكون السياسة الاسلامية متبلورة في الكرامة، ويا لها من كرامة، حيث قال ﷺ :

«لأن أدخل يدي في فم التنين إلى المرفق أحب إلى من أن أسأل من لم يكن ثم كان»[4] .

كما كان سبطه علي بن الحسين السجاد عليه السلام يقول:

«إن طلب المحتاج إلى المحتاج سفه من رأيه، وضلة من عقله، فكم قد رأيت يا إلهي من أناس طلبوا العز بغيرك فذلوا، وراموا الثروة من سواك

(١) من لا يحضره الفقيه، ج ٤ ص ٢٦٢.
(٢) من لا يحضره الفقيه، ج ٤ ص ٢٧٠.
(٣) نجي المخفّون ج٤ ص٢٦٣.
(٤) من لا يحضره الفقيه، ج ٤ ص ٢٧٠.

فافتقروا وحاولوا الارتفاع فاتضعوا. . . »[1] .

وكذا يقول عليه السلام :

« سبحان ربي كيف يسأل محتاج محتاجاً، وأنى يرغب معدم إلى معدم. . . »[2] .

وهكذا يؤسس بنيانه على التقوى الذي هو الكرامة التي لا سياسة دونها كما لا كرامة في سياسة خالية من المعيار الالهي حيث يقول عليه السلام إذا نظر إلى أصحاب الدنيا:

« اللهم اعصمني من أن أظن بذي عدم خساسة، أو أظن بصاحب ثروة فضلا فإن الشريف من شرفته طاعتك، والعزيز من أعزته عبادتك، فصل على محمد وآل محمد ومتّعنا بثروة لا تنفد، وأيدنا بعز لا يفقد، وأسرحنا في ملك الأبد»[3] .

فانظر أيها الانسان الجائع إلى طعامك المعنوي وتبصر، أنه لا يسد جوعك إلا الكرامة التي هي السائسة التي تسوسك وتديرك لتصير كريماً، لا يظلم ولا ينظلم، ولا يخون ولا يأتمن الخائن، لا يفسق ولا يركن إلى الفاسق، لا يقول بالباطل لأن الباطل كان زهوقاً ولا يسكت عن الحق لأن الساكت عن الحق شيطان أخرس وتدبر القرآن الذي هو متن السياسة كيف تدرس الكرامة الأبية عن إفراط الضيم وتفريط الذل، لأن أول ما نزل منه هو ما يعلن بالكرم، ويدعو إليه حيث يقول عزّ من قائل:

---

(١) الصحيفة السجادية، دعاء (٢٨).
(٢) الصحيفة السجادية دعاء (١٣).
(٣) الصحيفة السجادية، دعاء (٣٥).

﴿اقـرأ وربـك الأكـرم * الـذي علـم بـالقلـم * علّـم الانسـان مـا لـم يعلم﴾[1] .

إشعاراً بأن مبدأ التعليم هو الله الأكرم فحينئذٍ يكون التعليم تكريماً، والعلم كرامة، والمتعلم وهو الانسان متكرماً فلا يحوم حوله وهن ولا هون ولا ذلة ولا مسكنة ولا صغار ولا دناءة إذ لا مجال لشيء من ذلك في مجال الكرامة ـ وهكذا آخر ما نزل منه هو يورث الكرامة ويجلب إليها، ويرغب الانسان نحوها، ويخصه عليها حيث يقول سبحانه وتعالى:

﴿واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾[2] .

لأن التقوى في لسان الوحي الكريم هو المعيار للكرامة وحسب وأن درجات الكرامة تتبع درجات التقوى فمن كان تقياً كان كريماً، ومن كان اتقى كان أكرم، ولا قيمة للانسان إلا بالكرم. ولذا قال سبحانه وتعالى:

﴿ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطّيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا﴾[3] .

فمن لا تقوى له لا كرامة له، ومن لا كرامة له لا إنسانية له، فلذا قال مولانا علي بن الحسين عليه السلام في دعائه:

«والحمد لله الذي لو حبس عن عباده معرفة حمده على ما أبلاهم من مننه المتتابعة، وأسبغ عليهم من نعمه المتظاهرة، لتصرفوا في مننه فلم

---

(١) سورة العلق، الآيات (٣ ـ ٥).
(٢) سورة البقرة، الآية (٢٨١).
(٣) سورة الإسراء، الآية (٧٠).

يحمدوه وتوسعوا في رزقه فلم يشكروه، ولو كانوا كذلك لخرجوا من حدود الانسانية إلى حد البهيمية، فكانوا كما وصفهم في محكم كتابه ﴿إن هم إلاّ كالأنعام بل هم أضل سبيلا﴾[1] .

والكرامة هي المتجلية في طاعة الله فحسب متحرراً من أغلال الأهواء الداخلية ومنعتقاً من سلاسل الميول الخارجية حيث يقول رسول الله ﷺ :

« لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»[2] .

وحيث أن الفصل الأخير للانسانية هو الكرم، وإن الكرم بتقوى الله فحسب فيتعين أن يكون هو المعيار السائس الذي يسوس الانسان، ويدور الإنسان معه حيثما دار، فلا عبرة بالقومية، ولا باللغة، ولا باللون، ولا بأي وصف خارجي أجنبي عن الانسانية، كما قال رسول الله ﷺ :

« لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي إلاّ بالتقوى»[3] .

رغما لأنف من يجعل المعيار القومية أو نحوها فلذا نبشوا القبور وحفروا الآثار، وتفاخروا بعظام بالية غافلين عن كون التفاخر بالهمم العالية والسر فيه أن التكاثر قد ألهاهم حتى زاروا القبور، وتباهوا بأحجار ضخام، وأثار فخام لديهم قد نسفها الاسلام نسفا، وأبادها وجعلها هباء منثوراً.

ولا ريب في أن الانسان عطشان للسياسة التي تسوسه، فإن وجد الكرامة السائسة فقد ارتوى رياً بالغاً لا ظمأ بعده إذ ليس وراء الكرامة شيء، وإن لم يجدها فقد ابتلي بسراب اللون أو القومية أو الثروة أو الخصوصية

---

(١) الصحيفة السجادية، دعاء (١).

(٢) من لا يحضره الفقيه ج٤ ص٢٧٣ .

(٣) خطبة حجة الوداع، (١).

المكانية أو غير ذلك مما هو خارج عن حريم انسانيته، ولا مساس لشيء من ذلك بحقيقته التي هو بها إنسان، كما ابتلي الصهاينة بهذا الداء العَيَاء والمرض العُضَال حيث ينتهون في بيداء القومية البائدة، ويتحيرون في الأرض الاسرائيلية البائرة ويهرشون في وادي اليهودية الهاذية الهاذرة ولقد نطق الوحي الكريم بذلك حيث يقول؛

﴿ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائماً ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾[(١)] .

فقد كانوا يزعمون كما أنهم اليوم على زعمهم (حسبما أفاده سيدنا الأستاذ العلامة الطباطبائي قدس الله نفسه الزكية في تفسيره القيم ـ الميزان ـ) أنهم هم المخصوصون بالكرامة الالهية لا تعدوهم إلى غيرهم. بما أن الله سبحانه جعل فيهم نبوة وكتاباً وملكاً فلهم السيادة والتقدم على غيرهم واستنتجوا من ذلك الحقوق المشرعة عندهم اللازمة المراعاة عليهم كحرمة أخذ الربا وأكل مال الغير، وهضم حقوق الناس إنما هي بينهم معاشر أهل الكتاب فالمحرم هو أكل مال الاسرائيلي على مثله، والمحظور هو هضم حقوق يهودي على أهل ملته. وبالجملة إنما السبيل على أهل الكتاب لأهل الكتاب، وأما غير أهل الكتاب فلا سبيل له على أهل الكتاب، فلهم أن يحكموا في غيرهم ما شاؤوا، ويفعلوا في من دونهم ما أرادوا. وهذا يؤدي إلى معاملتهم لغيرهم معاملة الحيوان الأعجم كائنا من كان. . .[(٢)]

ولعله لهذا ولغيره من دسائس الحيل قال سبحانه وتعالى:

---

(١) سورة آل عمران، الآية (٧٥).

(٢) . . . الميزان ج ٣ ص (٢٨٦).

﴿ولا تزال تطلع على خائنة منهم﴾[1] .

وحيث أن الكرامة التي تسير إليها الانسانية، وتصل إليها وتتصور بها، حقيقة نفسية نفيسة فليست اعتباراً تناله يد الجعل والوضع، إيجاباً تارة وسلباً أخرى. وحيث أن الحقائق الغيبية لها مباد وأسباب خاصة تجب بها وتمتنع دونها فللكرامة صراط مستقيم يوصل إليها من سلكه، ولا يمكن الوصول إليها بدونه، فلها سبيل خاص يهدي سالكه إليها، ولا يمكن نيلها بأي سبيل آخر. ومن هنا يتضح الفرق بين السياسة الاسلامية وغيرها من السياسات المادية التي لا تعرف الكرامة: إذ الأهداف هناك تبرر الوسائل كائنة ما كانت (نحو هلاك الحرث والنسل) ولذا يسومون الضعاف سوء العذاب ويذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم، وإذا ما بطشوا بطشوا جبارين ولا يعرفون إلاّ أهدافهم المشؤومة. بخلاف السياسة الاسلامية التي لا تُجَوّز الانتصار بالجور، ولا تسمح بالظلم ولا تجعله ذريعة إلى الفتح والغلبة كما قال علي عليه السلام:

«أتأمروني أن أطلب النصر بالجور»[2] .

ومنشأه هو قول الله تعالى:

﴿قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون﴾[3] .

وإلى هذا الأصل المهم أشار مولانا السجاد عليه السلام بقوله:

«يا من لا تغير حكمته الوسائل».

---

(١) سورة المائدة، الآية (١٣).

(٢) . . . نهج البلاغة، الخطبة (١٢٥).

(٣) سورة الزمر، الآية (٦٤).

لأن الحكمة هي الصفة الخاصة التي تقتضي إيصال كل موجود إلى كماله المقدر له، ولا يتغير بالذرائع والوسائل بأن لا تقتضي الإيصال إلى الكمال، أو تقتضي الإيصال إليه من غير سبيله. نعم قد يترك المهم لفوز الأهم ولكنه مضبوط يعرفه العقل، ولا ينكره الشرع. كما أن له ميزاناً خاصاً لا يمكن أن يتعداه، فكم فرق بينه وبين ما مرّ من تبرير الهدف وسائله الموصلة إليه كائنة ما كانت ولو بسفك الدماء البريئة:

﴿إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون﴾[1].

ولذا ترى السياسة المادية الطاغية تبرر الوسائل أهدافها المسمومة قبل الانتصار، ولا تتورع عن افتراسها وتكالبها ونهبها وسبيها وإحراقها وما إلى ذلك بعد الغلبة والفتح. وأما السياسة الاسلامية الكريمة فتمتنع عن ذلك كله حدوثاً وتنهي عنه بقاء ولذا قال علي بن أبي طالب عليه السلام لجيشه:

«لا تقتلوا مدبراً، ولا تصيبوا معوراً، ولا تجهزوا على جريح»[2].

ودعا ربه بقوله:

«... إن أظهرتنا على عدونا فجنبنا البغي، وسددنا للحق، وإن أظهرتهم علينا فارزقنا الشهادة، واعصمنا من الفتنة»[3].

---

(١) سورة النمل، الآية (٣٤).
(٢) نهج البلاغة، الكتاب (١٤).
(٣) نهج البلاغة، الخطبة (١٧١).

فإذا تبيّن إجمالاً أن السياسة الانسانية تكمن في كرامتها، وأنها تدور معها حيثما دارت، ولا تحيد عنها، فيلزم البحث عن مقتضى الكرامة وشؤونها المهمة ولوازمها وآثارها فيما يلي.

إن السياسة الاسلامية
تنفي السلطة على الانسان عن غير الله

أن الكرامة تقتضي أن لا يعبد الأنسان ولا يطيع إلا خالقه الذي هو خالق كل شيء، ولا يخضع إلاّ له، ولا يحتاج إلاّ إليه، ولا يسأل إلاّ إياه، ولا يتوكل إلاّ عليه ولا يثق إلاّ به، ولا يسلك إلاّ سبيله، وبالتالي لا يموت ولا يحيى إلاّ له. كما أمر الله تعالى أكرم خليقته وأشرف بريته ﷺ بذلك حيث قال:

﴿قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين﴾[1].

ثم أمر الناس باتخاذه ﷺ أسوة فقال عز من قائل:

﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾[2].

فليس لغير الله تعالى سلطة على الانسان كما بينه تعالى بقوله:

---

(١) سورة الأنعام، الآية (١٦٢).
(٢) سورة الأحزاب، الآية (٢١).

﴿ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون * ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون﴾(١) .

وبقوله تعالى:

﴿وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتَّخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب * ما قلت لهم إلاّ ما أمرتني به أن أعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد﴾(٢) .

فليس لأحد أن يدعي السلطة على الناس. كما أن الكرامة الانسانية تأبى الخضوع لغير الله فلا إله إلاّ الله ولا رب سواه.

وأما طاعة الأنبياء العظام، والمرسلين الكرام، والأئمة البررة ففي الحقيقة إطاعة الله لأن الإمام لا شأن له إلاّ الخلافة عن الرسول، والرسول بما أنه رسول لا شأن له إلاّ إبلاغ ما يتلقى من الوحي بلا زيادة ولا نقيصة لأنه ﴿وما ينطق عن الهوى إن هو إلاّ وحي يوحى﴾ فليس له أن ينطق بما يهوى، أو يحكم بين الناس بما يرى، بل يحكم بينهم بما أراه الله حيث قال:

---

(١) سورة آل عمران، الآيتين (٧٩ـ٨٠).

(٢) سورة المائدة، الآيتين (١١٦ـ١١٧).

﴿لتحكم بين الناس بما أراك الله﴾[1] .

﴿وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك﴾[2] .

﴿فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى﴾[3] .

وحيث أن الحكم لا بد وأن يكون بالحق وأن الحق لا يكون إلّا من الله فحسب كما قال تعالى:

﴿لقد جاءك الحق من ربك فلا تكوننّ من الممترين﴾[4] .

فالحكم لا يكون إلّا بما أنزل الله، وأما الحكم الذي لا يكون بالحق (أي بما أنزل الله) فهو جور وجاهلية ـ شرقية كانت تلك الجاهلية الجائرة أم غربية ـ حيث قال الله تعالى:

﴿أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون﴾[5] .

وكما لا شيء عدا الحق إلّا الضلال إذ:

﴿فماذا بعد الحق إلّا الضلال﴾[6] .

فكذلك ماذا بعد الحكم بالحق إلّا الجاهلية ـ فتحصل أن الرسول ﷺ وكل من كان إماماً معصوماً فهو مع الحق، كما أن الحق معه

---

(١) سورة النساء، الآية (١٠٥).
(٢) سورة المائدة، الآية (٤٩).
(٣) سورة ص ، الاية (٢٦).
(٤) سورة يونس، الآية (٩٤).
(٥) سورة المائدة، الآية (٥٠).
(٦) سورة يونس، الآية (٣٢).

يدور معه حيثما دار، ولكن الحق من الله فكم فرق بين موجود يكون مع الحق وبين مبدئه المتعال الذي يكون منشأ الحق ومنه الحق. فعلى هذا التحليل تكون إطاعة الولي المعصوم هي إطاعة الله لُباً كما أشار إليه قوله تعالى:

﴿وما أرسلنا من رسول إلّا ليطاع بإذنه﴾[1].

حيث يدل على أن إطاعة الرسول إنما هي بإذن الله، وحيث أن:

﴿والله يقول الحق وهو يهدي السبيل﴾[2].

فحكم الله تعالى بإطاعة الرسول مسبوق بتعليمه الحق إياه، وأمره بإبلاغ ذلك الحق إلى الناس ثم أمر الناس بإطاعة ذاك الرسول.

وحاصله أن إطاعة الرسول ـ بما أنه رسول ـ هو تكريم للرسالة، وأن الرسالة ـ بما هي رسالة ـ لا شأن لها إلّا إظهار الحق من الله سواء كان في التشريع بالإيجاب والتحريم، أو في التكوين بالاحياء والأمانة ـ مثلاً ـ لأنه مظهر فعله تعالى على التوحيد الأفعالي، يده بمنزلة يده تعالى كما أشار إليه بقوله:

﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم﴾[3].

على غرار قوله تعالى:

﴿وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى﴾[4].

---

(١) سورة النساء، الآية (٦٤).
(٢) سورة الأحزاب، الآية (٤).
(٣) سورة الفتح، الآية (١٠).
(٤) سورة الأنفال، الآية (١٧).

فحينئذٍ تنحصر الطاعة في أمر الله تعالى ونهيه، فما وافق حكمه تعالى يطاع، وما خالفه يطرح ـ كائنا ما كان ـ كما قال رسول الله ﷺ:

«لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»[1].

وحاشا الرسول ﷺ والامام المعصوم عليه السلام أن ينطق بما يخالف الحق أو يأمر بالباطل أو يعمل بما يهواه، فتبين أن النبي ﷺ وإن كان:

﴿أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾[2].

ألا أن تلك الولاية هي من مظاهر ولاية الله تعالى فهو ﷺ مظهر السلطة الالهية لا أنه سلطان مستقل بنفسه ومما يؤيد أن النبوة والرسالة ـ بما لهما من الشؤون المهمة ـ مظهر لقول الله تعالى وفعله، ومجلى لقهره ولطفه، ومرآة لجماله تعالى وجلاله تعالى ـ قوله تعالى:

﴿إنه لقول رسول كريم * وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون * ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون * تنزيل من رب العالمين * ولو تقول علينا بعض الأقاويل * لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين * فما منكم من أحد عنه حاجزين﴾[3].

حيث يدل على أن شيئاً من أقاويله التي يبلغها لا تكون من عنده وتقولا على الله وافتراء عليه، والا لكان ما كان من الأخذ باليمين، وقطع الوتين مع عدم الحجز والمنع من أحد لأنه تعالى هو القاهر فوق عباده ولا

---

(١) . . . نهج البلاغة صبحي صالح ص، (٥٠) من لا يحضره الفقيه، ج ٤ ص ٣٧٢.
(٢) سورة الأحزاب، الآية (٦)
(٣) سورة الحاقة، الآيات (٤٠ـ ٤٧).

راد لقضائه ولا معقب لحكمه»[1] .

وهكذا سيرته ﷺ وسنته العملية التي تكون حجة إلهية للناس سيرة مرضية إلهية حسبما أشير إليه وحيث أن جميع شؤونه ﷺ مظاهر شؤون الله الذي كل يوم هو في شأن فمن كذّب شيئاً في أقواله ﷺ أو أفعاله ﷺ فإنما كذّب الله تعالى في قوله وفعله حيث قال تعالى:

﴿قد نعلم ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون﴾[2] .

لدلالته على أن تكذيبه ﷺ ليس تكذيباً لشخصه ورداً لمقالته من حيث هو شخص خاص وإنسان مخصوص، بل هو جحد وإنكار لآيات الله تعالى لأن رسول الله ﷺ بقوله وفعله وقلبه وقالبه آية إلهية، فتكذيبه ﷺ تكذيب الله، كما أن تصديقه تصديق الله تعالى. ومما يرمز إلى ذلك من أن جميع تلك الشؤون الدينية إنما هي بالأصالة لله تعالى، وإنما هي لغير الله من جهة كونه آية له ومظهراً محضاً له قوله تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا﴾[3] .

حيث أنه تعالى ثلث الأمر أولاً، وثناه ثانياً، ووحده ثالثاً. لأنه في أول قوله تعالى أوجب إطاعة الله وإطاعة الرسول وأولي الأمر، وفي ثاني قوله

---

(١) . . . الرعد، (٤١) مضافا إلى أنه قد يكون مورد التنازع هو نفس أولي الأمر.
(٢) سورة الأنعام، الآية (٣٣).
(٣) سورة النساء، الآية (٥٩).

تعالى جعل الحَكَم والمرجع الذي يرجعون إليه عند التنازع أمرين: أحدهما نفسه تعالى والثاني رسوله ﷺ، ولم يذكر لأولي الأمر إسم لأن جميع شؤون أولي الأمر إنما هي مبرزات شأن الرسول ﷺ، ومظاهر سنته وليس لغيره ﷺ شأن مستقل[1] وفي ثالث قوله تعالى وهو ذيل الآية الكريمة جعل المعيار والميزان في ذلك الطوع وهذا الرجوع أمر واحد لا ثاني له ولا شريك له: وهو الإيمان بأن الله تعالى هو الأول الذي منه يصدر كل شيء، والآخر الذي إليه ينتهي كل شيء فليس لغيره تعالى شأن مستقل. وهذا هو التوحيد وعياً وإرادة فتدبر.

فتحصل أن السياسة الاسلامية التي تدور مدار كرامة الانسان تقتضي أن لا سلطنة لأحد على أحد. فليس لأحد أن يدعيها، وليس لأحد أن يتحملها، بل هي لله تعالى فحسب. ففي أي مورد حكم الله تعالى بالاتباع وجب اتباعه طوعاً ورغبة، وفي أي مورد نهى الله تعالى عنه وجب الانتهاء عنه. وقد أمر الله تعالى باتباع رسوله حيث قال:

﴿وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾[2].

وقال تعالى أيضاً:

﴿خذوا ما أتيناكم بقوة﴾[3].

أي بقوة القلوب وقوة الأبدان فيجب أخذ ما أتاه الرسول بقوة القلب والقالب معاً.

---

(١) ... مضافا إلى أنه قد يكون مورد التنازع هو نفس أولى الأمر.
(٢) سورة الحشرة، الآية (٧).
(٣) سورة البقرة، الآية (٦٣).

إن السياسة الاسلامية
تحوم حول الأمة الواعية والامام العادل الحق

قد تقدمت الاشارة إلى أن الحياة الانسانية الاجتماعية لا تتحقق بدون النظام والتشكيل، وهو قد يكون بالشورى وقد يكون بالإمامة ـ بمعنى أن الحاكم الذي يرجع إليه في حل المشاكل وبيده أزمة أمور المملكة وتنفيذها، وحفظ ثغورها، وجباية أموالها والذب عنها، ودعوة الناس إلى النفر والحرب، والصراع أو السلم، والمعاهدة والمهادنة، وما إلى ذلك هل هو شخص واحد جامع لجميع الشرائط، أم الأشخاص عديدون يتشاورون ويتبادلون وجهات النظر فيؤخذ بالمجمع عليه أو المشهور بينهم ـ لأنهم أما يتفقون على أمر فهو المجمع عليه، أو يختلفون فيه بالأكثر والأقل فهو المشهور لديهم ـ ولكل من المسلكين فوائد ومزايا ولكن الأولى هو الأول مهما أمكن لما جرت عليه سيرة الأنبياء حيث أنه لم تعهد نبوة استشارية، ولا رسالة بالشورى، بل أن تعدد الأنبياء في عصر فإما أن كان يختص كل واحد منهم بقوم وقطر من الأرض أو كان بعض منهم تابعاً لآخر نحو تبعية لوط

لابراهيم عليه السلام.

﴿فأمن له لوط﴾[1].

أو نحو تبعية هارون عليه السلام لموسى عليه السلام وأن كان شريكاً في أمره، ولكن لم يكن مساوياً له بل كان وزيراً وعضدا لموسى عليه السلام وهكذا جرت سمة الإمامة للأئمة عليهم السلام حيث أنه لم تعهد أمامة استشارية، ولا خلافة وأمامة بالشورى بل أن تعدد الأئمة في عصر كانت أمامة بعضهم بالفعل دون بعض، وأن أمكن أن تكون ولايتهم التكوينية وما لهم من المقامات النفسية (التي لا تنالها يد الجعل والنصب الاعتباري كما لا تصل إليها يد النزع والغصب) بالفعل.

وأما المشورة وأن ورد في مدحها أنه:

«ما خاب من استشار».

وأنه:

«من استبد برأيه هلك».

وفي صلاح الزوجين الذين يخاف شقاقهما دعوة إلى بعث الحكمين ولكن في الفصال والطلاق ورد:

﴿فإن أرادا فصالاً عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما﴾[2]

وهكذا ورد في مدح سيرة المؤمنين الواجدين لعدة شرائط:

(١) سورة العنكبوت، الآية (٢٦).
(٢) سورة البقرة، الآية (٢٣٣).

﴿وأمرهم شورى بينهم﴾[1] .

وهكذا أمر الله رسوله ﷺ بالمشاورة حيث قال تعالى:

﴿وشاورهم في الأمر﴾[2] .

ولكن لا يدل شيء من ذلك على لزوم كون القيادة بالمشورة والزعامة بالشورى. أما الأدلة الدالة على حسن الاستشارة فليست على حد ويعارض ما يدل على نظام الإمامة وإن الناس يحتاجون إلى إمام يديرهم لأن لسان تلك الأدلة هو مدح المشورة الذي لا كلام فيه دون تعيين كيفية الحكومة، وأما ما يدل على أن أمير المؤمنين بالشورى ففيه: أولاً - إنه يختص بما كان ذلك الأمر هو أمرهم يعني إذا كان تعيينه بأيديهم، وأما إذا كان هو أمر الله لا أمرهم فلا مجال للشورى فيه. وحيث أن السياسة الاسلامية - كما تقدم - يقتضي أن لا يكون لأحد على أحد سلطة إلا من قبل الله تعالى وتعيينه، فتعيين كيفية الحكومة والسلطنة بيد الله تعالى فهو أمر الله لا أمر الناس حتى يشاور بعضهم بعضاً ويستشيروا، ولو سلم فإنما الاستشارة في تعيين القائد لا أن تكون القيادة بالشورى (وكم فرق بينهما) وما وقع في صدر الاسلام كان من قبيل المشاورة في تعيين الزعيم لا أنه كانت الزعامة بالشورى. وإلى هذا الأمر الدقيق أشار مولانا علي بن أبي طالب عليه السلام بقوله:

(... وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار، فإن اجتمعوا على رجل وسموه إماماً كان في ذلك لله رضي، فإن خرج عن أمرهم خارج بطعن أو بدعة ردوه إلى ما خرج منه، فإن أبى قاتلوه على أتباعه غير سبيل المؤمنين

---

(١) سورة الشورى، الآية (٣٨).

(٢) سورة آل عمران، الآية (١٥٩).

وولاه الله ما تولى)[1] .

حيث بين عليه السلام أن أمرهم إنما هو تعيين الإمام بالمشاورة لا أن الإمامة بالشورى بأن تكون هناك أئمة يتشاورون، وأن تكون القيادة بالشورى.

نعم للإمام أن يستشير قومه ويشاورهم ولكن التصميم بيده والعزم بإرادته، والحزم بقلبه، فلذا قال الله تعالى:

﴿وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله﴾ .

حيث جعل العزم النهائي، والتصميم الغائي بيده. ومن هذا الباب قال علي عليه السلام لإبن عباس:

«لك أن تشير علي وأرى، فإن عصيتك فاطعني»[2] .

واصل ذلك قوله تعالى:

﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم﴾[3] .

حيث يدل على أن أمر الرسالة وتصميم الرسول ليس بالشورى، فليس لغيره حق في النظر النهائي، والتصميم الغائي، وهكذا من هو بمنزلة الرسول، وهو الامام العدل الحق.

فتحصل أن الشورى إنما هو في تعيين القائد وانتخابه لا في القيادة الا

---

(١) نهج البلاغة، الكتاب (٦).
(٢) نهج البلاغة، صبحي الصالح: الكلمات القصار: ص ٥٣١: د.
(٣) سورة الأحزاب، الآية (٣٦).

أن تتعذر الإمامة ولم يتيسر لشخص معين، وادعى غير واحد القيادة ولم يمكن تعيين احدهم فحينئذ لا علاج الا بأن تكون القيادة بالشورى حسما للتشاح، وفصلا للتنازع (نعوذ بالله منه).

بقي هاهنا أمران: أحدهما لزوم كون الأمة واعية في انتخاب إمامها وثانيهما لزوم كون الامام جامعا لشرائط الإمامة. وكلاهما في غاية الأهمية في السياسة الاسلامية.

أما الأمر الأول فيلزم أن تكون الأمة من الوعي بدرجة تكفيها في معرفة شرائط الإمامة وفي اجتماعها فيمن يدعي الإمامة، أو يريدون تعيينه لها. وهذا الأصل هو الموجب لأن تكون لرأي الجمهور قيمة، والا فلا قيمة لرأي من لا يعرف الإمامة وشؤونها وشرائطها ولا لرأي الجمهور الجاهل بشأنها وإنما القيمة لرأي من يعلم الحق ويعرفه. كما قال عزمن قائل:

﴿ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق﴾[١] .

حيث أنه تعالى جعل معيار التشخيص والتحقيق رأي العلماء ومن أتاه الله العلم، والا فلا وقع له. وهكذا استدل رسول الله ﷺ واحتج على قومه بقوله:

﴿فقد لبثت فيكم عُمُراً من قبله أفلا تعقلون﴾[٢] .

يعني أنهم لو تفكروا وتعقلوا لعرفوا أنه رسول الله، وأن ما جاء به هو وحي أنزله الله، فيؤمنون به ﷺ، ويخضعون لأمره خضوعاً لأمر الله تعالى، وأما الذين لا يعرفون الإمامة وشرائطها، ولا يعلمون الحكومة

---

(١) سورة سبأ، الآية (٦).

(٢) سورة يونس، الآية (١٦).

وشؤونها: فلا كرامة لهم ـ كما تقدم ـ ولذا قال الحكيم في كتابه الكريم:

﴿فاستخف قومه فأطاعوه﴾[1]

يعني أن فرعون وجد قومه خفاف العقول خالين من المعرفة والتحقيق وقد عمل هو شخصياً على تركيز الجهل وعدم المعرفة لديهم بحرمانهم من الوعي والتعليم ثم طلب منهم الطاعة فأطاعوه إماما، والجهل داء لا دواء له لأنه لا فقر أشد من الجهل كما أنه لا مال أعود من العقل فيا ليت الشعوب والجماهير نبهت الحكومات ووعتها حتى ينقطع شر الطغاة والفراعنة:

﴿فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمدلله رب العالمين﴾[2].

وحيث أن القرآن عين الكرامة ولا يمس كرامته شيء من الاهمال وكان العمل به موجباً لأن تصير الجامعة الانسانية كريمة كما تقدم فقد عين واجب الأمة في انتخاب إمامها بأنه لا بد وأن تكون الأمة واعية وعارفة وذكية كي لا تتحمل الضيم. وقال الله تعالى:

﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد * كتب عليه أنه من تولاه فانه يضله ويهديه إلى عذاب السعير﴾[3].

يعني أن الكلام في الله تعالى لا بد وإن يستند إلى علم عقلي أو نقلي معتبر فمن يجادل فيه بغير علم فهو جاهل، ويكون انتخابه وتعيينه من يحكم عليه بغير وعي ومعرفة، فلذا يتبع كل إمام وزعيم وقائد كائنا من كان شرقياً أو غربيا، ملحدا أو منافقاً، خائناً أو عميلاً للأجنبي، فيتبع كل شيطان متمرد

---

(١) سورة الزخرف، الآية (٥٤).
(٢) سورة الأنعام، الآية (٤٥).
(٣) سورة الحج، الآيتين (٣ ـ ٤).

على حكم الوحي والعقل. فهذه الأمة الخفيفة الوعي.. يمتلكها كل شيطان مارد، وتنهب معادنها وذخائرها الأيادي الخائنة، فتذهب هذه الأمة الجاهلة ضحية جهلها وحرمانها من كرامتها التي يدعوها إليها الاسلام ويأمرها بها.

وأما الأمر الثاني فيلزم أن يكون الامام مع كونه عادلا بإطاعة مولاه في جميع ما أمره وندبه إليه بالاتيان، وفي جميع ما نهاه عنه وزجره عنه بالامتناع والانتهاء عنه بترك الأهواء والميول(١) صائناً لنفسه مستقلاً في رأيه ومالكا لوعيه وحراً في إرادته حتى لا يطمع فيه أهله، ولا غير أهله، ولا نفذ إلى قلبه من كان من أهله أو أجنبياً عنه ولا يمكر به الداخلي ولا الخارجي ولا يستفزه القريب والغريب ولا يستخفه الصديق والعدو حتى يليق بزعامة الأمة وقيادة الملة (التي يعمل فيها التقي بخلاف غيرها من الأنظمة الفاجرة التي يتمتع فيها الشقي)(٢) ولقد عيّن القرآن الكريم وظيفة الامام المتبوع بأنه لا بد وأن يكون عالماً بالله، وهاديا إلى سبيله، وسائراً في صراطه حتى لا يضل الناس ولا يمنعهم عن خيرهم المقدر لهم حيث قال الله تعالى:

﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير * ثاني عطفه ليضل عن سبيل الله له في الدنيا خزي ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق﴾(٣).

يعني أن المجادل في الله لو لم يكن جداله مستنداً إلى برهان عقلي، أو وحي سماوي بلا واسطة أو هداية مستفادة من الوحي مع الواسطة يكون

---

(١) ... في صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ حرم الله الجنة على الوالي الغاش لرعيته - الجزء الأول ص: (٨٨).
(٢) نهج البلاغة خطبة ٤٠.
(٣) سورة الحج، الآيتين (٨ - ٩).

ضالا، فإذا ادعى الإمامة والمتبوعية والحال هذه فلا شأن له إلا الضلال الموجب لخزي الدنيا وعذاب الحريق في الآخرة ـ فكما أن منطوق الآية الثالثة من سورة الحج ينادي بلزوم الوعي في الأمة والجمهور كذلك يعلن لزوم القداسة في الامام حتى يكون إماماً عادلاً، وهادياً إلى صراط العزيز الحميد كما يلزم أن تكون الأمة عارفة والجمهور عالماً حتى تكون أمة مرحومة تنال خيرها المقدر لها وكما أن خفة الأمة وجهلها كانت تستوجب اتباعها لكل شيطان مريد ولأن يسيطر عليها كل فرعون حيث أن لكل موسى فرعون كذلك فان خفة الامام وعدم صيانته النفسية وعدم حريته الارادية توجب لأن يغفل عمن يمكر به فلذا قال الحكيم في كتابه الكريم:

﴿فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون﴾ (١).

وحيث أن المتبوع الجائر أن أتيح له أن يقول ﴿ما علمت لكم من اله غيري﴾ وأن يقول ﴿أنا ربكم الأعلى﴾ لا يتحاشى عنه مع استخفاف التابعين، فإن لم يمكن له ادعاء الالوهية فهو يقنع بادعاء الظلية ويقول «أنا ظل الله» وما إلى ذلك مما لا يقوله الا الخفيف ولا يقبله إلا المستخف فكلاهما في النار بقوله تعالى:

﴿وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين﴾ (٢).

﴿يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود﴾ (٣).

والسر في ذلك كله هو أن كل أناس يلحقون بإمامهم يوم القيامة كما

---

(١) سورة الروم، الآية (٦٠).
(٢) سورة القصص، الآية (٤٢).
(٣) سورة هود، الآية (٩٨).

قال عز من قائل: ﴿يوم ندعو كل أناس بإمامهم﴾[1] .

وحيث أن الأمة الجاهلية تدور مدار العصبية والشيطان كما قال علي بن أبي طالب عليه السلام في وصف الشيطان بأنه:

«إمام المتعصبين وسلف المستكبرين»[2] .

فلذا تحشر الأمة الجاهلة معه في جهنم كما في قوله تعالى:

﴿لأملأن جهنم منكم أجمعين﴾[3] .

إن السياسة الاسلامية تعتقد أن الأمة أمانة، وإن الامام أمينها قد انصرح أن النظام الاسلامي يستقر على ركنين أحدهما الأمة الواعية، وثانيهما الامام العادل الحق. فاللازم هنا التصريح بأن مقتضى الكرامة السائسة هو أن تكون الأمة بقضها وقضيضها، ونفسها ونفيسها، أمانة الهية، وأن يكون الامام أمين هذه الأمة لا يخونها أصلاً، بل يعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ويهديهم إلى صراط العزيز الحميد ويشاورهم فإذا عزم فليتوكل على الله ويبين لهم ما جرى لهم وعليهم ويحفظ كيانهم ويطرد عنهم الفقر الفكري والمالي، ويذب عن حريمهم، ويسد ثغورهم، وما إلى ذلك من شؤون القيادة كل ذلك بأيديهم وأنفسهم ونفائسهم وأبدانهم وأموالهم لأن ارتباط الأمة والامام ارتباط الأعضاء والقلب كما استفاده هشام من جعفر بن محمد الصادق عليه السلام واحتج به على عمرو بن عبيد المنكر للإمامة المعهودة والقيادة الخاصة[4] والدليل على كون الأمة أمانة بيد الامام ما قاله

---

(١) سورة الاسراء، الآية (٧١).

(٢) ... نهج البلاغة الخطبة القاصعة: (١٩٢).

(٣) سورة الأعراف، الآية (١٨).

(٤) ... أصول الكافي: كتاب الحجة.

موسى عليه السلام لقوم فرعون:

﴿أن أدّوا إليّ عباد الله إني لكم رسول أمين﴾[1].

يعني يجب عليكم أن تودوا هذه الأمة (التي لا رب لها إلا الله) اليّ لأني رسول أمين في أصل الرسالة والابلاغ، وأمين في حفظ هذه الأمانة الالهية:

﴿وقال موسى يا فرعون إني رسول من رب العالمين * حقيق على أن لا أقول على الله الا الحق قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معي بني اسرائيل﴾[2].

يعني يلزم أن تكون أمة بني اسرائيل تحت تدبير موسى عليه السلام وتربيته عليه السلام ويكون هو عليه السلام كفيلا لهم وحافظاً إياهم حسبما أشير إليه، وكما أن الإمامة عهد إلهي لا ينال الظالمين ولا يمس كرامته الظالمون كذلك الأمة أمانة إلهية لا تؤدي إلّا إلى أهلها وهو الامام العدل الحق وكما أن النصيحة لأئمة المسلمين من التكاليف المهمة التي لا يغل عليها قلب أمرء مسلم كذلك خيانة الأمة أعظم الخيانة، وغش الأئمة أفظع الغش، كما قال علي بن أبي طالب عليه السلام:

«ومن استهان بالأمانة، ورتع في الخيانة، ولم ينزه نفسه ودينه عنها فقد أحل بنفسه الذل والخزي في الدنيا، وهو في الاخرة أذل وأخزى، وأن أعظم الخيانة، خيانة الأمة، وأفظع الغش غش الأئمة»[3].

---

(١) سورة الدخان، الآية (١٨).

(٢) سورة الأعراف، الآيتين (١٠٤ ـ ١٠٥).

(٣) نهج البلاغة، كتاب (٢٦).

وحيث أن الأمة بدمها وعرضها ومالها أمانة بيد الامام فلو خان المنصوب من قبله في شيء من ذلك فقد ارتطم بأعظم الخيانة بالنسبة إلى الأمة وارتكب أفظع الغش بالنسبة إلى الإمام، فلو رضي الامام بذلك فقد ابتلي بذلك أيضاً حيث أنه أنما يجمع القوم الرضا والسخط مضافاً إلى أن العامل منصوب من قبل الامام ويعد فعله له، وإطاعة مثل هذا الخائن من فواقر الظهر كما قال رسول الله ﷺ لعلي عليه السلام:

«أربعة من قواصم الظهر: إمام يعصي الله عز وجل ويطاع أمره... الخ»[1].

وذلك لأن الخيانة والغلول وان كانا من الكبائر الموبقة لكل أحد إلا انهما للامام الوالي لأمر الأمة أشد وأدهى وآمر ولذا قال الله تعالى:

﴿وما كان لنبي أن يغل ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾[2].

والامام الخائن فتنة لمن افتتن به، مضل لمن اقتدى به في حياته وبعد وفاته، حمّال خطايا غيره، رهن بخطيئته لأنه من الذين يحملون أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم فهو مع كونه رهنا بخطيئة لأن كل نفس بما كسبت رهينة كذلك حمّال خطايا غيره لانه أغواهم وأضلّهم، ومن سن سنة سيئة فعليه وزر من عمل بها مع أن عامل تلك السيئة أيضاً رهن لها، فعلى السان وزران، وعلى العامل وزر واحد.

والحاصل أن الأمة بجميع شؤونها أمانة إلهية بيد الامام، ولذا يكون

(١) ... من لا يحضره الفقيه، ج ٤ ص ٢٦٤.
(٢) سورة آل عمران، الآية (١٦١).

الامام مأموراً بمعرفتها وحفظها واصلاحها كما كان رسول الله ﷺ كذلك حيث قال الله تعالى له:

﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين﴾(١) .

لأن مرونة الامام وانعطافه إلى الأمة وحنينه نحوها يوجب انجذابها إليه ويمنع انفضاضها وتفرقها عنه، بل لا تهجر هذه الأمة إمامها في الضراء كما يكون معه في السراء، ولا تحيد عنه في العسر كما تكون معه في اليسر، ولا تنفض من حوله حال الغلاء والمجاعة والمخمصة كما تطوف حوله حال الرخص والخصب، رغما لأنف من زعم أن الفقر الاقتصادي والمخمصة ونحو ذلك يوجب انفضاض الأمة من حول إمامها. فلذا قال الله تعالى:

﴿هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ولله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون﴾(٢) .

والسر في ذلك هو الأصل الذي تدور معه السياسة الاسلامية، وهو اصالة الكرامة التي توجب تحمل أعباء الفقر الاقتصادي، وتمنع عن تحمل التحقير والتوهين وخشونة الزعيم وغلظته فالذي يجمع شتات الأمة هو رأفة الامام كما قال:

﴿لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم ولا تحزن عليهم واخفض

---

(١) سورة آل عمران، الآية (١٥٩).
(٢) سورة المنافقون، الآية (٧).

جناحك للمؤمنين﴾[1] .

لأن الامام وإن كان منهياً عن الالتفات إلى من جمع مالا وعدده، وألهاه التكاثر، ولكنه مأمور بخفض الجناح لمن اتبعه من المؤمنين. ولذا وصف الله نبيه ﷺ بالرأفة والرحمة حيث قال الله تعالى:

﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾[2] .

ومن آثار رأفته المباركة ورحمته الكريمة هو تأسفه الشديد على حرمان بعض الأمة من قبل ما جاء به كما قال الله تعالى:

﴿فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً﴾[3] .

وقال الله تعالى مسليا لرسوله ﷺ :

﴿فلا تذهب نفسك عليهم حسرات﴾[4] .

وحيث إن مقتضى نظام الإمامة والأمة أن يكون الامام رؤوفاً بأمته ورحيماً بها فقد أوصى إمام الأمة علي بن أبي طالب عليه السلام مالك الأشتر حين ولاه مصر بذلك وقال:

« . . . واشعر قلبك الرحمة للرعية، والمحبة لهم، واللطف بهم، ولا تكونن عليهم سبعا ضاريا، تغتنم أكلهم فانهم صفنان أما أخ لك في الدين أو

---

(١) سورة الحجر، الآية (٨٨).
(٢) سورة التوبة، الآية (١٢٨).
(٣) سورة الكهف الآية (٦).
(٤) سورة فاطر، الآية (٨).

نظير لك في الخلق. . .»[1].

ومن فوائد رأفة الامام الأمين بأمته التي هي أمانة عنده هو أن الأمة لا تنفضّ من حوله في الشدائد بل في مطلق ما يلزم حضورها واشتراكها كما قال الله تعالى:

﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه إنّ الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله إن الله غفور رحيم﴾[2].

حيث وصف الأمة المؤمنة حقاً بالاجتماع مع إمامها وعدم ذهابها إلى حوائجها الشخصية الا بعد الاذن، ومن ذلك حديث حنظلة غسيل الملائكة المعروف بين أصحاب السير. والسر في ذلك هو الفرق بين الناس وبين الأمة، لأن الناس لا جامع لشتاتهم ولا عامل لوحدتهم دون الأمة فإن لأعضائها هدفا واحداً يأتمون من أجله بامامهم حتى يصلوا إليه وبما أنهم يؤمون مقصداً واحداً لذلك قيل لهم ـ الأمة ـ فإذا كان إمام الأمة رؤوفاً بها فهي أيضاً تحن إليه وتشتاقه لأن القلوب مجبولة على حب من أحسن إليها كما أفاده رسول الله ﷺ[3]، ولعله لذلك كله صار سيد المرسلين حبيب الله يحب الله ويحبه الله وهو من أفضل. . . مصاديق قوله تعالى:

﴿فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على

---

(١) . . . نهج البلاغة، كتاب (٥٣).
(٢) سورة النور، الآية (٦٢).
(٣) . . . من لا يحضره الفقيه، ج ٤ ص (٢٧٣).

الكافرين﴾[1] .

وكان أتباعه ﷺ هو طي سبيل المحبة وموجباً لأن تصير الأمة التي تؤمه وتأتم به ﷺ محبوبة لله تعالى كما قال الله تعالى:

﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾[2] .

فعلى أئمة المسلمين أن يتأسوا برسول الله ﷺ الذي كان أسوة المحبة وقدوة الرأفة وممثل الرحمة بالنسبة لأي موجود كان في سبيل الله كما نقل مالك في الموطأ باب جامع ما جاء في أمر المدينة ص (٦٤٤) عن هشام بن عروة عن أبيه: (ان رسول الله ﷺ طلع له أحد فقال: هذا جبل يحبنا ونحبه)[3] لأنه ﷺ ممن يشاهد كل موجود بما أنه آية ومُسَبّح لله سبحانه ويفقه تسبيحه فإذا بلغ الإمام حد الأمانة والرأفة والرحمة والمحبة للأمة يصير ممن يستجاب دعاءه كما قال رسول الله ﷺ :

«أربعة لا ترد لهم دعوة: إمام عادل[4] فلا يدعو بخير إلا ويستجيب الله تعالى له».

ولمكان الاهتمام برأفة الامام بالأمة ورد ما نقله مالك في الموطأ باب ما جاء في حسن الخلق أن معاذ بن جبل قال:

«آخر ما أوصاني به رسول الله ﷺ حين وضعت رجلي في الغرز أن قال: أحسن خلقك للناس يا معاذ بن جبل»[5] .

---

(١) سورة المائدة، الآية (٥٤).
(٢) سورة آل عمران، الآية (٣١).
(٣) ... وكذا في صحيح مسلم، ج ٤ ص (١٣٤).
(٤) ... من لا يحضره الفقيه، ج ٤ ص (٢٥٥).
(٥) ص ٦٥٠.

نعم إن صاحب الخلق العظيم لا يوصي الا بحسن الخلق.

والحاصل أنه لما كان الحق لا يجري لأحد الا جرى عليه، ولا يجري عليه الا جرى له لذا يجب على كل واحد من الأمة والامام العمل بما يجب عليه للغير من حقوق، كما له أن يطالب الغير بإداء ما عليه من الواجبات وهذا من أعظم ما افترضه الله سبحانه، كما قال علي بن أبي طالب عليه السلام:

«وأعظم ما افترض سبحانه من تلك الحقوق حق الوالي على الرعية وحق الرعية على الوالي. فريضة فرضها الله سبحانه لكل على كل فجعلها نظاماً لألفتهم وعزاً لدينهم، فليست تصلح الرعية الا بصلاح الولاة، ولا تصلح الولاة الا باستقامة الرعية. فإذا أدت الرعية إلى الوالي حقه، وأدى الوالي إليها حقها، عز الحق بينهم، وقامت مناهج الدين، واعتدلت معالم العدل، وجرت على اذلالها السنن فصلح بذلك الزمان وطمع في بقاء الدولة ويئست مطامع الأعداء وإذا غلبت الرعية واليها، أو أجحف الوالي برعيته اختلفت هنالك الكلمة وظهرت معالم الجور، وكثر الأدغال في الدين، وتركت محاج السنن، فعمل بالهوى، وعطلت الأحكام، وكثرت علل النفوس، فلا يستوحش لعظيم حق عطل، ولا لعظيم باطل فعل، فهنالك تذل الأبرار وتعز الأشرار، وتعظم تبعات الله سبحانه عند العباد. فعليكم بالتناصح في ذلك، وحسن التعاون عليه)[1].

إلى آخر ما أفاده أمير البيان ولقد أغنانا بيان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام عن بيان لزوم رعاية الحقوق المتبادلة بين الامام والأمة. ويا له من بيان وحق له عليه السلام أن يقول:

---

(١) نهج البلاغة، خطبة (٢١٦).

«إنا لأمراء الكلام، وفينا تنشبت عروقه، وعلينا تهدلت غصونه»[1] .

ولا وقع للمصباح عند الصباح.

نعم إن الذي كان يحب الله ورسوله، وكان الله يحبه ويحبه الرسول لا يوصي الوالي والرعية الا بما يورث المحبة الالهية وهو القيام بالقسط في الحقوق المتقابلة.

(١) ... نهج البلاغة، الخطبة (٢٣٣).

ان السياسة الاسلامية
تعتقد أن الحكومة إنما هي للصالحين من عباد الله

فإذا اتضح أن نهج الحكومة وشكل النظام السياسي في الاسلام إنما هو نظام الامام والأمة واتضح أن لكل واحد منهما حقاً يتبع، يلزم الاشارة إلى أن العناصر الانسانية في هذه الحكومة لا بد وان يكونوا عباد الله صالحين كما قد عيّن القرآن الكريم خطوطها السياسية بقوله تعالى:

﴿ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين * ونمكّن لهم في الأرض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون﴾(١).

والمنة هي النعمة العظمى، والمنحة الكبرى التي يعسر حملها ولقد جعل القرآن لبعض النعم المهمة خصيصة لا توجد في غيرها كالرسالة التي عبر عنها بقوله تعالى:

﴿لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم

(١) سورة القصص، الآية (٥ـ٦).

رسولاً﴾(١) .

وكالإمامة كما في الآية السالفة الذكر، وكذا في الهداية إلى الحق كما قال :

﴿لا تمنّوا عليّ اسلامكم بل الله يمنّ عليكم أن هداكم للإيمان﴾(٢) .

فنعمة الإمامة منحة عظيمة يعز فيها الحق وأهله، ويذل فيها الباطل وأهله، ويحيي فيها العدل ويموت فيها الظلم، ويحيي فيها التوحيد ويموت فيها الشرك، ويعيش فيها المستضعف المضطهد ويفني فيها المستكبر المترف كما قال الله تعالى :

﴿وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين * ولنسكننكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد﴾(٣) .

ولقد صرح سبحانه بأن صرح السياسة الاسلامية مبني على الكرامة البالغة وهي الخشية من الله تعالى التي لا ينالها إلاّ العلماء :

﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾(٤) .

لأنها خشية مقام الرب تعالى وخوف وعيده سبحانه. فلو لم تكن هذه الفضيلة في الولاة لما صاروا حكاماً إلهيين ولما أمكن لهم أن يطردوا الطغاة، ولما قدروا على أن يروا فرعون كل عصر وهامان كل دورة ما كانوا

---

(١) سورة آل عمران، الآية (١٦٤).

(٢) ... الحجرات: (١٧) ولا ينافيه قول السجاد عليه السلام إن أعطيت لن تشب عطائكم بمن ـ دعاء: (٤٥) ـ فتدبر ـ.

(٣) سورة ابراهيم، الآيتين (١٣ ـ ١٤).

(٤) سورة فاطر، الآية (٢٨).

يحذرون فإذا خافوا مقام ربهم، وخافوا وعيده، ونهو أنفسهم عن الهوى، ولم يؤثروا الحياة الدنيا نجز وعد الحق سبحانه لهم، وتنجز وعيده سبحانه على أعدائهم لأن رسول الله ﷺ قال:

« من خاف الله عز وجل خاف منه كل شيء ومن لم يخف الله أخافه من كل شيء»[1].

ومن أروع مصاديقه ما قال سبحانه في عزة المستضعفين من بني إسرائيل وذلة الطغاة الحاكمة عليهم:

﴿فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين * وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون﴾[2].

ولا ريب في ان صلاح العباد، وخوفهم مقام ربهم، وخوفهم وعيده تعالى ليس هو بالاكتفاء بالعبادة من الصلاة والصوم ونحو ذلك مما يتوهم إنها كافية في امتثال ما أمر الله به، وفي حصول التهذيب، بل أنما هو بامتثال جميع ما أمر الله تعالى عباده الصالحين به من الجهادين الأكبر والأصغر، والهجرتين الهجرة الكبرى وهي الهجرة من أي رجس ورجز.

﴿والرجز فاهجر﴾[3].

والهجرة الصغرى وهي الهجرة من أرض الشرك والظلم، ثم تحصيل

---

(١) من لا يحضره الفقيه، ج ٤ ص ٢٥٨.
(٢) سورة الأعراف، الآيتين (١٣٦ ـ ١٣٧).
(٣) سورة المدثر، الآية (٥).

العُدة والأهبة لارغام أنوف الطغاة وتطهير الأرض من رجسهم وتخليص الضعاف والمستضعفين الذين لا يجدون حيلة ولا يهتدون سبيلا من أيدي ذوي الأوتاد كما قال سبحانه مشيراً إلى وظائف أئمة المسلمين والحكام الالهيين على الأرض:

﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير * الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها إسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره أن الله لقوي عزيز * الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وأتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور﴾[1].

فبين سبحانه أن هؤلاء أهل الجهاد والمجاهدة، وأهل العبادة والتهذيب والاصلاح لأنفسهم ـ بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ـ ولغيرهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بعدما ثاروا على الطغاة وطردوهم ونجوا بيوتاً اذن الله أن ترفع من أيدي من أراد هدمها وتخريبها ـ وهؤلاء هم الذين يقولون:

﴿ربنا افرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين﴾[2].

وبالتالي هؤلاء هم أهل الكرامة الذين إذا قتلوا في سبيل الله بعدما قاتلوا وجاهدوا يدخلون الجنة ويلحقون بالمكرمين من عباده سبحانه كما

---

(١) سورة الحج، الآيتين (٣٩ ـ ٤١).
(٢) سورة البقرة، الآية (٢٥٠).

قال:

﴿قيل ادخل الجنة قال يا ليت قومي يعلمون * بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين﴾[1].

لأنه جاهد بكلمة عدل عند أئمة الجور.

وحيث أن الكرامة تأبى الذل كما تتحاشى الضيم لأن كل واحد منهما نقص يتجنبه الكريم فلذا أمروا بالهجرة رفض الذل والهوان كما قال الله تعالى:

﴿إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا * إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا﴾[2].

فإنه سبحانه لا يرضى لعباده الذل ولا يمنع الضيمَ الذليلُ[3].

ومن المقدر الالهي المقرر في الاسلام هو أنه لو صبرت الأمة الاسلامية على الطاعة وصبرت عن المعصية وعند المصيبة وصابرت في البأساء والضراء عند لقاء الأعداء، ورابطت مع إمامها القائم بالقسط ترث الأرضَ وتحكم فيها حكماً إلهياً لا حيف فيه ولا جور لقوله تعالى:

﴿قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا ان الأرض لله يورثها من يشاء

(١) سورة يس، الآيتين (٢٦ ـ ٢٧).
(٢) سورة النساء، الآيتين (٩٧ـ٩٨).
(٣) نهج البلاغة، الخطبة (٢٦).

من عبادة والعاقبة للمتقين﴾[1] .

لأن الكرامة السائسة المناسبة لارث الأرض هو ما ذكر.

ولما كانت الحياة هي حقيقة تنشأ منها المعرفة والحركة فمن لا وعي ولا معرفة له بما يصلحه ويفسده، أو لا إرادة ولا حركة له بها يخرج من ظلمة الجاهلية إلى نور الاسلام فلا حياة له. إذ الحي هو الدراك الفصال فلذا قال سبحانه:

﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعا كم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون﴾[2] .

ومما يلزم التنبيه له هو أن جميع ما جاء به الوحي الكريم موجب للحياة الا أن بين أحكامه وأوامره امتيازاً يفضل بعضها عن البعض الآخر ومن ذلك: الجهاد في سبيل الله، والدفاع عن حرم الله، والذب عن كيان الاسلام حيث أنه تعالى بعدما أمر في سورة الأنفال طي غدة آيات خاصة تحث على الجهاد وتبعث صوب الدفاع وتهدي إلى الذب عن الكيان الديني. قال:

﴿استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾ .

مشيراً إلى أن حياة الأمة رهن جهادها، ومعيشتها مرهونة بدفاعها ودوامها وبقاؤها في ضوء ذبّها عن كيانها الاسلامي. فكما ان القصاص وان كان قتلا وأمانة في الظاهر ولكنه عامل لحياة الأمة. وموجب لبقائها. حيث قال الله تعالى:

---

(١) سورة الأعراف، الآية (١٢٨).
(٢) سورة الأنفال، الآية (٢٤).

﴿ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب﴾[1] .

كذلك القتال في سبيل الله وان كان مصحوباً بالموت ومشفوعاً بالشهادة في الظاهر ولكنه عامل لحياة الأمة وموجب لدوامها . فمن لا نفر له إلى المعركة، ولا ثبات قدم له عند لقاء العدو، لا حياة له . كما ان من يفر من الزحف، ويجبن من العدو، ويرضى بأن يكون مع الخوالف كالمترف فلا حياة له فهل الكرامة الا هذه السياسة التي ترفض ذل الاستعباد وتأنف عن هوان الاستعمار وتأبى الضيم والاستغلال علمها الاسلام حين ما يعلم الناس الكتاب والحكمة ويزكيهم ـ فتعال يا صاح واقرأ قوله تعالى :

﴿ليس على الضعفاء ولا على المرضي ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم * ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم نفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون﴾[2] .

فتدبر فيه حتى يتبين لك كيف أثرت الكرامة السائسة في نفوس أبية وأنوف حمية حيث تفيض أعينهم من الدمع حين لم يوفقوا لأن يراق دماؤهم بالقتل في سبيل الله . فهل هذه الا كرامة تطلب الاستقلال الاسلامي، وتهرب عن الاستعباد والاستثمار كائناً ما كان :

﴿قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون﴾[3] .

لأن مقالهم هو الله فقط ويذرون المبطلين لاعبين وترى أيها الباحث

---

(١) سورة البقرة، الآية (١٧٩).
(٢) سورة التوبة، الآيتين (٩١ـ٩٢).
(٣) سورة الأنعام، الآية (٩١).

الدقيق روح الكرامة قد نفخ في برامج المسلمين إناء الليل وأطراف النهار حيث أنه يجب على كل بالغ عاقل أن يقيم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل بالظهرين والمغربين، وكذا صلاة الصبح المعبر عنها بقران الفجر. (الإسراء: ٧٨) ويجب عليه أن يقرأ في كل صلاة فاتحة الكتاب مرتين إذ لا صلاة الا بفاتحة الكتاب، ومن آياتها قوله تعالى: ﴿**اهدنا الصراط المستقيم**﴾ بأنه صراط الذين أنعم الله عليهم ـ وأما من هو المنعم عليه وما هو سيرته وسريرته وسنته وطريقته فقد بينه الله في مواضع عديدة من كتابه الكريم. ومن تلك المواضع قوله تعالى:

﴿**قال ربّ بما أنعمت عليّ فلن أكون ظهيرا للمجرمين**﴾[1].

يعني أن مقال موسى الكليم عليه السلام الذي نهض يكافح الطاغي ذا الأوتاد هو أن قال لربه إن شكر نعمة النبوة (وحمد منحة الرسالة، والثناء على موهبة الامامة التي انعمتها عليّ) أن لا أكون ظهيرا للمجرمين ـ فهذه هي الكرامة المتبلورة في القهر على المجرمين المقررة في برنامج المسلم في صلواته ـ فصلاة كل مسلم دراسة النهضة على الطغيان، والثورة على الظلم، والجهاد ضد الضيم وبالتالي دراسة الوعي والحرية والحركة والثورة على كل من بخل واستغنى، وكذب الحسنى، ولا ينال هذه الكرامة الا المطهرون عن أدناس الجاهلية، المنزهون عن معالمها وأما من ابتلي بها فتضرب عليه الذلة والمسكنة لما أشرب في قلبه حب عجل الدنيا ولذا تهاجمه كلاب الاستعمار فتقطعه إرباً إرباً وتمثل به مثلة شنيعة ولا تغني الكثرة الظاهرة عنه كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لثوبان:

---

(١) سورة القصص، الآية (١٧).

«كيف أن يا ثوبان إذا تداعت عليكم الأمم كما تداعى الأكلة على قصعتها؟ فقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله أمن قلة بنا قال بل أنتم يومئذ كثير ولكن يلقى في قلوبكم الوهن. قال وما الوهن يا رسول الله قال: حبكم الدنيا وكراهيتكم القتال»(١) .

فتدبر أيها الباحث المتفكر في قول رسول الله ﷺ حيث قرر أن عامل الانهزام هو الوهن، وان الوهن هو حب الدنيا الذي هو رأس كل خطيئة، ثم أنظر فلسطين والقدس العزيزة الأسيرة بأيدي الطغاة اللئام مع الكثرة البالغة للمسلمين في أقطار الأرض حتى يتضح لك أن لا سياسة الا الكرامة التي تأبى الذل والضيم ولا كرامة الا في الجهاد والمجاهدة في سبيله تعالى حتى يكون الدين كله لله، وتكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا هي السفلى، ويكون الدين كله لله تعالى واصباً كما أنه يكون لله تعالى خالصا، ولا جهاد ولا نهضة الا بالوعي والحزم والعزم والجزم لأن أصل المرء لبه، ونعم ما قال جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: «ما ضعف بدن عما قويت عليه النية»(٢) .

لقد أوصى مولانا علي بن أبي طالب عليه السلام أهل مصر حين ولى مالكاً عليهم بأن قال في رسالته المكتوبة إليهم:

«الا ترون إلى أطرافكم قد انتفضت، وإلى امصاركم قد افتتحت، وإلى ممالككم تزوى، وإلى بلادكم تغزى؟ انفروا رحمكم الله إلى قتال عدوكم ولا تثاقلوا إلى الأرض فتقروا بالخسف وتبؤوا بالذل، ويكون

---

(١) البداية والنهاية لأبي الفداء، ج ١ ص ٥٤.
(٢) من لا يحضره الفقيه، ج ٤ ص ٢٨٦.

نصيبكم الأخسّ. وان أخا الحرب الأرق، ومن نام لم ينم عنه والسلام»[1].

وقال عليه السلام لجيشه:

«ولا تذوقوا النوم الاّ غراراً أو مضمضة».

فأين تذهبون يا طالبي الكرامة؟ وأين يتاه بكم يا ساسة؟ تدبروا قول الكريم السائس الذي لم يعهد مثله بعد رسول الله صلى الله عليه وآله حيث يوصي ابنه الحسن بن علي عليه السلام بقوله...

«... وأكرم نفسك عن كل دنية وان ساقتك إلى الرغائب، فإنك لن تعتاض بما تبذل من نفسك عوضا ولا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حراً وما خيرُ خير لا ينال الا بشر ويسر لا ينال الا بعسر»[2].

ولقد كتب عليه السلام إلى معاوية وقال:

«... ومتى كنتم يا معاوية ساسة الرعية وولاة أمر الأمة، بغير قدم سابق ولا شرف باسق، ونعوذ بالله من لزوم سوابق الشقاء، وأحذرك أن تكون متماديا في غرة الأمنية، مختلف العلانية والسريرة»[3].

حيث يقول عليه السلام ان النكراء ليست سياسة، وان الماكر المخادع ليس سائسا وان النفاق واختلاف السر والعلن لا يلائم السياسة الدائرة مدار الكرامة المختصة بعباد الله الصالحين الذين بها يتسحقون الحكومة على الأرض وميراثها ويشتاقون لاكرم الموت[4] وهو القتل في سبيل الله لأنهم

(١) نهج البلاغة، صبحي الصالح كتاب ٦٢.
(٢) ... نهج البلاغة، الكتاب ٣١.
(٣) ... نهج البلاغة، الكتاب ١٠.
(٤) ... الخطبة، ١٢٣.

الذين لم يختلف سرهم عن علنهم، ولا فعلهم عن قولهم، ومن كان كذلك فقد أدّى الأمانة، وأخلص العبادة[1] ومن كان مخلصاً في عبادته لله تعالى يورثها الله الأرض، ويجعله إماماً يحكم عليها.

﴿إن الأرض لله يورثها من يشاء﴾.

لقد شاء أن يورثها من أخلص لله في عبادته الجامعة.

---

(١) . . . كتاب ٢٤.

ان السياسة الاسلامية تقتضي أن تحسن إلى كل واحد الا من سعى في الأرض فساداً

فقد تبين أن السياسة الاسلامية تدور مع الكرامة حينما دارت، والكرامة توجب الاحسان الى كل واحد الا من سعى في الأرض ليهلك الحرث والنسل فإن لسيئته جزاء مثلها. فالأصل الأولي في السياسة الاسلامية مبني على الاحسان كما أنه مبني على العدل حيث أن عليا عليه السلام أوصى مالك بن الحارث الأشتر حين ولاه مصر بقوله:

«ولا تكونن عليهم سبعا ضاريا تغتنم أكلهم فانهم صنفان إما أخ لك في الدين، أو نظير لك في الخلق»[1].

فأمر بلزوم رعاية العدل، وعدم التجاوز عنه بالنسبة إلى أي انسان ـ مسلما كان أو غير مسلم ـ ومنشأ ذلك كله قوله تعالى:

﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من

---

(١) ... نهج البلاغة، كتاب ٥٣.

ديارکم أن تبروهم وتقسطوا اليهم إن الله يحب المقسطين * إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون﴾[1] حيث خص النهي عن التولي والارتباط بمن قاتل المسلمين وإذا هم أما من لم يقاتلهم ولم يؤذهم، ولم يصدهم عن سبيل الله، ولم يبغها عوجا فلا نهي عن البر والاحسان والاقساط اليهم، بل هو أمر محمود ليروا عدل الاسلام واحسانه، ويعيشوا في ضوء قسطه وبره.

نعم لكل شيء في الاسلام حد ومن تعداه فله حد مبين في الفقه، ولا تعطيل في الحدود، ولا شفاعة ولا تأخير فيها لأن ذلك هو مقتضى النظام الالهي وعلى المسؤولين أن يجدوا في تنفيذه لأنهم هم الحافظون لحدود الله والا لما أتيحت لهم فرصة السياسة، إذ لا كرامة في تعطيل الحدود وجعلها بئراً معطلة، كما أنه لا مجال للتساهل في الذب عن الكيان الاسلامي لأن التواني والتهاون والتراخي والجمود والسكون عن الحق وما إلى ذلك هي من سيئات القوة الدافعة، وعجزها وتفريطها الذي لا يجتمع شيء منها مع الكرم السائس، وإن صححه الخيال تارة وسدده الوهم أخرى. وحسب الانسان المبتلى بذلك إنه احتياط وحزم حسن - يرى الجبناء أن الجبن حزم - وتلك خديعة النفس اللئيمة، وهو يحسب أنه يحسن صنعا ولكنه ليس في الحقيقة كذلك. والأصل في ذلك كله قوله تعالى لموسى وهارون الذاهبين إلى طاغي العصر:

﴿ولا تنيا في ذكري﴾[2].

---

(١) سورة الممتحنة، الآيتين (٨ - ٩).

(٢) سورة طه، الآية (٤٢).

إذ التواني في ذكر الله يوهن العزم. ومن المعلوم أن لا ثمرة للعزم الواهي الا الانهزام، ولذا قال علي بن أبي طالب عليه السلام:

«ما عَليّ من قتال من خالف الحق وخابط الغي من ادهان ولا ايهان»[1].

لأن هؤلاء ودوا لو يدهن والي المسلمين فيدهنون كما قال الله تعالى لرسوله:

﴿ودوا لو تدهن فيدهنون﴾[2].

والسر في ذلك إن المداهنة شفير وادي الذل والهزيمة، وأن المقاومة سلم صرح العزة والغلبة ـ فتحصل إن الكرامة التي هي السياسة تقتضي الاحسان إلى كل احد الا من خالف الحق، وطلب البغي وسعى في الأرض ليهلك الحرث والنسل فحينذاك يجب على الامام والأمة أن ينهضوا وينتصروا عالمين بأن الله كتب الغلبة له تعالى ولرسله، وقال علي عليه السلام:

«من أحد سنان الغضب لله قوي على قتل أشداء الباطل»[3].

ومما لا بد من التنبيه له هو أن السياسة الاسلامية لا تفعل باطلاً ولا تصححه ولا تغمض عنه لأنها تدور مدار الحق. والحق كما قال الله تعالى:

﴿قل جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد﴾[4].

لا يجوز الباطل سواء كان ذا سابقة أم كان باطلا جديداً.

---

(١) نهج البلاغة الخطبة(٢٤).
(٢) سورة القلم، الآية (٩).
(٣) نهج البلاغة، الكلمات القصار ص ٥٠١.
(٤) سورة سبأ، الآية (٤٩).

إن السياسة الاسلامية

تقتضي الاستقلال والحرية والكفاية، وحصر الاتكال على الله

إن الكرامة التي تنوط بها السياسة تقتضي أن لا يحتاج الانسان إلى محتاج آخر مثله. وأن لا يذل له بل يستقل بحوله وقوته مستعيناً بالله تعالى ولقد مثل القرآن الكريم هذه الكرامة المصحوبة بالحرية والكفاية بقوله تعالى:

﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الانجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزُّراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً﴾[1] .

إن هذه الآية الكريمة، بعدما بينت توحيد الأمة الاسلامية في العبادة والعقيدة وإنه ليس في عقيدتهم الا الخضوع لله وان الركوع والسجود له

---

(١) سورة الفتح، الآية (٢٩).

تعالى كان دابا وسيرة مستمرة لهم ولذا لا يخافون في الله لومة لائم ولا يداهنون الكفار المنحرفين عن صراط التوحيد بل يكونون أشداء عليهم كما يكونون رحماء بين أنفسهم لأن الجامع بينهم هو عقيدة القلب فحسب، أفادت أنهم مستقلون احرار أغنياء عن الأغيار ويتعجب منهم من يشاهد كفايتهم ويغيظ بهم من لا يرضى باستقلالهم وحريتهم حيث قال:

﴿ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج . . . الخ﴾.

أي أنهم أهل النمو والحركة والرشد والتسامي لا أهل الخمول والسكون والذبول والانحطاط ثم أنهم بعدما كانوا أهل التحرك والتحرر يكونون أهل الوعي والاستنباط والتبديل والاحتراف والصناعة وما إلى ذلك حيث أنهم يعرفون ذخائرهم وموادهم الأولية ويبدلونها بما هو صالح للاغتذاء، ويصرفونه في التغذية بالمعنى الوسيع الجامع لجميع شؤونها بلا احتياج في شيء من ذلك إلى وزير من خارج أو نحو ذلك، بل يستقلون في الوزارة والاعانة، وكذا في التغليظ والتحكيم كالبنيان المرصوص إذ لو لم يكن لهم ساق غليظ لما أمكن لهم أن يقوموا عليه، لأن الشجرة التي اجتثت من فوق الأرض لا قرار لها، وهكذا الزرع الذي لا ساق غليظ له ـ بأن يكون غلظه بسبب أصله الثابت الموجب لغلظه الساق وضخامته ـ لا قرار له فكيف يمكن للزرع أن يستقر على مثل ذاك الساق وهكذا الأمة الاسلامية ما لم تكن كشجرة طيبة أصلها ثابت كيف يمكن الاستقرار عليها، وكيف يمكن أن تؤتي ثمرها وأكلها كل حين، إذ لا يأذن الله بذلك لمن لا أصل له أبى الله أن يجري الأمور الا بأسبابها ـ وأهم سبب يوجب الاستقلال هو الاتكال على الله تعالى لقوله تعالى:

﴿أليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دونه ومن يضلل الله فما

له من هاد﴾[1] .

حيث يدل على أن الله تعالى وحده كاف وأن الاعتماد على الله الذي هو معتمد عباده موجب للكفاية، وعلى أن تهديد الكفار وارعاب المنافقين، وتخويف الذين في قلوبهم مرض، وانذار المرجفين، لا جدوى منه اذ لله جنود السموات والأرض فلا ينبغي أن يخاف الا من الله كما لا ينبغي أن يتوكل الا على الله تعالى:

﴿قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون﴾[2] .

ثم أن الاستقلال والحرية وما إلى ذلك مما هو من خصائص الكرامة التي تسوس الأمة الاسلامية ليس بالأماني كما قال علي عليه السلام :

«إياك والاتكال على الأماني فانها بضايع النوكى وتثبيط عن الآخرة»[3] .

بل لا بد له من سبب خاص يجب به ويمتنع بدونه وذاك السبب هو أن يتصدى لكل شأن من شؤون النظام الاسلامي من هو كامل في أمرين: أحدهما الاطلاع والمعرفة والتخصص بالنسبة إلى ذلك الشأن، وثانيهما التعهد الديني، والتقوى الالهي بحيث لا يخون في شأنه، ولا يختلس منه، ولا يسامح فيه فمن كان فاقداً لأحدهما لم يصح له تصدي ذلك الشأن فضلاً عمن كان فاقد لهما معا. والأصل ـ في أن كمال النظام في أن المتصدي لأي شأن كان لا بد وأن يجمع وصفي العلم والعدل وكمالي التخصص والتقوى ـ

---

(١) سورة الزمر، الآية (٣٦).
(٢) سورة الزمر، الآية (٣٨).
(٣) من لا يحضره الفقيه، ج ٤ ص ٢٧٥.

هو ما أشار إليه سبحانه في كتابه الكريم من بيان شأنين: أحدهما في غاية الأهمية والتعقيد، والآخر في غاية البساطة والابتذال.

الأول: تولي وزارة الاقتصاد في أصعب عصر والتصدي للأمور المالية في أحرج وضع.

الثاني: هو رعي عدة أغنام وسقيها.

أما الأول فقوله تعالى حاكيا عن يوسف الصديق عليه السلام بعد خروجه من السجن وابتلاء مصر بالقحط والغلاء والمجاعة ونقص الزرع:

﴿اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم﴾(١).

يعني إن يوسف عليه السلام ادعى صلاحه للوزارة وإدارة الأمور المالية في أعسر وضع لأنه كان حفيظاً أميناً لا يفرط ولا يخون. وعليما بذلك الشأن الخاص مع تقدم الحفظ والتقوى المالي في هذا الموضع على العلم فيلزم ان يكون الوزير متقيا في شأنه وعالماً به فلا التقوى بدون المعرفة بذاك الفن كاف ولا الاطلاع الفني بدون التقوى مجد بل لا بد للوزير من الجمع بين التخصص والتقوى.

وأما الثاني فقوله تعالى حاكيا عن إحدى بنتي شعيب عليه السلام في استئجار موسى عليه السلام:

﴿يا أبت استأجره أن خير من استأجرت القوي الأمين﴾(٢).

يعني إن خير العمال والمتصدين لأي أمر هو القوي على انجازه

---

(١) سورة يوسف، الآية (٥٥).
(٢) سورة القصص، الآية (٢٦).

والعارف به ولشؤونه، والأمين عليه، فخير الرعاة والسقاة هو الراعي القوي الأمين والساعي الخبير الثقة.

والحاصل إن منطق القرآن الكريم هو لزوم المعرفة والأمانة في كل من يتصدى لأمر عال أو دانٍ، معقد أو بسيط، وزارة كان أو رعيا للأغنام وسقيا للدواب ونحو ذلك فإذا أعطي في نظام كل ذي حق حقه، وتصدى لكل شأن من يليق به تعهداً وتخصصا فذاك النظام هو الحري بالاستقلال والحرية.

ثم أن من أهم موارد لزوم الاستقلال هو الاقتصاد المالي والنظام الاقتصادي لأن المال قوام الأمة وقيامها ولا اقتدار لمن لا قوام له، ولا حول لمن لا قيام له قال الله تعالى:

﴿ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما﴾[1].

حيث وصف الله تعالى المال بكونه قياماً. فمن لا مال له لا قوام له، ولعله لهذا السبب يقال لفاقد المال (الفقير) لأن الفقير هو من انكسر عظم ظهره وفقراته ومن المعلوم إن من انكسر عظم فقرات ظهره لا قوام له ولا قيام له فبينهما تلازم يعني أن من انكسرت فقرات ظهره فهو فقير لا قيام له، ومن لا قوام له ولا قيام له فهو فقير. وحيث أن المال قوام، ومن لا مال له لا قوام فهو فقير كذلك يقال لمن لا مال له أنه فقير. فالأمة الفاقدة للنظام الاقتصادي الصحيح فهي ممن لا قوام له فلا تستطيع الثورة على الطغاة، ومن لا قيام له فهو فقير فهذه الأمة العاجزة عن القيام المالي فقيرة فحينئذٍ ليس في وسعها أن تقوم لله وتتعظ بما وعظها الله تعالى حيث قاله في قرآنه الكريم:

---

(١) سورة النساء، الآية (٥).

﴿قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى﴾[1] .

إذ المراد من القيام هنا ليس هو القيام الصوري العمودي، بل المراد منه المقاومة تجاه الظالمين ومن الواضح أن المقاومة إنما تجدي مع النظام الاقتصادي الرائع، وبدونه لا قيام ولا مقاومة ولا صبر ولا مصابرة ولا مرابطة. ولقد أشار إليه رسول الله ﷺ في قوله:

«اللهم بارك لنا في الخبز، ولا تفرق بيننا وبين الخبز (وبينه) فلولا الخبز ما صلينا ولا صمنا، ولا أدينا فرائض ربنا»[2] .

وليس ذلك بالنسبة إلى شخصه ﷺ أو الكملين من صحبه بل بالنسبة إلى الشعب.

والسر في ذلك كله هو أن فاقد المال فقير بمعناه المقرر له آنفاً، والفقير غير قادر على القيام فضلا عن الاقامة وهو أي القيام للدين وإقامته إنما يتم في النظام الاقتصادي السالم، وهو بالانتاج والتوزيع وكل ذلك في معقد لا يتصدى له الا الخبير الثقة فمن لا خبرة له أو لا وثوق به لن يجدي شيئاً:

﴿أينما يوجهه لا يأتِ بخيرٍ﴾[3] .

فحينئذٍ يصير كلاً على غيره وقد قال رسول الله ﷺ :

«ملعون من القى كله على الناس»[4] .

---

(١) سورة سبأ، الآية (٤٦).
(٢) الكافي ج ٥ كتاب المعيشة باب الاستعانة بالدنيا على الآخرة.
(٣) سورة النحل، الآية (٧٦).
(٤) الكافي باب الاستعانة بالدنيا على الآخرة.

فمعه تصير الأمة التي ألقت كلها على الأمم الأخرى ملعونة محرومة من العناية الالهية كما قال ﷺ :

«لا خير في من لا يحب جمع المال من حلال يكف به وجهه، ويقضي به دينه ويصل به رحمه»[1] .

لأن جمع المال المتكاثر به وان كان مذموماً الا إن جمعه بمقدار يصان به العرض ويقضي به الدين، ويوصل به الرحم، وما إلى ذلك من الحوائج ممدوح.

كما قال علي بن أبي طالب عليه السلام في دعائه :

«اللهم صن وجهي باليسار، ولا تبذل جاهي بالاقتار»[2] .

وللاِهتمام بالنظام الاقتصادي الحر قال علي عليه السلام :

«من وجد ماء وترابا ثم افتقر فابعده الله»[3] .

حيث إنه عليه السلام هدد العاطل، وتوعد الكسلان، ورهب الفارغ، مع التمكن من الانتاج من الغرس والزرع ونحو ذلك فلا يباح للأمة الاسلامية الكسل والفشل والضجر والعجز في المشي في مناكب الأرض واستخراج ما في بطونها مما أودعه الله فيها. قال علي عليه السلام :

«أن الأشياء لما ازدوجت ازدوج الكسل والعجز فأنتجا بينهما الفقر»[4] .

---

(١) الكافي ـ الباب السابق.

(٢) نهج البلاغة، صبحي الصالح ص ٣٤٧ الخطبة ٢٢٥ .

(٣) الوسائل، كتاب التجارة باب ٩ .

(٤) الكافي، كتاب المعيشة باب كراهية الكسل

وهكذا قال عليه السلام:

«ان الله يحب المحترف الأمين»[1].

ولعله إشارة إلى لزوم اجتماع وصفي العلم والأمانة في الصانع لأن الحرفة صناعة لا بد فيها من مهارة وتخصص، ومع انضمام وصف الأمانة إلى ذلك يتم الأمر كما تقدم.

وحيث أن النظام الاقتصادي إنما يصح إذا كان جامعاً بين الحرف الزراعية والحرف الصناعية الدارجة اليوم ندب السياسة الاسلامية من بعدها الاقتصادي إليها أيضاً قال الثمالي مررت مع أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام في سوق النحاس فقلت جعلت فداك هذا النحاس أي شيء أصله؟ فقال عليه السلام:

«فضة الا أن الأرض أفسدتها فمن قدر على أن يخرج الفساد منها انتفع بها»[2].

فهو عليه السلام قد رغب الناس في التعريف على تلك المعادن، وكيفية امتزاجها، وكيفية تلخيصها، وحضهم على الاصطناع والاحتراف الخاص بذلك، كما أنه عليه السلام حذر الناس من جمع المال وادخاره وعدم صرفه في الانتاج والتصنيع قال عليه السلام:

«ما يخلف الرجل بعده شيئاً أشد عليه من المال الصامت. قال قلت له كيف يصنع؟ قال عليه السلام يضعه في الحائط والبستان والدار»[3].

---

(١) الكافي باب الصناعات.

(٢) الكافي، كتاب المعيشة، باب النوادر.

(٣) من لا يحضره الفقيه، ج ٣ ص ١٠٤، وفي شرح (المجلسي الأول) قده ج ٦ ص =

إذاً المال إنما هو موضوع لأن تتبادل فيه الأجناس لا لأن يدخر في مكان واحد، وبيد شخص أو أشخاص مخصوصين قال الله تعالى:

﴿كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم﴾[1].

فعليه يلزم أن يصرف المال في التصنيع والانتاج أولا، وفي التوزيع بين الناس لأنهم سواسية كأسنان المشط ثانيا حتى يحتمي من الاكتناز ويصان من التكاثر ويجتنب الفاقة إلى غير الأمة الاسلامية في مواد المعيشة، ويحترز عن سيئات هذه الفاقة، إذ الاحتياج إلى أمة غير اسلامية سواء كان في النظام الاقتصادي أو العلمي أو العسكري أو غير ذلك يوجب توليهم والركون اليهم وقد نهي الله سبحانه عن ذلك كله، وحذر الأمة الاسلامية منه والسر في هذا الأمر هو أن الافتقار إلى دولة غير اسلامية يوجب سد الخلة ورفع الحاجة بهم ومعلوم أن سد الخلة ولم الشعث ورفع الفاقة من الأمة الاسلامية إحسان اليهم، والاحسان يوجب انجذاب قلوب المحتاجين إلى من أحسن اليهم كما قال رسول الله ﷺ:

«جبلت القلوب على حب من أحسن اليها، وبغض من أساء اليها»[2].

ومحبة الكفار الطغاة ركون اليهم، وتول لهم، وحنين نحوهم. وقد قال سبحانه وتعالى:

﴿ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من

= (٤٦٩) نقله بتفاوت ما.

(١) سورة الحشر، الآية (٧)

(٢) من لا يحضره الفقيه، ج ٤ ص ٢٧٣.

أولياء ثم لا تنصرون﴾[1] .

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فانه منهم ان الله لا يهدي القوم الظالمين * فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين﴾[2] .

حيث أنه تعالى حذر الأمة الاسلامية من الركون إليهم، والركون هو الميل القليل والحنين اليسير ـ أضف ـ إلى أن القلب مجبول على حب من أحسن إليه ـ إن هؤلاء الكفار لا يرضون بمجرد الركون والحب القلبي، بل يسعون لأن يصيروا أولياء على المسلمين ويجعلوهم تحت ولا يتهم ويملكوا رقابهم ويستبدوهم كما هو المعروف من شيمهم المشؤومة وسيرتهم السيئة ـ والاسلام لا يرضى بذلك هيهات منا الذلة، يأبى الله لنا ذلك ورسوله والأئمة من ولده، لأن الحق يعلو ولا يعلى عليه، والاسلام يوجب السيادة وينزه المسلمين عن عبودية غير الله كما قال رسول الله ﷺ حيث أن أبا جهل وجماعة من اشراف قريش مشوا إلى أبي طالب وشكوا إليه النبي ﷺ وقالوا قد سفه أحلامنا وشتم الالهة فدعاه أبو طالب وقال له: ما لأهلك يشكونك؟ فقال النبي ﷺ أدعوهم إلى كلمتين خفيفتين يسودون على العرب بهما ويؤدي الخراج إليهم بهما العجم فقال أبو جهل وغيره ما هما فقال ﷺ : «تشهدون أن لا إله إلّا الله وأني رسول الله» فقال أبو جهل «اتجعل الالهة إلهاً

(١) سورة هود، الآية (١١٣).
(٢) سورة المائدة، الآيتين (٥١ ـ ٥٢).

واحداً»[1] فهل ترى أيها الباحث في السياسة الاسلامية أن الاسلام يرضى بأن يكون هؤلاء الكفرة أولياء للمسلمين وساداتهم مضافاً إلى أن المراودة معهم إذا كانت مراودة الفقير والغني، ومرابطة الرق والحر، ومعاملة المقهور والسلطان توجب تخلق المسلمين بأخلاق هؤلاء الكفار، وانخراطهم في سلكهم كما هو الشاهد بين الأمم الضعيفة والقوية مع ان القرآن الكريم ينادي ببراءة الله ورسوله من المشركين ما لم يتوبوا لأنهم ان يظهروا على المسلمين لا يرقبوا فيهم الا ولا ذمة يرضونهم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأولئك هم المعتدون. ولذا أمر المسلمين بقتالهم حيث قال سبحانه:

﴿وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون﴾[2].

فتحصل أن الكرامة السائسة تأبى افتقار المسلمين إلى غيرهم في شيء من شؤونهم الدنيوية بل توجب أن يكونوا مستقلين في ذلك كله وأحراراً. وان من أهم تلك الشؤون هو النظام الاقتصادي الصحيح الطارد للفقر الذي هو كما قال علي عليه السلام:

«منقصة للدين مدهشة للعقل، داعية للمقت»[3].

وقال أيضاً عليه السلام:

«الفقر الموت الأكبر».

---

(١) التبيان للطوسي، ج ٨ ص ٤٩٧.
(٢) سورة التوبة، الآية (١٢).
(٣) نهج البلاغة، صبحي الصالح، الكلمات القصار ص ٥٣١.

وإنها (أي السياسة التي تدور مدار الكرامة) تقتضي الاحسان والأدب الصالح الا ما خرج بالنص. قال مولانا جعفر بن محمد الصادق عليه السلام:

«وان جالسك يهودي فأحسن مجالسته»[1].

---

(١) من لا يحضره الفقيه، ج ٤ ص ٢٨٩.

إن السياسة الاسلامية
توجب اتحاد المسلمين وتاخيهم وتمنع من تفرقهم

إن الكرامة تمنع عن الميل إلى الهوى المردي، وتحذر عن الجهل المهلك وعن أي سبب يوجب الاختلاف والتفرق بين المسلمين وجعلهم أيادي سبأ متفرقين لأن ذلك كله من الدناءة التي لا تجوزها الكرامة السائسة ولذا ترى الثقلين الذين خلفهما رسول الله ﷺ في أمته لن يضلوا ما تمسكوا بهما وهو كتاب الله وعترته الطاهرة، يدعوان الأمة الاسلامية إلى الوحدة، وينهيانها عن الاختلاف والتفرقة قال الله سبحانه:

﴿واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا﴾[1].

﴿أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه﴾[2].

﴿ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن

(١) سورة آل عمران، الآية (١٠٣).
(٢) سورة الشورى، الآية (١٣).

سبيله﴾(١) .

﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعدما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم﴾(٢) .

حيث يدل على ان التفرق في الدين، والحياد عن الصراط المستقيم الذي لا تخلف فيه ولا اختلاف، كبيرة موبقة سيما حال القتال مع أعداء المسلمين حيث قال سبحانه:

﴿إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار﴾(٣) .

﴿يا أيها الذين آمنوا إذا القيتم فئة فاثبتوا﴾(٤) .

حيث نهى عن الاستدبار والانفضاض من حول إمامهم الذي لا تحركه العواصف كرار غير فرار هو رسول الله ﷺ ومن هو بمنزلته. وبالجملة فإن الاختلاف والتفرق يوجبان الوهن والفشل المستلزم للانهزام والانظلام وتسلط الكفار كما قال سبحانه:

﴿وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين﴾(٥) .

لأن النزاع هو خلع القوة ونزع القدرة من الجانبين، هذا يصرف همه وقدرته في نزع القدرة عن ذاك وذاك يهم ويسعى في إزالة القدرة عن هذا. فلذا اتفقا على نزع القدرة، والاتفاق غالب ومؤثر فلذا تنزع القدرة عن

---

(١) سورة الأنعام، الآية (١٥٣).
(٢) سورة آل عمران، الآية (١٠٥).
(٣) سورة الأنفال، الآية (١٥).
(٤) سورة الأنفال، الآية (٤٥).
(٥) سورة الأنفال، الآية (٤٦).

الطرفين فيبدو فيهما الفشل وإذا بدا الفشل ذهبت الريح والعزة فإذا ذهبت العزة جاءت الاستكانة والذل (أعاذ الله الاسلام والمسلمين منها) إذ لا ريب في أن الكفار إن ظهروا على المسلمين لم يبقوا شيئاً من كيانهم كما قال الله سبحانه وتعالى:

﴿ان يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا اليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون﴾[1].

فحينئذ يصيب المسلمين الملق والخضوع. وقد قال رسول الله ﷺ:

«من مدح سلطاناً جائراً وتخفف وتضعضع له طمعاً فيه كان قرينه في النار».

وقال أيضاً: «من ولى جائرا على جوره كان قرين هامان في جهنم»[2].

وذلك لأن الذليل يضطر إلى الملق والمدح والتولي والخضوع للكفار ولكن هذا الأمر الاضطراري اختياري في الواقع لأن الامتناع بالاختيار لا ينافي الاختيار.

والحاصل أن العزة التي لله ولرسوله وللمؤمنين منوطة باتحادهم وتآخيهم وكونهم يداً واحدة على من سواهم، والا تحتم لهم الفشل وتعين لهم ذهاب الريح ونفاذ روح العزة وكتبت عليهم الذلة والمسكنة بعد ما وعدهم الله العزة والنصرة.

---

(١) سورة الممتحنة، الآية (٢).

(٢) من لا يحضره الفقيه، ج ٤ ص ٦.

وليعلم أن مناط الوحدة هو العقيدة كما ان مدار السياسة الاسلامية عليها حسبما تقدم سالفاً بيان أصالة العقيدة دون اللغة والقومية والمكان وغير ذلك.

وليعلم أيضاً أن موطن العقيدة هو القلب الذي زمامه بيد مقلب القلوب لا غير ولذا قال علي عليه السلام:

«عرفت الله سبحانه بفسخ العزائم، وحل العقود ونقض الهمم»[1].

وحيث أن القلب بيده تعالى فما لم يصر سالماً لم يتيسر له أن ينزع منه الغل والحقد والضغينة وما إلى ذلك من أدواء الصدور ولهذه الخصيصة قال الله سبحانه لرسوله:

﴿وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم﴾[2].

يعني أن القلب لكونه خارجاً عن منطقة الطبيعة والمادة لا يمتلكه شيء من الذخائر المادية حتى يعتقد به الحق ويتحد به مع القلب الآخر، بل إنما أمره بيد الله سبحانه وهو ينظر إلى القلوب والسير لا إلى الصور[3] فإذا وجد القلب سالماً عن المرض نوره بالوحدة والالفة وإذا وجده مريضاً يسارع في الكفار يقول: أخشى وأخاف أن تصيبني دائرة، وأخاف أن الاسلام ينهزم، وأن الكفر ينتصر ويغلب ـ أمسك الله فيضه عنه، وكله إلى نفسه، ومن وكله الله إلى نفسه فلا عماد له، ولا ملاذ له، لأنه لن تجد من دونه ملتحداً. قال

---

(١) نهج البلاغة، صبحي صالح ص ٥١١.
(٢) سورة الأنفال، الآية (٦٣).
(٣) ... قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن إنما ينظر إلى أعمالكم وقلوبكم ـ سنن ابن ماجة كتاب الزهد باب القناعة.

رسول الله ﷺ قال جل جلاله:

«أيما عبد أطاعني لم آكله إلى غيري، وأيما عبد عصاني وكلته إلى نفسه ثم لم أبال في أي واد هلك»[(١)].

وكذا قال الله تعالى:

«إذا عصاني من خلقي من يعرفني سلطت عليه من خلقي من لا يعرفني»[(٢)].

وبالجملة فالعزة حليفة الوحدة، كما أن الذلة قرينة الفرقة. فمن اتحد عزّو من تفرق ذل. وقد قال علي بن أبي طالب عليه السلام:

«فإن يد الله مع الجماعة، وإياكم والفرقة فإن الشاذ من الناس للشيطان كما أن الشاذ من الغنم للذئب الا من دعا إلى هذا الشعار فاقتلوه ولو كان تحت عمامتي هذه»[(٣)].

وقال أيضاً:

«ولا تباغضوا فإنها الحالقة»[(٤)] وحيث أن الوحدة عزة والعزة كرامة والكرامة بالتقوى، فمن كان اتقى كان أكرم وأعز، ومن كان أعز كان أدعى إلى الوحدة والتآخي كما كان علي عليه السلام كذلك وهو يقول:

«وليس رجل ـ فاعلم ـ أحرص على جماعة أمة محمد ﷺ والفتها مني أبتغي بذلك حسن الثواب وكرم

---

(١) من لا يحضره الفقيه، ج ٤ ص ٢٨٩.
(٢) المصدر السابق.
(٣) نهج البلاغة، الخطبة ١٢٧.
(٤) نهج البلاغة، الخطبة ٨٦.

المآب»[1] .

ثم ان الوحدة الموجبة للانتصار والعزة ليست بمعنى الادهان ولا الايهان في حكم الله تعالى بل هي بمعنى عدم الميل إلى الهوى وكل ما يوجب التفرق عن الاسلام لا ما يوجب الاتحاد وتأكيده وتقويته ومنه يظهر لزوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بشرائطه المقررة في الفقه، لأنه الموجب لعز الاسلام، وبعزته يعز المسلمون، وبنجاته ينجو المؤمنون. روى البخاري في صحيحة ج ٢ ص ٦ عن رسول الله ﷺ أنه يقول:

«كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، الامام راع ومسؤول عن رعيته والرجل راع في أهله وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته».

(وهذه المسؤولية العامة هي التي تحفظ الوحدة الاسلامية وتحرسها من الضياع ولقد مثلها رسول الله ﷺ بأروع تمثيل حيث قال:

«مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا في سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها وكان الذين في أسفلها إذ استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا؟ فإن تركوهم وما ارادوا هلكوا جميعاً وان أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا»[2] .

تأمل جيداً في هذا المثل واعقله لأن الأمثال مضروبة به للناس ولكن لا يعقلها الا العالمون وتدبر فيه حتى يتضح لك أن المسلمين هم ركاب

---

(١) نهج البلاغة، الكتاب ٧٨.

(٢) مناهل العرفان، ج ١ ص ٢٩٩ ، عن البخاري.

سفينة مهددة بالخرق والغرق فإن أخذت الأمم الاسلامية أيادي حكوماتها ومنعتها من خرق السفينة الاسلام بتولي الطغاة المسؤولين الذين لا يبقون ولا يذرون نجى الاسلام والمسلمون معا، وان نامت الأمم ـ ومن نام لم ينم عنه ـ وسبتت عقولها ـ (نعوذ بالله من سبات العقل) وتركت الحكومات وشأنها ولم تأخذ على أيديها وأهملتها حتى باعت الاسلام والمسلمين بثمن بخس هلكوا جميعاً.

وبالجملة: فإن كرامة الأمة الاسلامية في ضوء وحدتها وتآخيها .

ولا تحصل الوحدة والأخوة الا بصيانة بعضها البعض الآخر في الشؤون الدينية والاجتماعية وغيرها. قال رسول الله ﷺ :

«المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا».

وقال ﷺ :

«مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى».

وقال ﷺ أيضاً:

«المسلمون كرجل واحد أن اشتكى عينه اشتكى كله، وان اشتكى رأسه اشتكى كله»[1] .

ولا مرية في أنه لولا تعاضد الأعضاء وتعاونها لما بريء العضو المريض، ولما زال داؤه، وإذا لم يبرأ المريض ولم يزل داؤه لم يجد الراحة ولم يحصل على الأمان والصحة. أي النعمتين المجهولتين.

---

(١) صحيح مسلم الجزء الثامن ص٢٠ باب تراحم المؤمنين.

ومن هذا الباب ما أمر الله تعالى بالتعاون على البر والتقوى. . . ونهى عن التعاون على الإثم والعدوان كما في سورة المائدة الآية ٢ ـ لأن التعاون على التقوى يورث الاتحاد والأخوة، وأما التعاون على الإثم فيوجب التفرقة والنفرة المنافية للايمان. إذا الايمان يقتضي الأخوة في الله كما قال الله سبحانه وتعالى:

﴿إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم﴾[١].

ولنختم المقال بكلمة خاتم الأنبياء الذي أوتي جوامع الكلم وهي من غرر كلماته ﷺ التي لم يسبق اليها وهي قوله ﷺ: «الآن حمي الوطيس»[٢].

قالها ﷺ في حنين، أي اشتد الحرب وقام على ساق. والوطيس موقد النار شبه التنور والمراد به أن الشجاعة تنفع الآن. ويجب على كل أحد أن يبذل جهده حينئذ ولو وقع بعض الفتور أو الاحتياط وقعت المغلوبية وفيها خسران الدنيا والآخرة. وحينما يكون التنور حارا يجب انتهاز الفرصة بالاختباز. لأنه لو برد لما أمكن ذلك.

واعلموا أيها المسلمون أن الثورة الاسلامية في إيران بزعامة قائدها المرجع الديني الامام الخميني (ايده الله لما يجب ويرضى) وطيس حار مشتعل بالوعي والحرية والاستقلال والحركة والكفاح والقتال والجهاد والمجاهدة لأن الشعب الايراني المسلم قد هاجر الهجرتين اللتين أشار اليهما رسول الله ﷺ في قوله:

---

(١) سورة الحجرات، الآية (١٠).

(٢) من لا يحضره الفقيه، ج ٤ ص ٢٧٢ وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٠٦.

«إن الهجرة خصلتان إحداهما أن تهجر الشر والأخرى أن تهاجر إلى الله ورسوله»[1] .

وسارع إلى المغفرة من ربه وسابق إلى الخيرات بتحمل أعباء الاضطهاد والنهب والقتل والسبي وتخريب البيوت وهدم الشوارع والمخازن والمزارع والمصانع والمدارس والمستشفيات ونحوها وكل ذلك لله وفي سبيل الله وعلى ملة رسول الله ﷺ قطعا لأيادي الامبريالية والصهيونية وكل باغ وطاغ طلباً للاصلاح في الجامعة الانسانية بأن لا تعبد إلاّ ربها الذي هو رب العالمين، ولا تشرك به شيئاً، ولا يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله.

فهذا الوطيس حار بحرارة الايمان والشهادة:

«فانتهزوا الفرص واغتنموها، وتنفسوا قبل أن يضيق الخناق واختبزوا خبز الحرية والاستقلال والعدل والمساواة وكونوا لظالم خصماً وللمظلوم عوناً وعضواً على النواجد وعاودوا الكر، واستحيوا من الفر فإنه عارفي الأعقاب ونار يوم الحساب، وطيبوا عن أنفسكم نفساً، وأمشوا إلى الموت مشياً نجعاً فصمدا صمداً حتى ينجلي لكم عمود الحق وأنتم الأعلون، والله معكم ولن يتركم أعمالكم»[2] .

واعلموا عباد الله أن الله سبحانه وتعالى لن يتر عمل قوم أخلصوا له في الاضطهاد والشهادة إذ العمل الالهي مشفوع بالنتيجة وليس موتورا عنها، لأن الباطل موتور ويذهب جفاء وأما الحق فيمكث في الأرض، ولذا نهى الله

---

(١) البداية والنهاية لأبي الفداء، ج ١ ص ٢٠٢.
(٢) اقتباس من خطب نهج البلاغة.

سبحانه عن الوهن، وعن الدعوة إلى السلم والحال هذه: أي إذا اشتد وطيس الحرب بأبدان قطعت في سبيله إرباً إرباً، ورؤوس أطيح بها في طريقه وبمصائب أُخر لا يقدر البيان والبنان على شرحها فلا مجال للسلم، بل الأمر منحصر في الشهادة أو الانتصار. قال سبحانه وتعالى:

﴿فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم﴾[1].

أي لا تهنوا ولا تدعوا إلى المسالمة واعلموا أنكم أنتم الأعلون لأن الله القاهر فوق عباده معكم، ولن يقطع أعمالكم الصالحة عن الانتاج، ولن يتركم عن ثمرات مجاهداتكم ولا يجعلها وترا فردا بل يجعلها شفعاً وزوجاً بالانتاج. لأن العمل المنتج شفع، والعمل العقيم وتر، وحاشا الله سبحانه أن يعد عباده الذين اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بالنصر ويقول لهم: **﴿إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾** ويقول **﴿ولينصرن الله من ينصره﴾** ويقول **﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي﴾** ويقول **﴿ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾** ويقول **﴿كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله﴾**. . ثم لا يفي به سبحانه الذي لا يخلف وعده ولا يقطع رجاء من رجاه، ولا أمل من أمله سبحان الذي لا يعجزه شيء في السموات والأرض. . .

ونسأل الله تعالى منازل الشهداء، ومعايشة السعداء، ومرافقة الأنبياء[2] (اللهم إليك أفضت القلوب، ومدت الأعناق، وشخصت الأبصار، ونقلت الأقدام وانضيت الأبدان. اللهم قد صرح مكنون الشنان، وجاشت مراجل الأضغان. اللهم أنا نشكو إليك غيبة نبينا وكثرة عدونا

---

(١) سورة محمد ﷺ، الآية (٣٥).

(٢) . . . نهج البلاغة، الخطبة ٢٣.

وتشتت أهوائنا)[1].

(اللهم حصن ثغور المسلمين بعزتك وأيد حماتها بقوتك واسبغ عطاياهم من جدتك[2] وحيث أن الحمد لله بلغ منزلا وشاؤوا قاصيا جعله الله فاتحة كتابه وخاتمة دعوى أهل الجنة فقال (وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين) فلذا نحمده تعالى حمداً يضيء لنا به ظلمات البرزخ ويسهل علينا به سبيل البعث، ويشرف به منازلنا عند مواقف الاشهاد حمدا يرتفع منا إلى أعلى عليين في كتاب مرقوم يشهده المقربون حمداً تقر به عيوننا إذا برقت الأبصار وتبيض به وجوهنا إذا اسودت الوجوه حمداً نعتق به من أليم نار الله إلى كريم جوار الله حمداً نزاحم به ملائكته المقربين ونضاهي به أنبياءه المرسلين في دار المقامة التي لا تزول، ومحل كرامته التي لا تحول. حمداً لا منتهى لحده ولا حساب لعدده. حمداً يكون وصلة إلى طاعته وعفوه وسبباً إلى رضوانه، وطريعة إلى مغفرته. حمدا نسعد به في السعداء من أوليائه، ونصير به في نظم الشهداء بسيوف أعدائه. أنه ولي حميد.

تمّ والحمد لله رب العالمين بيد المحتاج إلى ربه الجواد عبد الله الجوادي الطبري الأملي ثم عيد الفطر في بلدة قم المحمية. صانها الله وجميع البلاد الاسلامية من الحدثان، وأظهر الله الاسلام على الدين كله آمين.

غرة شوال المكرم ١٤٠٣هـ. ق

٢١/ ٤/ ١٣٦٢هـ . ش

---

(١) ... الخطبة ١٥ في كتبه وداعيته عليه السلام.

(٢) ... الصحيفة السجادية، دعاء ٢٧.

نظام القضاء في الاسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلّى الله على جميع الأنبياء والمرسلين سيّما محمّد وآله الطاهرين.

وبعد: فيقول، العبد المفتقر إلى الله، عبد الله الجوادي الطبري الآملي: تمر علينا في الآيات القرآنية الكريمة، آيات عديدة تعالج (نظام القضاء) معالجة شاملة لا بد من الوقوف عليها والامعان فيها، ودراسة هذه الآيات واستخلاص النتائج المتوخاة منها تتم في فصول، هي:

١ـ ضرورة القضاء وأنه لا يمكن أن يعيش الانسان بدونه.

٢ـ معيار القضاء.

٣ـ أدب القاضي وما يعتبر فيه من الأوصاف وما له من الحقوق وما عليه من الوظائف الخاصة.

٤ـ وظيفة المتخاصمين في تعين الرجوع إلى الموازين التي عينها الوحي لا غيرها، والمنع من الأعراض عنها والإعتراض على ما صدر من

منبع القضاء.

٥ـ ما له مساس بالقضاء كالشهادة وما على الشاهد من التكاليف.

وتندرج في هذه الأمور مباحث هامة لا بد من الكلام حولها واستفادة النظرة القرآنية فيها. فإلى الفصول الآتية:

الفصل الأول
ضرورة القضاء

الانسان مخلوق اجتماعي لا يقدر أن ينفصل عن الآخرين انفصالاً كلياً في زاوية الخمول والانفراد، كما لا يمكنه أن يتحد مع غيره من كل جوانب الاتحاد، لما يحمله كل شخص من الأفكار الخاصة والصفات التي تختص به والأعمال التي يميل إليها بطبعه وينفرد بها ولا يشاركه فيها غيره كلاً أو بعضاً.

وإذا لم يتمكن الانسان من الانفراد والاخلاد إلى الوحدة المطلقة ولا الاتحاد الصرف مع الآخرين، فلا بد أن تظهر الخلافات بين الأفراد والجماعات ويقع النزاع فيما بينهم وتحدث المشاجرات حول المصالح الخاصة وغيرها «كل يجر النار إلى قرصه».

فلو لم يكن هناك ضوابط يرجع إليها الناس وملاكات بها يتميز الحق عن الباطل، لاختل النظام وانهدمت الجامعة الانسانية وسادت الفوضى بين الناس. وفي النصوص القرآنية الكريمة دلائل على ما قلنا:

أما الأوّل: وهو كون الانسان اجتماعياً.

فيدل عليه قوله تعالى:

﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا﴾[1] .

إذ لو لما يكن الانسان اجتماعياً بالطبع وكان يمكنه أن يعيش وحده لما احتاج إلى تكوّن الشعوب والقبائل، لأنه لم يحتج إلى التعارف المتوقف على الروابط الاجتماعية المفروض انتفاؤها.

وأمّا الثاني: وهو كون التنازع ضرورياً ـ فيدل عليه قوله تعالى:

﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين * الا من رحم ربك ولذلك خلقهم﴾[2] وقوله تعالى:

﴿وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين﴾[3] .

فلا يصحّ جعلهم أمة واحدة يأتمون كلهم بإمام واحد لا يحيدون عنه أصلاً، لأن ذلك إلجاء مناف للتكليف، بل مناف للتكامل أيضاً، بل هذا الالجاء مناف للحكمة أيضاً، لأن الاختلاف في الجملة أمر نافع كاختلاف كفتي الميزان، وبه يتحقق القسط ويتجنب عن الحيف.

وهذا اختلاف مقدس ممدوح، إذ المذموم منه هو خصوص ما كان بعد تبيّن الرشد من الغي واتضاح الحق.

ولقد أشار إلى هذين القسمين من الاختلاف قوله تعالى:

﴿كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم

---

(١) سورة الحجرات، الآية (١٣).
(٢) سورة هود، الآيتين (١١٨ ـ ١١٩).
(٣) سورة النحل، الآية (٩).

الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه الا الذين أوتوه بعدما جاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾[1] .

فإن المستفاد من صدر الآية أن الانسان البدائي ساذجاً في عقائده، سليم الفطرة بعيداً عن الزيغ والهوى، وأن كان يختلف مع بني نوعه في بعض شؤونه الحياتية، والاختلاف في مثل هذه الأمور لا بد منه في مسيرة حياته، لأنه خلق معداً للكمال وهذا دخيل في مراحل تكامله.

ولأجل تعديل هذا الاختلاف وبيان ما هو الحق عند التنازع قد أنزل الله تعالى الكتاب المصحوب بالحق، يدور معه حيثما دار.

وعند تبيّن الحق واتضاحه انقسموا إلى قسمين فبعضهم آمن واتبع ما جاء به الكتاب وبعضهم لم يؤمن بغياً وعدواناً.

هذا هو الاختلاف في العقيدة، وهو الاختلاف المذموم، لأنه بعد تبين الحق، وهو البغي والطغيان.

وأمّا الثالث: وهو لزوم تعيين الضابط لحل الاختلاف ـ فيدل عليه قوله تعالى:

﴿بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريج﴾[2] .

فإنه عزّ شأنه ذمهم باختلال أمرهم وانهم وقعوا في هرج ومرج بتكذيبهم الحق، فيلزم عليهم الرجوع إلى الحق والتجنب عن إيجاد المرج والمحافظة على النظم الصحيح.

---

(١) سورة البقرة، الآية (٢١٣).
(٢) سورة ق، الآية (٥).

لقد اهتم الاسلام في دفع هذا الاختلاف بالتعليم والتربية والتهذيب والتصفية، وأكّد الحثّ على الاعتصام بحبل الله المتين وعدم التنازع الموجب للفشل، وأوجد الاخاء والتآلف بين المؤمنين وجعلهم رحماء بينهم وإن كانوا أشداء على الكفار.

ووصفهم بأنهم أمام الباطل كأنهم بنيان مرصوص، وإن بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ودعاهم إلى الدخول في السلم كافة وأن لا يشذوا عن ربقة الاسلام ولو بشبر «إذ الشاذ من الناس للشيطان كما إن الشاذ من الغنم للذئب» ومدح الذين يستغفرون الله تعالى لهم ولإخوانهم الذين سبقوهم بالايمان وعرفهم بأنهم يدعونه تعالى بأن لا يجعل في قلوبهم غلاً للذين آمنوا...

إلى غير ذلك من الأوصاف السامية الموجبة لدفع الاختلاف المانعة لتكونه في الجوانح أو بروزه في الجوارح، حيث أدّبهم بأن الله يعلم ما يخفون في أنفسهم وما يبدونه بجوارحهم.

وفي رفع هذا الاختلاف ـ بالتحاكم إلى الله ورسوله والرد إليه وتحكيمه فيما شجر بينهم وعدم العدول عنه إلى غيره وأن حكمه هو المرجع القضائي الوحيد لفصل الخصومات وحلّ الخلافات وأن ليس لأحدٍ الخيرة فيما قضى الله ورسوله ـ صوناً للنظام، وحفظاً للوحدة.

لأن القضاء هو الضامن لتطبيق النظام العادل والمانع من الاضطراب في الأمور، والموجب لاستقرار كل شيء في مقره الخاص ورجوع كل حق إلى صاحبه ونيل كل ذي حق حقه.

من هنا سميت القضية «قضية» لأن المحمول ما لم يتبيّن وضعه

وحكمه بالنسبة إلى الموضوع ولم يتعيّن حكمه بالقياس إلى المحمول سلباً أو إثباتاً، يكون الانسان متردداً غير مطمئن إلى شيء، يُقدّم رجلاً ويوخر أخرى إلى أن يتبين الرشد من الغيّ ويمتاز الصحيح من السقيم.

ويحكم العقل بأمر خاص ويقضي بحكم مخصوص.

فتحصل الطمأنينة النفسية وتزول عنه الشكوك، فيتصف حينئذ ذلك الأمر بلحاظ أجزائه المتصورة بالقضية، كما أنه تتصف تلك الصورة النفسانية بلحاظ مقدماتها التصورية بالتصديق.

الفصل الثاني
ميزان القضاء

قد تبيّن في الفصل السابق أن القضاء ضروري في حفظ النظام والحد من الجموح، ونعطف العنان في هذا الفصل إلى البحث عن المعيار فيه ومعرفة ميزانه، فنقول:

يحتمل باديء الأمر استقلال العقل الانساني في ذلك، وأن مداره هو ما ناله البشر المتفكر برأيه من دون الرجوع إلى الرسالات السماوية بل من دون الحاجة إلى ذلك رأساً.

ولكن التعمق في دليل ضرورة القضاء وتحتّمه يرشد إلى عدم كفاية العقل الانساني في ذلك وأنه قاصر عن تعيين ميزان القضاء وتحديد مداره، لأن الانسان ـ كما تقدم ـ ليس موافقاً في كل آرائه ونظرياته مع غيره من بني نوعه، فكل شخص يرى نفسه مصيباً فيما يرتئيه وغيره مخطئاً فيما يذهب إليه، ويتخيل أن رأيه هو الصائب النافع للناس، ورأي غيره هو القاصر الضار لهم.

فينشأ النقاش الفكري والنزاع العلمي والأخذ والرد.

هذا بالاضافة إلى أنه جبل الكل على النفع إلى النفس والقوم والعشيرة واعتبار أنهم أولى من غيرهم به، وهذا يؤثر كل الأثر في كيفية وضع القانون وتطبيقه.

والنتيجة:

أن العامل للاختلاف الموجب لضرورة القضاء لا يمكن أن يكون رافعاً للاختلاف وعاملاً لحلّ الخصومات.

ومن هنا نستنتج أن العقل الانساني غير كاف لتوفير السعادة في المجتمع البشري بالاستقلال، بل هو سراج ينير الطريق ويهدي سالكه إلى الهدف المنشود ونعني به الطريق الذي دلّ عليه الوحي الالهي.

وإذا كان العقل البشري ـ لقصور باعه العلمي واحتفافه بدواع زائفة نفسانية ـ غير كاف لتعيين ميزان القضاء، فينبغي البحث عما هو المعيار الكامل للحكم بين الناس، ويتم ذلك بالنظر في أمرين:

أحدهما قصور الفكر البشري وعدم توصّله إلى بيان المعيار القضائي، والآخر هو نبوغ الوحي الالهي وصلوحه لتبيين النظام القضائي، لأنه مستمد من الغيب وخارق لنواميس الطبيعة كما سيظهر ذلك. إن شاء الله.

أمّا الأمر الأوّل: فيدل عليه قوله تعالى:

﴿رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً﴾(١).

---

(١) سورة النساء، الآية (١٦٥).

حيث دلّ على أن العقل وحده غير كاف لنيل الكمال والهداية إلى السبيل الأقوم، إذ لو كان ذلك كافياً لصحّ الاحتجاج بهبة العقل والاستناد إلى إرشاده، فلو ارتكب الناس إثماً وفعلوا باطلاً كانت حجة الله عليهم قائمة بأن العقل الذي أوتوه قد نهاهم عنه، فلم لم يتبعوه ولم خالفوه، ولصحّ حينئذ تعذيبهم على ما ارتكبوا من الذنوب وما اجترحوه من السيئات.

ولكن القرآن الكريم لا يصحح التعذيب قبل الارسال ولا يجوّزه فقد قال تعالى:

﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً﴾[1].

وقال عزّ شأنه:

﴿ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى﴾[2].

دلّ هذا على أنه ليس من سنن الله تعذيب العباد قبل ارسال الرسل ولا الاذلال والاخزاء والأهلاك بالعذاب قبل بعث الأنبياء، والا لاحتج هؤلاء عليه تعالى بأن ذلك كان قبل اتمام الحجة.

هذا وأن لم يكن مرتبطاً بباب القضاء خاصة ولكنه لدلالته على ان العقل وحده لا يوفّر السعادة الانسانية يشمل المقام أيضاً.

ومما يدل على قصور باع الفكر البشري وأنه ليس محيطاً بجميع المصالح والمفاسد حتى في أقرب الأمور إليه قوله تعالى عند بيان توزيع

---

(١) سورة الاسراء، الآية (١٥).

(٢) سورة طه، الآية (١٣٤).

الإرث وتعيين النصاب الخاص لكل واحد من الوراث:

﴿لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعاً﴾[1].

وكذا قوله تعالى عند بيان لزوم الايمان بالوحي وعدم جواز التولي عنه:

﴿فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤون﴾[2].

حيث يدلّ على أن ما عند البشر من العلم لا يضمن توفير السعادة له والا لم يكن الاكتفاء به مذموماً، وليس ذلك الاّ أنه قاصر عن التوصل إلى ما يحتاج إليه، فالاقتصار عليه والأعراض عما جاء به الأنبياء أمر مذموم.

ومما يدل على أن الانسان لا يقدر على إقامة القسط وتعيين ميزان القضاء العادل بما أوتي من العقل قوله تعالى:

﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز﴾[3].

فإنه يدلّ على أن الغاية المترتبة على ارسال الرّسل مع البيّنات وإنزال الكتاب معهم، هو قيام الناس بالقسط، فلو كان الانسان قادراً بعقله على إحراز القسط بدون الوحي لما احتيج إليه.

والسر في أن الانسان غير قادر على تعيين المعيار للقضاء هو:

---

(١) سورة النساء، الآية (١١).
(٢) سورة غافر، الآية (٨٣).
(٣) سورة الحديد، الآية (٢٥).

أن الانسان موجود له عوالم ودرجات أو دركات، ينتقل من عالم إلى عالم ومن مرتبة إلى أخرى، وهو موجود دائمي لا يفنى وأن كان ينتقل من دار إلى دار، فعليه لا بد من تكامله بأمر لا يزول ولا يفنى ولا يضر بدنياه ولا آخراه.

ومن المعلوم أن تعيين ما هذا شأنه يحتاج إلى العلم المحيط بحقائق الانسانية وما به يترقى إلى الدرجات العلى أو يهوي إلى الدركات السفلى.

وأين هذا من الانسان الذي قد أوتي من العلم قليلاً ولا يدرك كثيراً مما ينفعه أو يضره؟

وأمّا الأمر الثاني: وهو صلوح الوحي الالهي لبيان النظام القضائي لا غيره ـ فيدل عليه غير واحد من الآيات القرآنية.

منها: قوله تعالى:

﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾[1].

وقوله:

﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾[2].

وقوله:

﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾[3].

وسيتّضح الميز بين الكفر وغيره من السيئات الطارئة حال القضاء.

---

(١) سورة المائدة، الآية (٤٤).
(٢) سورة المائدة، الآية (٤٥).
(٣) سورة المائدة، الآية (٤٧).

ومنها: قوله تعالى:

﴿أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون﴾[1].

فقد دلّ على أن الحكم لا بد وأن يكون حكم الله المعين بالوحي أو حكم الجاهلية، هذا يشمل كلّ حكم وقانون يتبعه الناس، سواء توسّم ذلك القانون بالمدنية أم لم يتوسّم، وسواء تقبله كلّ الناس أو بعضهم أو رفضوه.

والسر فيه، أنه ليس بعد الحق الاّ الضّلال، واتباع ما ليس من الله تعالى يوجب البعد عن الصراط المستقيم المفضي إلى دار السلام، فإنّ الطريق إثنان، لا ثالث لهما مهما سمّيت الطرق، طريق الله عزّ شأنه الهادي إلى سواء السبيل وطريق الطاغوت الهاوي في المهوى السحيق.

ومنها: قوله تعالى:

﴿وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله ذلكم الله ربي عليه توكلت وإليه أنيب﴾[2].

تدلّ الآية على أنّ المرجع الوحيد لحلّ الخلافات هو حكم الله لا غير سواء كان ذلك في الحقوق والأموال أو في غيرها.

ومنها: قوله تعالى:

﴿فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق﴾[3].

---

(١) سورة المائدة، الآية (٥٠).
(٢) سورة الشورى، الآية (١٠).
(٣) سورة المائدة، الآية (٤٨).

فجعل مدار الحكم هو ما أنزله الله لا غيره.

إلى غير ذلك من الآيات الحاصرة لميزان القضاء في الوحي الالهي الدالة على أن ما عداه جاهلية وطاغوت، وأن غير دين الله لا يقبل، وأن غير سبيل المؤمنين لا يهدي إلى الرضوان ودار السلام بل يسوق إلى السخط ودار البوار جهنّم يصلونها وبئس القرار، لأنه ليس سبيلاً هادياً إلى سواء القصد، ولذا خاطب عزّ وعلا، المنحرفين عن الوحي، المعرضين عن الرسول بقوله:

﴿فأين تذهبون * إن هو إلا ذكر للعالمين﴾(1).

ومن هنا يظهر المراد من العلم الذي قد حثّ الله تعالى على الاّ يقولوا ما لا يعلمون ولا يكذبوا ما لا يعلمون، وأكّد على أنّ تصديقهم وتكذيبهم لا بد أن يكون عن علم واثباتهم ونفيهم عن بصيرة، فقال تقريعاً للمكذبين بغير علم:

﴿بل كذّبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله﴾(2).

وقال تعالى:

﴿ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلاّ الحق﴾(3).

وقد دلّت هذه الآية على الاقتصار على خصوص القول عن علم والتصديق عن بصيرة كما في قوله عزّ من قائل:

---

(1) سورة التكوير، الآيتين (٢٦ ـ ٢٧).
(2) سورة يونس، الآية (٣٩).
(3) سورة الأعراف، الآية (١٦٩).

﴿ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً﴾[1] .

يراد من العلم في هذه الموارد ونظائرها مما يرجع إلى ما له مساس بالسعادة والحياة الطيبة، ما يكون مطابقاً لما أنزل الله تعالى على رسوله، فإنه هو المصون عن آفة الجهل والنسيان والطغيان، وهو الذي يصلح أن يكون مناطاً ومداراً وحيداً للقضاء.

وأما العقل فهو مستقل في الأصول الدينية، وبإرشاده يمكن معرفة الله تعالى والتصديق به ونفي الصفات الزائدة عنه، وهكذا معرفة الرسول ولزوم عصمته وبراءته عن الذنب والخطأ في التبليغ، ومعرفة أصل المعاد وعود الانسان بروحه وبدنه للمحاسبة، ولكن العقل مع هذا قاصر عن درك كثير من الشؤون الراجعة إلى هذه الأصول الهامة، كما أنه قاصر عن درك المصالح والمفاسد الخفية في الأشياء والأفعال والسنن والآداب.

فلذا يحتاج دائماً إلى تسديد الوحي فيما يدركه ويحتاج إلى تعليمه فيما لا يناله بالاستقلال. قال تعالى:

﴿ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾[2] .

ونتيجة هذا الكلام:

أن معيار القضاء هو الميزان الذي أنزله الله بالوحي ووضعه للناس ليقوموا بالقسط والعدل فيما بينهم.

(١) سورة الاسراء، الآية (٣٦).
(٢) سورة البقرة، الآية (١٥١).

الفصل الثالث
أدب القاضي

قد تبيّن أن القضاء ضروري لحفظ المجتمع الانساني وأن ميزانه هو الوحي لا غير، وفي هذا الفصل نريد أن نتحدث عن تحقّقه الخارجي وكيف يمكن أن يوجد بالشكل المطلوب الذي يتمكن أن يطبق العدل الالهي المستمد من الوحي السماوي:

يمكن نشر العدل في المجتمع الانساني بقاضٍ عالم بالميزان الالهي للقضاء ومؤمن به عامل بمقتضاه، ولو لم يكن العلم والايمان والعمل لم يبق للميزان وحده أثر هام، لأنه يكون كالسراج في يد الأعمى لا ينتفع هو به ولا ينفع غيره، وهو غير مأمون من العثرة وعندها ينكسر السراج أو ينطفىء، فلا محيص من كون القاضي المباشر للقضاء عالماً عادلاً.

والانسان تحكم عليه ثلاث قوى هامة تنبع منها سعادته أو شقاوته، هذه الثلاث هي:

عقله الذي به يدرك الأمور. وشهوته التي بها يجذب الأشياء ويريدها لنفسه. وغضبه الذي به يدفع عنه ما يكرهه.

ولا بد من العلم والعدل في هذه القوى الثلاث، حتى لا يجور القاضي في الحكم ولا يتعدى عن طريق الحق، وذلك:

بان يكون عقله متوجهاً إلى نيل ما جاء به الأنبياء وتعليمه، لكي لا يتطرقه الهوى، إذ لا طريق للرأي في الدين، ومن نظر برأيه هلك، ومن ترك كتاب الله تعالى وقول نبيه كفر، ومن كان مفزعه في المعضلات نفسه لا غيرها ضلّ، ومن اتّكأ في المبهمات على رأيه فكأنما جعله أمام نفسه:

وأن تكون شهوته عادلة، لا يحكم حباً لأمر خاص أو شخص معيّن، أو طمعاً في مال أو جاه أو مقام، وغير ذلك مما يرجع إلى مشتهيات النفس الباطلة.

وأن يكون غضبه معتدلاً لا يحكم بغضاً لأمر، ولا اعتداءً على شخص، أو خوفاً من تهديد، أو إرعاباً من تخويف، وغير ذلك مما يعود إلى شعب الغضب والبغض وأمثالهما.

فمن اعتدل في عقله بتعليم الوحي الالهي والايمان به، واعتدل في شهوته وغضبه بأن كان حبّه وبغضه لله تعالى، فهو الصالح للقضاء بين الناس بالحق.

ولقد اعتنى القرآن الكريم في تهذيب النفس ـ سيّما حال القضاء ـ بتعديل القوى الثلاث المذكورة، نستعرض ما جاء فيه فيما يلي:

الأول: ما يدل على تعديل العقل، بلزوم تعلّم الوحي والتعمق فيما جاء به الأنبياء عليهم السلام، وأن من لم يحكم بما أنزل الله فهو كافر، وقد سبق تفصيله في الفصل الثاني فلا نعيده.

الثاني: ما يدل على تعديل الحب، كما في قوله تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين﴾[1].

فقد أمر تعالى المؤمن أن يكون قواماً بالقسط وهو أعظم من القيام بالقسط جداً، وأمر أن تكون شهادته لله لو على نفسه أو الوالدين والأقربين

---

(١) سورة النساء، الآية (١٣٥).

حتى لا يكون حبه لنفسه أو لأقاربه مانعاً عن إقامة القسط أو الشهادة لله، فلو لزم الاقرار على نفسه، أقر عليها، ولو كان إقامة الحق يستدعي الشهادة على أقاربه الأدنين لم يمتنع من الشهادة. وعند ذلك تكون شهوته عادلة، وحبه في الله وهو مجذوب إلى الله، فلا يطمع في شيء لا يرضاه الله ولا يطمعه شيء يكرهه الله ولا يرغب في باطل ولا يميل إلى زائف، فلا يمكن السيطرة عليه من قبل شهوته ولا السلطة عليه من جهتها ولا الاستيلاء عليه من طريقها.

الثالث: ما يدل على تعديل الغضب، كما في قوله تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا أعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون﴾[1].

أمر تعالى في هذه الآية المؤمن أن يكون قواماً لله شاهداً بالقسط وهي كالآية السابقة مشحونة بالعناية بالقسط والعدل، ونهى تعالى أيضاً المؤمن أن يحمله شنآن قوم وعداوتهم على الاعتداء وترك العدل وسيطرة البغض على القضاء.

وعليه فلا بد على القاضي أن يتأدب بآداب الله تعالى، بأن يكون غضبه لله وحده ولا يوجب بغضه لقوم الحكم الجائر، وإذا كان كذلك اعتدلت قوته الغضبية فلا خوف له من غير الله ولا رهبة له من مخلوق، فلا يمكن السلطة عليه من ناحية الغضب ولا إثارة غيضه.

فإذا بلغ الانسان هذا المبلغ من السيطرة على النفس واتصف بالعلم

(١) سورة المائدة، الآية (٨).

والعدل واعتدلت قواه العقلية والعملية، صح له حينذاك أن يتصدى القضاء والجلوس في مجلس لا يجلسه الا النبي أو الوصي، لأنه وأن لم يكن نبياً ولا وصياً بالوصاية الخاصة - كما في الأئمة المعصومين عليهم السلام - الاّ أنه وصي بالوصاية العامة بمقتضى نصوص النصب.

وصح أيضاً لهذا القاضي أن يحكم بعلمه، لأن سائر الامارات حجة بالعلم وهو - أي العلم حجة بذاته - فإذا علم القاضي العادل الحق فله أن يحكم بما علم، لشمول الآيات الآمرة بالحكم بالعدل ونحوه له، بل لو قامت البينة على خلاف ما علم أو حلف المنكر كذلك، فله أن يعرض عن الحكم ويرجعه إلى قاض آخر مثلاً، ولا يجوز الحكم على خلاف علمه وأن وافق البيّنة أو اليمين.

ولا يصح نقض حكمه والرد عليه، لأنه كالرد على الامام المعصوم الذي يكون الرد عليه كالرد على الله تعالى، وهو على حدّ الكفر الفعلي والشرك العملي بالله، لا الكفر الاعتقادي، لأن الكفر الاعتقادي يختص بما يرجع إلى انكار أحد الأصول الدينية بلا واسطة أو معها عند الالتفات إلى الرجوع إليه.

ثمّ أن من أهمّ آداب القاضي هو اتقاؤه عن الرشا في الحكم، لأنه سحت وغلول وتعدّ.

قد نهى القرآن الكريم عنه بقوله:

﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون﴾[1].

---

(١) سورة البقرة، الآية (١٨٨).

نهى عن الأدلاء بالأموال إلى الحكام طمعاً في قضائهم بالجور.

و«الأدلاء» هو إرسال الدلو إلى باطن البئر لاستخراج ما في غورها من الماء والنكتة في استعمال هذه اللفظة هنا أن الرشوة بمنزلة الدلو المرسل إلى باطن القاضي لاستخراج ما في سريرته الخبيثة من الحيف والجور.

فلا بد من طهارة الباطن ونزاهة الضمير حتى لا ينعطف نحو المال ولا ينقبض بالقهر، وقد نهى القرآن عن هاتين الخصلتين بقوله:

﴿فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً﴾[1].

فإن الأول ناظر إلى النهي عن الخوف الباطل تعديلاً للقوة الغضبية، والثاني ناظر إلى النهي عن الجذب الكاذب تعديلاً للقوة الشهوية، مع الالتفات إلى أنّ الدنيا بأسرها متاع قليل، والقاضي الجائر لو أوتي الدنيا بحذافيرها تجاه ما يجور في الحكم، لكان قد اشترى بحكم الله ثمناً قليلاً، لأن الزائل قليل مهما كان كثيراً في ظاهر الأمر.

ولا اختصاص للرشوة المنهى عنها بالعين بل تشمل المنفعة والانتفاع أيضاً كما أنها قد تكون عملاً خاصاً ينجزه الراشي، أو قولاً يمدحه به ويثني عليه، أو فعلاً، كإظهار تعظيمه وتبجيله مثلاً، فهذه كلها محرّمة، لصدق الرشوة عليها موضوعاً، أو للالحاق بها حكماً[2].

وسنذكر في (أدب المتخاصمين) أن البذل والأخذ كلاهما حرام.

ومما مضى ظهر: لزوم تحفظ القاضي عن أن يصير خصيماً للخائن،

---

(١) سورة المائدة، الآية (٤٤).

(٢) الطباطبائي، العروة الوثقى ٣.

وهو أما بالجذب الباطل أو الدفع الكاذب، ويدل عليه قوله تعالى:

﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً﴾[1].

فقد نهى القاضي أن يكون خصيماً للخائن مدافعاً عنه، إذ الخائن إنما يخون نفسه ولذلك لا يحبه الله تعالى، فعلى الحاكم أن يتحرز عن الميل إليه والذب عنه وطرد المظلوم والوقوف إلى جانب الظالم.

ونتيجة الكلام:

أن المتجه في نظام القضاء هو اتصاف القاضي بالعدالة الكبرى الحاصلة في القوة العقلية بالحكمة، وفي الشهوية بالسخاء والعفة، وفي الغضبية بالشجاعة، فيصبح القضاء طاهراً عن لوث الجور وقذارة الباطل ورجس الزور، وبذلك ينال من الخير ما لا يعادله الحسنات الأخرى.

ومن سنن القضاء أن لا يبادر القاضي بالحكم قبل إتمام التحقيق وسؤال الخصمين وإليه يشير قوله تعالى:

﴿إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزني في الخطاب * قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه وإن كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخرّ راكعاً وأناب﴾[2].

في هذه الآية إشارة إلى أن الأولى ترك البدار إلى وصف الخصم بالظلم وأن كان مع حفظ الفرض والاشتراط، أي على فرض صحة ذاك

---

(١) سورة النساء، الآية (١٠٥).

(٢) سورة ص، الآيتين (٢٣ ـ ٢٤).

السؤال.

وليس في الآية ما يدل على الحزازة بالقياس إلى مقام النبوة، حيث ذكرت هذه القضية في سورة (ص) بين مدحين لداود عليه السلام، فإن قبلها قوله تعالى: ﴿وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب﴾ وبعدها قوله:

﴿يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق﴾.

ومن المعلوم: أن النبي الذي آتاه الله الحكمة وفصل الخطاب وجعله خليفة في الأرض وأمره أن يحكم بين الناس بالحق، لا يبادر إلى الحكم قبل إتمام نصاب التحقيق البتة، فلا بد وأن يكون ما صدر منه عليه السلام إنما صدر بلسان التعليق والاشتراط، أي لو فرض صحة ذلك السؤال لكان ظلماً.

فعليه يلزم أن يتأدب القاضي بترك التسرع لما كان مثل هذا الحكم أيضاً، كما أن عليه أن يسوي بين الخصمين في النظر والقول، وأن يعلم أن لسانه بين جمرتين من النار وان لسانه وراء قلبه فإن كان له قال وأن كان عليه أمسك.

ولو لم يتأدّب القاضي بالأدب الالهي لما كان لقضائه مغزى وإن كان حقاً إذ المعتبر في نفوذ القضاء أمران:

الحسن الفعلي: بأن يكون القضاء مطابقاً للحق، والحسن الفاعلي: بأن يكون صادراً عن نفس زكية وقلب مطمئن بالإيمان لا يخاف في الله لومة لائم، إذ القضاة أربعة، ثلاثة في النار وواحدة في الجنة[١] وهو الذي قضى بالحق وهو يعلم أنه حق.

---

(١) الوسائل، باب ٤ من أبواب صفات القاضي.

الفصل الرابع
أدب المتخاصمين

قد تبيّن أنّ ميزان القضاء هو الوحي الالهي لا غير، وأنّ المرجع الوحيد لفصل الخصومة هو العالم بالوحي والمؤمن به والمتصف بما جعله ملاكاً للقضاء فيتعين الرجوع إليه عند التخاصم ويكون الأعراض عنه بالرجوع إلى غيره أعراضاً عن الحق واتجاهاً نحو الباطل، وهو ضلال بعيد كما قال تعالى:

﴿ألم ترَ إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً﴾(١) .

فليس للمؤمن أن يتحاكم إلى من أمر أن يكفر به، كما أنه ليس للطاغوت أيضاً أن ينصب نفسه للقضاء، ولا يبلغ الانسان درجة الايمان حتى يحكّم رسول الله ويختاره حكماً كما اختاره الله تعالى كذلك ويراجع في خلافاته مع الآخرين إليه، ثم لا يجد في نفسه حرجاً ولا ضيقاً مما حكم به الرسول، سواء كان له أو عليه، إذ المؤمن هو الذي يسلم أمره إلى الله تعالى.

﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما﴾(٢) .

جو الآية الكريمة يبيّن بوضوح وظيفة المتخاصمين عند الاختلاف

---

(١) سورة النساء، الآية (٦٠).
(٢) سورة النساء، الآية (٦٥).

والنزاع، وإنها الرجوع إلى الرسول لا غير، وتحث على الانقياد المحض لحكمه عندما يصدره حين التحاكم إليه ﷺ إذ الايمان هو طمأنينة النفس والسكون، وهو لا يحصل الا بانقياد القلب وعمل الجوارح كليهما.

وقد وصف القرآن الكريم بالظلم من لا يتحاكم إلى الله ورسوله الاّ إذا كان الحق له، كما وصف بالفلاح من إذا دعى إلى الله ورسوله ليحكم بينه وبين خصمه أجاب وأطاع، فقال عز من قائل:

﴿وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون * وان يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين * أفي قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون﴾(١).

فقد أفاد بالتحليل إن الإعراض عن محكمة الرسول إنما هو ناشىء عن الظلم.

وقال تعالى:

﴿إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون﴾(٢).

فقد أفاد أنّ الفلاح يقتضي الانقياد لله ورسوله، وسر ذلك أن المؤمن قد بايع الله ورسوله، ومقتضى البيعة أنه قد باع نفسه وجميع ما يملك من الأهل والمال لله ورسوله، فهو لا يملك نفسه ولا شيئاً مما يضاف إليه لأنه قد باعها لله والرسول، فليس له أن يتصرف في نفسه أو ما يعود إليه الا برضى الله ورسوله، ولذا قال تعالى:

---

(١) سورة النور، الآيات (٤٨ ـ ٥٠).
(٢) سورة النور، الآية (٥١).

﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعصى الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً﴾[1] .

وكما إن المؤمن ليس له الخيرة في التحاكم إلى الله ورسوله لأنه متعيّن عليه، كذلك ليس له الخيرة في أمره بعد صدور حكمهما عليه، فإنّ عدم الإذعان إلى حكمهما عصيان وضلال.

أضف إلى ذلك: أن الرسول قد بعث بالكتاب ليحكم بين الناس بالحق وهكذا الحكم هو المتعين عليه ﷺ فيتعين الرجوع إليه وقبول قضائه، والا لما كان لتعين الحكم بين الناس بالحق على الرسول وجه، كما أنه لا يبقى وجه لتعين التحاكم الى الرسول على الناس مع عدم تعيّن الحكم بينهم عليه.

تنبيهان

الأول: إن الرجوع إلى الطاغوت عصيان وأخذ المال بحكمه سحت وإن كان المأخوذ حلالاً.

هذا إذا كان المال المتنازع فيه عيناً، وأما الدين ففي كونه كالعين إشكال، تفصيله يطلب من الكتب الفقهية.

الثاني: إن القضاء إنما هو لفصل الخصومة فقط ولا أثر له في تغيير الواقع عما هو عليه، فمن ادعى باطلاً وأقام على دعواه شاهد زور، أو أنكر حقاً وحلف يميناً فاجرة وخفى ذلك على الحاكم فحكم على مقتضى البيّنة الكاذبة أو اليمين الفاجرة بخلاف الواقع... يلزم على كل من علم به الاتقاء

---

(١) سورة الأحزاب، الآية (٣٦).

عنه، لأنه قطعة من النار، وتفصيله في الكتب الفقهية أيضاً.

الفصل الخامس
أدب الشاهد

للقضاء سند خاص يستند إليه القاضي في حكمه، فإن كان متيناً كان القضاء صحيحاً مطابقاً للمواقع والآ فلا.

وكما قلنا في القاضي أنه لا بد أن يكون عالماً عادلاً، كذلك لا بد أن يكون الشاهد عالماً عادلاً.

والفرق بينهما إنه يعتبر في القاضي علمه بالقانون الالهي وفي الشاهد علمه بالموضوع مشاهدة، فيلزم عليه رعاية أمور.

منها الحضور في الحادثة لتحمل الشهادة عن معاينة، منها الحضور في المحكمة لادائها[1] بلا تبديل ولا إعراض، أي ليس له أن يعرض عن الشهادة ويكتمها، لأن الكاتم آثم قلبه[2] أو يبدلها لأن الله تعالى بما يعملون خبير، كما دلّ عليه قوله تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على انفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فاللَّهُ أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً﴾[3].

قد تقدم تحقيق التمييز بين كون الانسان قائماً بالقسط وكونه قواماً به، كما تقدم أيضاً البحث حول الشهادة على النفس والأقرباء. والمتحصل من

---

(١) سورة البقرة، الآية (٢٨٢).
(٢) سورة البقرة، الآية (٢٨٣).
(٣) سورة النساء، الآية (١٣٥).

الآية الكريمة: عدم دخالة شيء من العوامل النفسية أو القومية أو الاقتصادية في الشهادة، حتى لا يوجب حب النفس أو الوالدين أو الأقربين. وكذا يجب أن لا تؤثر العوامل الاقتصادية من الغنى والفقر في كيفية إداء الشهادة أو الإعراض عنها، والسر في ذلك كلّه أن الله تعالى خبير بما يعمله العبد كائناً ما كان شهيد عليه، فمن علم ذلك يحفظ نفسه عن الزلة والذلة.

ويستفاد من الآية أيضاً عدم منع القرابة عن قبول الشهادة لبعض الأقرباء أو عليه حتى الولد على الوالد، لتمامية دلالة الآية وعدم تمامية ما استدل به للمنع عن ذلك، وتفصيله يطلب من كتب الفقه.

الفصل السادس
أدب الحكم بين أهل الكتاب

المتحاكمان قد يكونان مسلمين وقد يكونان من اليهود والنصارى مثلاً وقد يكونان مختلفي الدين.

فإن كان المتحاكمان مسلمين يحكم القاضي بينهما بمقتضى الدين الاسلامي لا غير. وان كانا يهوديين أو نصرانيين مثلاً فالحاكم بالخيار بين أن يحكم بينهما بمقتضى الاسلام أو يرجعهما إلى المحاكم الخاصة بملتهما لتحكم بينهما بمقتضى تلك الملة، كما يدل عليه قوله تعالى:

﴿فإن جاؤوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين﴾[١].

صريح هذه الآية الكريمة هو التخيير بين الأمرين، ولا ينافيه ما هو الظاهر في تعيين الحكم بينهم بمقتضى الاسلام، لأن النص مقدم على

---

(١) سورة المائدة، الآية ٤٢.

الظاهر أولاً، ولأن التخيير بين الأمرين هو أيضاً مما يقتضيه الاسلام، فلا مجال لتوهّم كون هذه الآية منسوخة بقوله تعالى:

﴿فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم﴾[1].

إذ لا تنافي بينما هو نصّ في التخيير ومما هو ظاهر في التعيين، بالاضافة إلى أن التخيير أيضاً هو مما أنزله الله تعالى.

ثم ان تفصيل الكلام فيما إذا كان المتحاكمان مختلفين في الملة وفي جواز أن يحكم قاضي المسلمين بينهم بمقتضى شريعتهم، حسبما يتراءى من قوله عليه السلام:

«لو ثنيت لي الوسادة لحكمت بين أهل الانجيل بإنجيلهم...».

وفي غير ذلك من المباحث الفرعية موكول إلى محله من كتب الفقه.

ولقد قوي بعض أصحابنا الإمامية[2] تحتّم الحكم بينهما بمذهب الاسلام، لأن ردهما إلى إحدى الملّتين موجب لاثارة الفتنة، وقد احتاط سيّدنا الأستاذ دام ظله فيما إذا زنى ذمي بذمية أو لاط ذمي بذمي بإجراء الحدّ عليه[3].

الخاتمة:

من نوادر أحكام القضاء

١ـ قد تقرّر في الفقه: إن للقضاء ميزاناً لا يتعدّاه القاضي وهو البينة أو

---

(١) سورة المائدة، الآية ٤٨.

(٢) السيوري، كنز العرفان، ٢/٣٧٨.

(٣) تحرير الوسيلة، ٢/ ٤٦٤و٤٧٠و٥٠٦و٥٠٧.

اليمين. ومنها القسامة عند اللوث، أو علم الحاكم، أو الاقرار حيث لا يمكن للقاضي الحكم الثبوتي أو السلبي بما عدا ذلك.

نعم قد يتوسّل إلى القرعة عند تزاحم الحقوق فقط، لا لبيان الحكم وكشفه بل للتقسيم ونحوه مما يشتبه فيه الموضوع الخارجي، وتفصيله في الفقه.

وقد قيل: أن له أصلاً في القرآن الكريم لا يخلو التعرض له عن الفائدة، وذلك هو قوله تعالى:

﴿وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون﴾(١).

وقوله تعالى أيضاً:

﴿فساهم فكان من المدحضين﴾(٢).

أي المغلوبين بالقرعة حيث ظهر سهمه من الالقاء في البحر ليلتقمه الحوت أو لغير ذلك.

ثم أن لا مساس له بالقضاء، لأعمية القرعة من بابه، الا أن لها مساساً به قد أوجب الايماء إليه هنا بهذا القدر.

٢ـ قد يتخيّل الاختلاف بين حكمي داود وسليمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم.

فيحمل على اختلافهما في الاجتهاد تارة وإن الذي أوحى إلى سليمان

---

(١) سورة آل عمران، الآية (٤٤).
(٢) سورة الصافات، الآية (١٤١).

كان ناسخاً لما حكم به داود تارة أخرى.

أقول:

أمّا الاجتهاد عن رأي وتفكر حصولي فلا مجال له للنبي بالنسبة إلى الحكم الالهي، مضافاً إلى قوله تعالى:

﴿ففهمناها سليمان﴾[1].

المشعر بكونه تفهيماً إلهياً، كما إن ما أوتي داود عليه السلام كان من قبل الله عزّ وجلّ، حيث آتاه الله الحكمة وفصل الخطاب الذي قيل فيه إن منه كون البيّنة على المدعي واليمين على المنكر.

وأمّا النسخ فلعلّه لم يثبت به، لاحتمال كون كلا الحكمين حقاً، الاّ أنّ ما حكم به سليمان كان أنفع وأعود بلحاظ المتحاكمين. فتدبّر.

تم بحمده تعالى

عبد الله الجوادي الآملي

---

(١) سورة الأنبياء، الآية(٧٩).

الفهرس